المهاجر

(رواية)

د.علي إبراهيم بكراكي

دار النفائس

«المهاجر» رواية شـــائقة، لا يملُّ قارئها، ويعجب دارسها بمقدرة كاتبها على توثيق أحداثها بشكل روائي جميل، ولغة متميزة.

إنها تحكي قصة عائلة كريمـــة من جزيرة كريت، اقتلعها الغرب من أرضها، بعـــد تغذيته حروبـــاً أهلية مدمِّرة فيهـــا، وفرض على الســـلطان العثماني «عبد الحميد» تهجير المســـلمين من ســـكانها، فاختار لهم الســـلطان اسم «المهاجرين» لا «المهجَّرين»، ونقلهم معزَّزين مكرَّمين إلى مناطق خاضعة لسلطانه، فكان نصيب «آل بكراكي» مدينة طرابلس الشام.

وكاتب الرواية حفيد أحد الأبطـــال المهاجرين، الذين أقاموا في طرابلس، وترك قلبه في كريت، وكان يســـمع من والده عن جده مأساة كريت، ويشوّقه للتعرُّف عليها. ولما شبَّ الحفيد شدّه حنين خفي إلى زيارة بلد أجداده، على الرغم من اندماجه في وطنه الجديد، وافتخاره بالانتساب إليه، وحبِّه أهله، الذين أصبح واحداً منهم. فأحسن وصف كريت في روايته بجبالها الشامخة، ووديانها الســـحيقة، وتناول تاريخها وتقاليد أهلهـــا وبطولاتهم، وأرَّخ بقلمه السيّال، ولغته الجميلة، وعاطفته الجيَّاشة، مأساة المهاجرين.

إنها رواية تاريخية، رائعة، ممتعة، ومفيدة.

الناشر

ISBN 978-9953-18-539-2

المهاجر

(رواية)

بسم الله الرحمن الرحيم

المهـاجـر

(رواية)

تأليف

د. علي إبراهيم بكراكي

دار النفائس

المهاجر (رواية)

تأليف: د. علي إبراهيم بكراكي

© جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى: 1436هـ ـ 2015م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 539 - 2

نشر | Publisher

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان ـ بناية الصباح
وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14
الرمز البريدي: 2020 ـ 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 ـ 009611810194
بيروت ـ لبنان

DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

Web Site: WWW.alnafaes.com

Email: alnafaes@yahoo.com

إهـــداء...

إلى الطفلة التي وهبني الله إياها لعلم في نفسه...

إلى من رأيت فيها رسالة خفيَّة إلى نفسي...

إلى نجمة أضاءت ظلمة في حياتي كنت أحسبها نوراً...

إلى ابنتي (هيا)

أهدي هذا الكتاب

البداية من الماضي

بدأت الحكاية في اليوم الأول من السنة الدراسية للعام ١٩٧٧م. إنه اليوم الذي قرَّر فيه الوالد أن يصطحب ابنه البكر في رحلته الأولى إلى المدرسة.... كان يوماً لا يمكن نسيانه على الإطلاق... فقد كان موعد الفراق الأول بينه وبين والده الذي أودعه أمانة بأيدي أفضل المدرسين والمربين المعروفين آنذاك... كان الفتى قد تجاوز السنوات الأربع من عمره بأشهر قليلة... كان واعياً ومدركاً أنه ذاهب إلى تحصيل العلم، ولكن الألم كان يعتصر قلبه بقوة، فهو يخاف الفراق والبعد عن الأهل مثلما يخاف ذلك معظم أقرانه الصغار. كانت الدموع تجري على وجنتيه بغزارة شديدة رغم مقاومته لها...، وكانت أنفاسه تتسارع لاهثة وراء دقات قلبه الهادرة التي تخطَّت السرعة الطبيعية بكثير... كيف لا وهو يستنكر بينه وبين نفسه قدرة والده على تركه بهذه البساطة وحيداً بين أناس لا يعرفهم ولا يعرفونه؟!... لقد شعر بالخوف وخيبة الأمل لأول مرة في حياته... شعر بالوحدة والقلق يتركان في حلقه غصة غريبة ومرارة بشعة... كان نحيبه ورثاؤه لحاله مثيراً إعجاب معلِّمته التي رأت في كلماته بوادر نبوغ

وذكاء. . . . جلست المعلمة بقربه تحاول أن تؤنس وحشته وتواسيه. . . . ضمَّته إلى صدرها لتشعره بالأمان. . . خاطبته بجُمل واضحة ومعبرة كما لو أنها تخاطب رجلاً راشداً. . . كانت تحاول جاهدة أن تهدئ من روع هذا الرجل الصغير. . . قالت له بصوت متيقن: سيعود والدك ليأخذك إلى حضن أمك، وما عليك إلا انتظار سويعات قليلة، وسترى أنني لا أخدعك ولا أكذب عليك. . . ولكنك سترجع غداً إلى هنا، لأنني سأكون بانتظارك مع رفاقك، وسنقوم بالكثير من الأمور المسلية والمفيدة. . . اطمأن الصبي إلى معلمته التي بادرته فوراً بحوار قصير. . . سألته عن اسمه فأجابها بسرعة. . . . تلقفت المعلمة ذلك وقد اطمأنت إلى نجاحها في كسب ثقة الضيف الجديد، ولكنها ظنَّت أن الفتى يتلعثم بلسانه فلا يستطيع النطق الصحيح. . . سألته مجدداً عن اسمه. . . . فأجاب بالطريقة السابقة نفسها وبكل وضوح وثقة ومن دون أن يتردد. . . لقد لاحظ أن معلمته تجد صعوبة في فهم اسم العائلة، فأبدى استغرابه ذلك ببراءة واستعجاب. . . . فالاسم سهل جدّاً ولا مبرر إطلاقاً لتكرار السؤال. . . لم تعلِّق المعلمة أكثر، فقد نظرت إلى سجل القيد أمامها حيث كان الاسم والكنية مدوَّنين بالطريقة نفسها التي نطق بها التلميذ الجديد. . . هي المرة الأولى التي تسمع بمثل هكذا كنية، ولكن الدنيا كبيرة والناس فيها كثيرون وكثيرون، وإن علم المرء شيئاً فلا بد أنه قد فاتته أشياء وأشياء. . . تابعت حوارها

وسألته عن مهنة والده ووالدته فأجابها... كان من الواضح أن هذا التلميذ يملك قدراً من الوعي والإدراك، ولكنه مفرط في ردَّة فعله على فراق والده، فكان ما يلبث أن يهدأ حتى يعود لنحيبه مجدداً... استمر الوضع على هذه الحال حتى حان وقت الانصراف، وجاء الأب يأخذ ابنه الذي لم يكد يرى أباه حتى ارتمى في أحضانه مقبّلاً له ومتمسكاً بثيابه بكلتا يديه وبكل ما أوتي من قوة... لقد كان يخشى أن يتفلت منه مجدداً فيتركه في أحضان المجهول... تلقَّف الوالد لهفة ابنه بتفهُّم وعناية، فلاطفه بكلمات رقيقة وبليغة في آن معاً... فالمدرسة هي مكان لتحصيل العلم وتوسعة المدارك، وهل هناك أسمى من العلم والتعلم؟! وهل ترغب أيها الصغير في أن تكون عالةً على المجتمع؟!....

بهذه الكلمات المقتضبات، خاطب الأب عقل طفله الصغير، وأفهمه أن الواجب يأتي دائماً قبل الرغبات والتمنيات...وأن للحياة الكريمة ثمناً وضريبة، وأن الجِدَّ والمثابرة مع الاعتماد على الذات هي السبيل الوحيد للعيش بكرامة ورغد... كانت تلك المفاهيم تغزو ذهن الصبي لترسخ فيه رسوخاً كاملاً... حتى إنه كره اللهو والمرح، وعاف اللعب مع أقرانه وتهرَّب منهم.... كان والده لا ينفك يردِّد على أسماعه أن واجبات كثيرة تنتظره، وأن أياماً صعبة تتربص به، وأن ليس أمامه إلا سبيل العلم والثقافة ليواجه بهما مصاعب الدنيا وبلواها... كان الصبي ينصت إلى والده ويصغي إليه

باهتمام شديد... كان سعيداً جدّاً بتلك المهمة المبهمة التي ستلقى على عاتقه في يوم من الأيام... فقرر أن يعدَّ لها العدة ويتهيأ لها بكل أسباب القوة... قوة العقل وإدراك الأمور.... لأن الإنسان أخضع الدنيا وما فيها بقوة عقله لا بقوة ساعده... هكذا قال له والده.... هيا يا بني... أرني كيف تكون متميزاً في مدرستك متألقاً بين أصحابك ورفاقك.... أرني قدرات عقلك وقوة عزيمتك.... لا تجعل نفسك تنزلق وراء أي أمر يعيقك عن بلوغ هدفك ونيل مقاصدك...

كانت الكلمات تهوي على مسامع الصغير محدثة في نفسه جلجلة وزلزلة.... لقد خجل من بكائه ودموعه التي ذرفها في الصباح.... خجل من ضعفه الذي رآه كل الناس... خشي أن يكون غير قادر على تحقيق ما تصبو إليه عائلته وما ينتظره منه مجتمعه...

كانت تلك هي المحطة الأولى التي توقف عندها الفتى الصغير ليتأمل في نفسه وعائلته ومجتمعه.... فما الفرق بينه وبين أي واحد من زملائه في المدرسة، وبماذا يختلف عن الآخرين؟؟؟ قال له والده وهو يتابع حديثه ونصيحته: يجب أن تكون مختلفاً عن كل من هو حولك... بأخلاقك وعلمك وشهاداتك... هكذا يكون التميز يا صغيري... بأن يكون لديك ما لا يملكه غيرك... ولن يكون الأمر كذلك إلا بعد درب طويل من العناء والجهد والصبر والمثابرة...

أحسَّ الوالد أن ما قاله يفوق قدرة ابنه على الاستيعاب، فهو

لا يزال في عمر الطفولة البريئة والبعيدة عن كل شوائب الدنيا وخسَّتها... كان هدفه لا يتعدى أن يجعل ابنه أقوى من أن يذرف الدمع لأتفه الأسباب، كان يريده قوياً أمام الصدمات التي تنتظره كما تنتظر غيره في دروب الحياة... كان يحلم به متألقاً كما يحلم كل والد بولده... كان يرغب في أن يقتصر معه مسافات التجارب فيُعلِّمه النتائج قبل الولوج في الامتحانات... لقد أدرك الوالد تسرُّعه في عرض الأمور وشرح الأسباب، ولكن لا يضير الأمر شيء إن أخذ الصبي من الكلام ما يفهمه ويفيده وترك ما لا يقوى على إدراكه إلى حين....

كان الوالد يرى في طفله فتى أحلامه الذي سيحقق له كل ما عجز هو عن إنجازه... كما كان لديه إحساس عميق أنه لن يدركه في فتوته وريعان شبابه، وأنه سيتركه مجبراً وحيداً في براثن من لا يرقبون إلاً ولا ذمة... لقد وجد في ذلك ما يبرِّر له أن يستعجل في ملء ذهن صغيره بأفكار الكبار والراشدين، فكان لا يحدِّثه إلا بما يفيد من قصص هادفة وروايات حقيقية من التاريخ، ولا يضع بين يديه إلا كتب الثقافة وسير العظماء والمفكرين والمبدعين.... لقد كبر هذا الصبي من دون أن يعرف الكثير عن قصص الأطفال وألعابهم... كانت طفولته ترزح تحت وطأة مجلدات وموسوعات علمية، ترافقها رغبة جامحة عند أبويه في اختصار الزمن وطيِّه أمامه ليصبح ذلك الرجل الذي يريدونه ويحلمون به... لم يكن لذلك الفتى الحق في ارتكاب الخطأ أو

التقصير في واجب أو وظيفة، فهذا يتنافى مع الهدف الكبير الذي ينبغي له أن يصل إليه وينجزه في أقرب وقت ممكن.

كان الأب العطوف يحدِّثه عن الأقدمين والسالفين الأولين.... لأن في قصصهم عبرة لمن اعتبر، وفي استذكارهم عظة بالغة لمن أراد الفوز بالدنيا والآخرة... كان الرجل يذرف الدمع قهراً وألماً في محطات كثيرة خلال حديثه الطويل.... كان يحاول عبثاً خنق بكائه ولكنه كان لا يوفَّق إلى ذلك سبيلاً... يبدو أن ألمه المكبوت في صدره لسنوات طوال كان يأبى إلا أن يجد خرقاً في جدار القلب والوجدان والضمير لينسلَّ من خلاله دمعاً وأنّات وآهات... كان الولد ينظر إلى أبيه الحزين بعينيه المترقرقتين بدمع لا يعرف سبب نزوله... فهو أصغر من أن يدرك عمق المأساة وحجم الظلم والوجع. كان يسأل والده ببراءة عن سبب بكائه، فهو يستنكر أن يذرف والده القوي دموع الضعفاء المقهورين... لقد رفض الصغير أن يكون ضعيفاً، واحتقر نفسه لأنه بكى أمام معلمته في الصباح.... فكيف يسمح لوالده الكبير القدير أن يفعل ذات العمل المشين؟!... كانت هناك جملة ما فتئ الأب يكررها على مسمع ابنه الصغير: سوف تدرك سبب بكاء الرجال عندما تكبر يا ولدي... ولكن لا تظنن البكاء ضعفاً وعجزاً، بل هو قوة إيمان وكثرة إدراك وعمق معرفة للماورائيات يا ولدي... فالذي لا يبكي لا قلب له ولا عقل له ولا لُبَّ له... الدمع يصقل القلب ويقوّي الإدراك ويفتح البصيرة المثقلة بماديات

الحياة وحطامها. . . هل تفهم ما أقوله يا بني؟؟؟

كانت الجمل هذه صعبة وثقيلة. . . لقد اكتفى الولد الصغير بطبعها في عقله الباطن من دون أن يفهمها بكل ما حوته وعنته. . . ولكن والده كان يبدو واثقاً من أن صغيره سيصل إلى هذه المعاني في يوم من الأيام، وأنه سيعمل بها وينقلها إلى أولاده وأحفاده. . . . فهناك تاريخ يجب أن لا يُنسى، وقضية لا يحقُّ لأحد أن يطمسها، وأرواح هائمة لا تستحق منا إلا أن نهدئ من روعها ونخفِّف من مرارتها. . . هذا هو سبيلنا وهذه هي طريقتنا. . .

نعم، الطريق صعب وشاق أيها الصغير، ولكن الخيار ليس بيدك. . . فهذا قدرك وهذا قضاء الله فيك. . . لا تجزع ولا تخف، وسِرْ فعين الله ترعاك، وتذكَّر أن جدك الذي تحمل اسمه كان رجلاً تقيّاً وورعاً، قد أحبَّه الناس وأنسوا له، واعتادوا على جلسته أمام محلِّه في شارع المطابع مع أخيه وهما يتسامران معاً بلغة لا يفهمها جيرانهم من أهل المدينة. . . لقد كان مظهرهما ملفتاً للانتباه. . . فقد كان لجدِّك وجه تعلوه حمرة غير عادية، توحي بصورة رجل غاضب لعنفوانه وكرامته، له عينان زرقاوان ترى فيهما علو السماء ورفعتها. . . وكان يعتمر طربوشاً أحمر ويلبس صدرية مزركشة كأعيان الدولة العثمانية، حتى لكأنه سفيرها المنتدب إلى هذه البلاد. . . أما أخوه، فقد كانت خيزرانته لا تفارق يده، وكان شارباه غليظين مفتولين بعناية إلى أعلى. . . لقد كان يمثِّل الآغا التركي وما كان يملكه من قوة وسطوة وجبروت. كان

جدّاك يُعرفان في المدينة بالمهاجرَين، فهذا لقبهما ولقب كل مسلم كريتي جاء إلى هنا.....

تعجَّب الصبي من وصف أبيه، واستوقفته في حديثه هذا ألفاظ ونعوت يحتاج إلى استبيان معناها وإدراك شرحها ومضمونها... فانهال على والده بسيل من الأسئلة: كيف يكون جدي مهاجراً؟ وماذا يعني ذلك؟ ما هي كريت؟ وما علاقتي أنا بكل ما رويت وقصصت؟!!

هذه حكاية طويلة يا بني... إنها حكايتنا وحكاية أهلنا وجيراننا وكل من ركب معنا في سفينة الهجرة من جزيرة كريت... وطننا ووطن آبائنا وأجدادنا... ذلك الوطن الذي عشناه في أحلامنا ولم تبصره أعيننا... وانسكب الدمع مرة جديدة ليقطع الحديث ولو برهة قصيرة، ولكن الوالد تدارك الأمر فاعتدل في جلسته وعاد ليخاطب صغيره بلغة بسيطة وواضحة... قال: نحن أبناء المهاجرين من جزيرة كريت، عروس البحر ولؤلؤته.... ولد فيها جدُّك وترعرع حتى بلغ من عمره سبع سنين.... كانت تلك السنوات التي قضاها في الجزيرة قليلة جداً، ولكنها كانت كافية لتترك في ذهنه الفتي صوراً شتى من لوحات طبيعتها الخلابة التي قلَّ نظيرها في الدنيا... فبحارها لوحة فنِّيَّة بزرقة مياهها ونظافة شطآنها، حتى إنها تشفُّ من دون خجل عن مكنونات قعرها وتكشف عن لغز أسماكها التي تسبح بطمأنينة مفرطة، وتتراقص في المياه غير آبهة بأعين المراقبين المندهشين... أما الجبال فيها

فهي رمز الشموخ والقوة والسطوة، ومظهر من مظاهر التحدي المستمر بين الإنسان الكريتي الذي لم يتنازل يوماً عن تطويع طبيعتها الوعرة ووديانها السحيقة، وتضاريسها العنيدة... ولكنها في الوقت نفسه رقيقة وحساسة، يفوح منها عبق الأعشاب البرّيَّة، وتزدان بأشجار الصنوبر والشوح والزيتون، وتتزين بقطعان الشياه المختلفة عن كل شياه الدنيا بقرونها الطويلة والمعكوفة في شكل فنّي فريد... وأما السهول فحدِّث ولا حرج عن عطاءاتها السخية وبركة الزرع فيها ولذَّة قطافها وحسن خضرتها... كان جدُّك يتحدث عنها بلغة أقرب ما تكون إلى وصف عروس جميلة تتبرج في يوم زفافها... كان يتحسر على كل دقيقة مرّت من عمره بدونها... فهي معشوقته التي أُجبر على تركها وأُكره على فراقها، فبقيت صورتها عالقة في ذهنه العليل بمرض الاغتراب الجبري والإبعاد التعسفي...

كان الأب يقص الحكاية على مسمع الطفل الصغير وهو يبتسم ابتسامته الأليمة الممزوجة بحرقة قديمة وغصة مزمنة... كان الصبي مفتوناً بالنعوت التي يستعملها والده، وبالسرد العذب الذي يستخدمه وهو يحكي له حكاية جده... إنها حقّاً حكاية ممتعة، ولكنها كانت مبتورة ومقطعة في نظر الفتى الذي كان يريد معرفة كل التفاصيل دفعة واحدة، ولا يسمح أبداً بالفواصل والاستراحات بين المشهد والآخر.... إلا أنه لم يستطع أن يتغلب على إصرار والده على ترك القصة عند هذا الفصل، مع قطعه وعداً صادقاً بمتابعة سرد تفاصيلها في وقت لاحق...

طفولة التعرُّف على الذات

مرَّت أيام المدرسة بيسر وحلاوة، فقد اعتاد الصغير على رفاقه وأحب معلمته وتعلَّق بها. كان لا يحتمل إبعاد ناظريه عنها ولو فترة وجيزة، كما كان يكره غيابها لأي عذر أو مرض أو عمل، ويسائلها في اليوم التالي عن السبب الذي دفعها إلى الغياب... لقد كانت تلوح بوادر تفوُّق الجانب العاطفي عند هذا الطفل الصغير على ما سواه من الجوانب النفسية الأخرى. فقد كان حبه مفرطاً لكل شيء يعتاد عليه... يبتسم للحجر والشجر، ويكلِّم الجماد بلغة المخاطب الذي يحاور صديقاً قديماً... كان يتلهف إلى رؤية أبويه ويسعد بلقياهما، ويتلذذ بألوان التواصل الحميم معهما... لقد كان وعاءً نهماً لكل شيء، يحب السؤال والمساءلة، ولا يملُّ الإجابات الصعبة مهما تعذَّر فهمه لها. فهو ببساطة شديدة يهوى كل جديد وصعب، ولا يكترث لما هو هيِّن وسهل...

كانت طفولته أشبه بسباق شرس بينه وبين الوقت... فهو يحاول استغلال كل دقيقة في إشباع نهمه وإيجاد أجوبة معقولة لتساؤلاته الكثيرة... كانت أفكاره الصعبة والمعقدة غالباً ما تدفعه إلى أن يسترسل في غيبيات لامحسوسة، ليصل دائماً إلى

ألم في رأسه ممزوج بالوصول إلى حائط مسدود.... كان يتساءل دائماً عما يجري وراء هذا الحائط، ويتمنى لو أنه يستطيع العبور من خلاله ليسلك درب الحقيقة المجردة التي يبحث عنها... ولكن عبثاً كانت كل تلك المحاولات... لم يكن لهذا الفتى أن يجد ذاته مع أقرانه، بل إنه كان يرى أن بينه وبينهم وادياً سحيقاً يستحيل ردم هوَّته أو تضييق أبعاده... فمع كل حبه لهم ومشاركته في الكثير من أنشطتهم، إلا أنه كان يبحث عن شيء آخر يرضي نهمه ويروي عطشه في رحلة البحث عن الذات والكشف عن الحقائق المستورة بغشاء الجهل وقلَّة الإدراك.

كان والده الملجأ والملاذ... فعنده الخبر اليقين، عن كل ما كان وما سيكون....

هكذا كانت تتراءى له خيالات الحقيقة... وهي كذلك في عين كل صغير، لأنه يظن أن والده على كل شيء قدير... من هنا انطلق الطفل يسأل أباه عن كل ما يحيره ويثير قلقه ويخيفه... كان أول شعور خوف أدركه وذاق مرارته ساعة فراقه عن أبيه وأمه في أول يوم دراسي... لم يكن يدرك أن هذا الشعور سيكون رفيقه المخلص والوفي الذي يأبى أن يترك خلَّه أو يدعه وشأنه... ومن يدري؟ فقد تستمر هذه الصداقة والعلاقة الوطيدة إلى آخر يوم في حياته.... وبعد تفكر وتفكير، سرعان ما أدرك الصبي حلاوة هذه المرارة... إنه اللقاء الذي يلي الفراق، أطال الزمان أو قصر... وها هو

والده يطمئنه مراراً وتكراراً بقوله إن الزمان كله قصير، وإن غداً لناظره قريب...

كانت ساعات الطفولة تجري بسرعة نحو المجهول المعلوم...وكانت الدقائق والثواني ترسم خطوط رجولة هذا الطفل الصغير.... فوعاء العقل يمتلئ رويداً رويداً بسيل الأفكار الغامضة، أما الوجدان فينسج بخيوط رفيعة ودقيقة، في كل خيط منها حزن قديم وسرٌّ دفين لقصة مجهولة التفاصيل... قصة تجعل ملامح وجوه الناس تفيض بؤساً وتسيل غمّاً في كل مرة يحاولون فيها استذكار ما مضى أو استحضار ما قد فات...

وانطلق الأب مجدَّداً يروي قصَّته على مسامع طفله الذي كانت عيناه تتسع محملقة في وجه أبيه قبل أن يبدأ بالحديث... يبدو أن صبر الفتى قد نفد وأن شغفه قد بلغ الذروة... والمهم في الأمر كله أن الوالد كان يعلم تحرُّق ولده، فقرر أن يستغل الأمر إلى أبعد الحدود....

لم يستطع جدك أن يعيش طفولته في جزيرة كريت التي كانت وقتئذ تهوج وتموج في لجٍّ من القلاقل والاضطرابات... كان والده (عبد الحميد) يخاف عليه من أن يصيبه مكروه أو يمسه أذى... فالأمن والأمان معدومان في الجزيرة منذ وقت طويل... أما أمه (ولَية) فكانت لا تسمح له باللعب خارج المنزل بتاتاً، وكانت كثيراً ما تفرض عليه حظر التجوال في الحدائق المجاورة والدروب الجبلية القريبة...

لقد أصبح الوضع في الجزيرة الحسناء أقرب ما يكون إلى السجن الكبير... أوَتدري كيف يسجن المرء في وطنه يا صغيري؟؟ استغرب الولد السؤال... فهو لم يسمع بالسجن إلا من معلمته وهي تهدد رفاقه الكسالى...

فهل كان جدي كسولاً يا أبي؟؟؟

ضحك الوالد من براءة طفله وطريقة ربطه للأمور، ثم تابع قائلاً: لم يكن جدك كسولاً أبداً، ولكن الحرب كانت قد استعرت في الجزيرة، وشاع فيها القتل، وانتشر السلب والنهب، وزاد الهرج والمرج، وكثرت غارات العصابات على القرى البعيدة تغدر في أهلها المسالمين، حتى انقلب جمال الجزيرة إلى قبح، وتحوَّل صفاء سمائها إلى حلكة وسواد، وانقلبت خضرة وديانها إلى حمرة تراب مخضل بدماء الأبرياء... لقد امتزجت الرياح بأصوات النحيب والأنين المتصاعد من حناجر النساء الثكالى على أزواجهن وأولادهن... نعم يا ولدي، فلقد عمَّ البلاء، وزادت سطوة الأعداء، حتى أضحت الجزيرة ناراً تلظّى... ثم ازداد الوضع سوءاً يوماً بعد يوم، وضاقت الأرض بما رحبت، واستحالت الحياة، وأصبح كل يوم يمر وطؤه ثقيلاً كالجبال الشاهقة، فالدقائق اجتازت ببطئها عتبة السنوات، وتوقف الوقت عن المضي إلى الأمام، معلناً أن الوقت قد حان، لترك البيوت والأوطان....

كانت أنباء الحروب والويلات في وطن جدك تتصدر عناوين

الصحف العالمية الكبرى، فكانت كل دول العالم تتابع أخبارها يوماً بيوم، وكان السفراء يتزاحمون في إرسال البرقيات العاجلة إلى حكوماتهم، وكذلك كان المراسلون الصحفيون يتبارزون فيما بينهم لإظهار براعتهم في سبك الحوادث وصياغة الأمور... وامتشق الرسامون أقلامهم وريشاتهم ليرسموا المشاهد ويلتقطوا الصور... لقد كانت الصورة واضحة أشد الوضوح... فقد عبثت الأيادي الغريبة بأهل الدار، وكثرت الأقاويل في تشخيص العلة وتثبيت المرض، ثم اختلفت وصفات العلاج وتداخلت، فظهرت الاشتراكات، وطغت المضاعفات على كل أمل في تحقيق البُرْء للجزيرة المسكينة البريئة من الداء والدواء على حدٍّ سواء...

تبدلت ملامح وجه الفتى الصغير، فلقد أحسَّ بضيق في صدره وحشرجة في حلقه... وتساءل عن ذنب الصغار في كل ما آلت إليه الأمور في جزيرة كريت!!! فلماذا يجب على الصغير أن يدفع ثمن غباء الكبار وعنادهم واستكبارهم؟! ولماذا هو دائماً ضحية أطماعهم وقربان نزواتهم وشذوذهم؟! وكيف لا يستطيع أن ينأى بنفسه عن شرور نفوسهم ويدفع عن براءته جموح شهواتهم؟؟؟ لماذا يظلم القوي الضعيف يا أبي؟ وبأي حق يبتلع الكبير قوت الصغير من دون أن ترفَّ له عين أو يجفل فيه إحساس؟؟؟ إذا لم يكن هذا هو الحرام فما الحرام يا أبتِ؟؟؟

تعجَّب الوالد من تأثير القصة على وجدان صغيره وهي لا تزال في بدايتها... ثم رد عفوياً وقال: اعلم يا بني أن كل ما لم تنله أيدي المجرمين من حقوق الناس فهو حرام، وكل ما لم يصل إلى أفواه الآثمين فهو حرام.... الحرام عند هؤلاء الظالمين هو ما تعذَّر عليهم اقتناصه، أما عكس ذلك كله فهو عندهم حلال... إن هتك أعراض الناس وسلب أموالهم والنيل من كراماتهم وإذلال شيوخهم واغتصاب نسائهم واستعباد أولادهم هو كله حلال في حلال.... عندما يحل الدم وتهان الكرامات ويستهان بالأعراض يصبح الوطن سجناً والهواء سمّاً والماء وقوداً لنار تحرق كل شيء ولا تترك وراءها إلا خراباً ورماداً....

وهذه كانت بداية الهجرة يا ولدي...

فبعد أن فاحت روائح الجثث، وسالت الدماء في الطرقات، أرسل السلطان عبد الحميد قوارب الخلاص إلى كريت لتحمل كل من أراد النجاة بنفسه وولده وشرفه.... فرست السفن العثمانية أمام شواطئ الجزيرة المنكوبة... وبدأت الزوارق تنقل الناس من الشاطئ إلى السفن حتى غصَّت بركابها... ثم انطلقت السفن محملة بوفود المهاجرين، تمخر عباب البحر الكبير، معلنة بداية الرحلة إلى المجهول...

وفي الوقت الذي كانت تقترب فيه السفن من الشواطئ الآمنة، كانت البرقيات تنهال على الولاة أن أكرموا وفادة المهاجرين، وأحسنوا استقبالهم، وهيؤوا نزلهم... فهم

ضيوف الرحمن والسلطان، ولا هوادة مع كل من يتعرض لهم بسوء أو يقترب منهم بأذى، أو يقصّر في خدمتهم وتلبية حاجاتهم......

كان السلطان يتابع مجريات الأمور بنفسه ويلاحق البرقيات بكل تمعن واهتمام... فالمهاجرون كانوا من أكثر الرعية حبّاً له وإخلاصاً لدولته، ومن أشرس المدافعين عن بقائها ووجودها في كريت.... لقد دخل والد جدك عبد الحميد على الناس، وهم يتسامرون في مقهى القرية في كريت، شاهراً خنجره وصارخاً بأعلى صوته أن أغيثوا إخوانكم فهم يذبحون، وأنتم ههنا تأكلون وتشربون... فهبَّ الناس ووقفوا وقفة الصناديد، لأن من مات دون ماله وعرضه فهو شهيد... ولكن الرياح كانت أعتى من أن تقاومها صدور أبطال عُزَّل، وسواعد رجال مجردة من كل أسباب القوة... لا تظنن أن أجدادك هُزموا بقوة السلاح أو على أرض المعارك يا ولدي، فكلنا يعرف أنهم أبلوا أشد البلاء، وأنهم أذهلوا العالم بفنون المقاومة والقتال... لقد هُزم أجدادك على طاولة الصلح والمفاوضات، وأُهديت الجزيرة لقمة سائغة على موائد الساسة الماكرين الذين اقتسموها وأكلوها وأخرجونا منها صاغرين...

تململ الولد من التطورات القبيحة لهذه القصة، وأشاح بوجهه معترضاً على هذه الحكاية التي يُهزم فيها الأبطال... أحسَّ الوالد باستياء ولده فقرَّر التوقف عن متابعة السرد، ولم يلبث أن أمسك بيد ولده وضمه إلى صدره بحنان وحب وقال:

تعال معي لأُريك الخنجر الذي لوَّح به جدك في المقهى الكريتي... فبرقت في عين الصبي ومضة شعاع بدَّلت حزنه فرحاً وقلبت ما أصابه من غمٍّ إلى سرور وحبور... كم هو جميل أن تحتفظ بخنجر العزة والكرامة يا أبي!... أعطني إياه لأشمَّ فيه رائحة عنفوان جدي وصلابته وقوته.... تبسَّم الأب ضاحكاً وهو يناول الصبي خنجراً صدئاً أسود.... وأمسك بزمام الحديث قبل أن يباشره الفتى بسيل من الاستنكارات والاتهامات فقال: لا تظنن الكرامة تكمن في قطعة حديد، أو أن القوة في سيف تحمله أو رمح تتأبطه... فالكرامة تنبع من هنا والقوة تكمن ههنا... وأشار إلى صدره ورأسه... ثم تابع فقال: يمكنك أن تبيع سلاحاً وتشتري غيره متى تشاء، ولكن عليك أن لا تسمح لأحد مهما علا شأنه وزادت سطوته أو كثر ماله وعزَّ جاهه أن يصادر قلبك ويشتري عقلك.... فهذا هو السلاح الذي تملكه دون الآخرين، ولا يستطيع أن ينازعك فيه أحد... واعلم يقيناً أن هذا ما يميز الناس بعضهم من بعض، فيكون منهم الصالح والطالح والطيب والخبيث... إن الخنجر الذي بين يديك اليوم لا يساوي من الناحية المادية شيئاً، أما المعنويات التي يحملها فهي أغلى بكثير من أن تقدَّر بثمن أو تساوى بأي شيء آخر...

أمسك الولد خنجر جده الصدئ وحاول عبثاً أن يزيل عنه ركام الأيام وغبرة السنين... وأحسَّ بثقل يد الجد الأكبر يقع فوق رسغه الضعيف، فلم يلبث إلا قليلاً حتى أعاد الحمل إلى

والده وهو يطلب منه المزيد من المعلومات عن جده البطل المهزوم، المهاجر من جزيرة كريت....

مسح الأب رأس ولده ودغدغ شعر رأسه وهو يقول: اذهب الآن إلى السرير، فغداً يوم عمل شاق وطويل، وسوف نكمل الحكاية ونتمُّ الرواية، فلا تستعجلن أمراً سوف يكون... وإني أعدك أن أقصَّ عليك كل ما أعرف، وستكمل أنت فصول هذه الحكاية، وسترويها إلى أبنائك في يوم من الأيام... هذا عهد قطعته لأبي قبل أن يموت، وعهد عليك يا ولدي قد أخذته منك الآن... فهذه أمانتي عندك أرجو أن لا تضيعها وأتمنى أن تحملها بصدق وقوة ويقين...

السلطان عبد الحميد

ذرية بعضها من بعض...

ها قد حل فصل الربيع، وازدانت الدنيا بعبق زهر الليمون الفائح في شوارع طرابلس... لقد لبست الطبيعة فستانها الأخضر، وتجمَّلت بالورود المفتحة في كل مكان، وتخايلت تحت أشعة الشمس الدافئة مفتونة بجمال وسحر لا يقاوم... لقد عادت العصافير تملأ الدنيا شدواً ولحناً، واستعادت السماء حيويتها فانقشعت غيومها وغاب تلبُّدها، فزادت نضارتها صفاء وحُسناً...

جلس الوالد وقت المساء يتسامر مع فلذة الكبد ومهجة القلب، وصار يحدِّثه عن الحياة الدنيا ودورتها، وكيف أن ليس فيها ما يدوم أو يبقى، وأخبره أن الغباء يكمن في أمن مكرها وعدم الإعداد لأيامها السيئة الكثيرة، والتي غالباً ما تلي أياماً معدودات ولحيظات قليلات من السعادة العابرة... كل شيء في الطبيعة يتغير يا ولدي، فالربيع يأتي بعد أيام الشتاء، وخريف العمر يأتي بعد صيف الشباب... وكلنا في هذه الدنيا عابر سبيل، يمضي بقدميه إلى لقاء مصيره، ويعجز عقله وذكاؤه الذي أدرك بهما أسراراً هائلة من معرفة ما ينتظره بعد لحظة أو ثانية أو جزء من ثانية... تذكَّر أن الإنسان ضعيف يا

بني، فلا تغرَّنك قوة تراها أمامك، ولا تجزع من بأس يعترض طريقك... لأن كل ما في هذه الدنيا زائل، وما عليك إلا أن تصبر قليلاً وتنتظر... وسترى بأم عينيك أفول كل شيء... لأن القاعدة السارية في الحياة تقول: إن بقاء الحال من المحال، وإن مصير كل ما يُترقب تمامه هو الزوال...

غريب أمرك يا أبي!!! فأنت لا تدع فرصة جميلة تمرُّ من أمامي إلا شرَّحتها وأظهرت عيوبها ومفاسدها، بل واستفضت في تعريتها وإشهار قبيحها إلى درجة تجعل المرء يظن أن بينك وبين السعادة عداوة وثأراً.... وإلا فكيف ترى الخريف في الربيع وتشاهد الشتاء في الصيف؟!... لماذا لا تتركني أعيش كل فصل من هذه الفصول بجماله وخصوصيته؟! ألا ترى أنك تظلمني من حيث لا تحتسب أو تدري؟!

أطرق الوالد رأسه وقال: قد غلبتني يا فتى!!! وسأعترف لك بسرٍّ كنت قد كتمته سنين طوالاً، فالحق أن الفرح قد مات في نفسي منذ سنوات بعيدة... يوم ودَّعت أبي وأنا في طريقي إلى بلدة نائية في البقاع... كانت تلك القرية تمثل المحطة الأولى في حياتي المهنية، كما كانت سبباً في ابتعادي عن والدي الذي وافته المنية من دون أن أراه أو أكون بجانبه عندما فارق الدنيا... لقد توقفت عقارب ساعتي يوم أدركت أني بِتُّ وحيداً في هذا العالم المليء بالوحوش الكاسرة، وتفلَّتت البهجة من يدي وطار السرور من صدري لما أيقنت أني فقدت سندي ومصدر قوتي... كان شعوراً لا يوصف وإحساساً لا

يُحتَمل.... يومها تلفتُّ حولي فلم أجد إلا صدر أمي... نعم... لقد كان المكان الوحيد الذي وجدت فيه الدفء والسكينة، فتضاعف حبي لها أضعافاً وأضعافاً كثيرة، فكنت لا أحتمل البعد عنها ولا تركها... لقد أدركت أنها هي البقية الباقية في هذه الدنيا الفانية، وأن عليَّ الاستفادة من وجودها بأكبر قدر ممكن...

إن الحزن في عائلتنا تراث موروث يا صغيري.... وإن كنت أدعو الله ليل نهار أن يبعد عنكم الغمَّ والهمَّ، إلا أني لا أرى لكم منه مفرّاً ولا مهرباً... فقد عاش جدك يبكي على طفولته الضائعة في كريت، وعشت أنا أبكي على والدي المسلوب منّي قسراً وقهراً، وعلى كل ما أُخذ من يدي عنوة بعد أن خسرته وفقدته... لقد كان جدك من خيرة شباب المهاجرين، وكان كريماً وليّناً بمقدار ما كان عارفاً وحازماً... أتدري يا صغيري أنني كلما تذكرت دموعه بكيت من دون أن أعلم لماذا أبكي ولأي سبب أنتحب؟... كنت أستغرب دموعاً يذرفها رجل وهو يستذكر أيام طفولته أو يتحدث عن وطنه ووطن آبائه مستعيداً أيام الرعب والخوف والحيرة... كان صوته يخفت كلما تكلم عن الفظائع والويلات التي سمع عنها وعايشها... لقد كانت طفولته مختلفة عن طفولة أشخاص كثيرين... لقد فتح عينيه ليجد نفسه على أرض لا يعرفها، وبين أطفال لا يفهمونه ولا يفهمهم، فكان سجيناً مرة أخرى في بلد آخر هذه المرة...

لقد أدرك أنه ما لبث أن خرج من سجن حتى حلَّ في سجن جديد، ولكن ما أحيلى سجنك يا كريت! وما أجمل ترابك! وما أطهر أرضك وكل ما فيك!...

لم يكن بمقدور أي واحد من المهاجرين أن يعيش خارج كريت... كانت هذه حقيقة غير قابلة للتبديل أو التغيير... ولكن الحقيقة المرة كانت أن كلهم يعلم أنها قد ذهبت إلى غير رجعة، وأن الوطن قد تبدل بواحد آخر يختلف عن الأول باللغة والعادات والتقاليد وكل شيء تقريباً... واسمعها منّي كلمة صدوقاً أيها الشاب الصغير: قد يتبدل البلد الذي تعيش فيه، وقد تتكلم لغات أخرى غير لغتك الأم، ولكن الأوطان لا تُستبدل ولا تعوَّض... لقد وقعت الخسارة الكبرى فوق رؤوسنا جميعاً، وسوف نتوارث بكاء الأجداد ونواح الجدّات جيلاً بعد جيل، ولا يجب أن نترك للنسيان نصيباً في دخول ذاكرتنا أو ندع الزمن يمرُّ فيضمد جراح قلوبنا... نحن لا نريد ثأراً من أحد ولا نسعى لننتقم من أحد، ولكن ما من أحد أيضاً يستطيع أن يكذب التاريخ، أو يزيل أثر أقدام آبائنا وأجدادنا من أرض كريت.... هذا هو العهد الذي بيننا وبينكم أيها الجيل الجديد.... أنتم أحفاد المهاجرين وأنتم ورثة قصتهم وحكاياتهم....

هنا وقف الطفل وقفة الرجال بعد أن أحسَّ بدم أجداده يتدفق في شرايينه، وقال بلغة حازمة: أعاهدك على حمل الأمانة يا أبي، وسأكون خير حفيد لخير جد، ولن أترك قصته تذهب سدى أو تذروها رياح... ولكن قل لي يا أبي: ماذا

فعل جدي في الوطن الجديد، وكيف عاش وكيف مات؟؟

وخيَّم على الجو صمت مريب.... فهل هناك شيء يدعى (وطن جديد)؟! كلا وألف كلا... الوطن لا يكون إلا قديماً يا حبيبي.... الوطن وطن قبور الآباء والأجداد وأجداد الأجداد.... الوطن وطن الحاضر والماضي والذكريات.... الوطن وطن الحقيقة والخيال والجمال.... الوطن مجموعة سحرية من كل هذا وذاك... لقد عاش جدك من دون وطن يا صغيري... أما أنا وأنت فوطننا ههنا، هنا ولدنا وهنا سنموت... الفرق بيننا وبين جدك كبير يا بني.... فلا نحن عشنا ما عاشه، ولا أدركنا إحساسه، ولا ذقنا مرارته... نحن سمعنا قصته ونسجنا خيال حكايته... ولكننا لم ندرك يوماً عمق جرحه ولا عرفنا أبداً حقيقة مصابه... لقد قلنا دوماً إن ما فات مات، وإن الزمن لا يعود إلى الوراء، فما الفائدة من استحضار الآلام واستجلاب المواجع؟!

إن الوقوف على الأطلال أمر لا طائل منه ولا فائدة... ولكن استذكار الماضي ومعرفة التاريخ ضرورة ملحَّة لا غنى عنها لتدارك الأخطاء وفهم الزلّات.... كما أن تعلُّق المرء بتاريخه وجذوره أمر محمود.... إذ لا أصل لمن أغفل أصله وتنكَّر لآبائه وأجداده.... ومن لم يكن فيه خير لأهله فلا خير فيه البتة... هذه هي نقطة انطلاقنا يا ولدي وهذه أعرافنا وتقاليدنا... فاحرص على التمسك بها ولا تتخلَّ عنها وعلِّمها لمن جهلها... فهذه مهمة الشجعان وطريق أهل المروءة والكرامة والفضل...

بداية في وطن آخر....

بعد أن وصل جدك الصبي مع أبيه وأمه إلى هنا، بدأت مرحلة أخرى من حياتهم ترتسم في مكان جديد له حيثياته وخصائصه.... كان لا بد لهم من التأقلم مع الوضع الجديد، وكان عليهم أن يتعارفوا مع جيران لهم تقاليد لا تمتُّ إلى تقاليدنا بصلة، وأعراف تختلف عن أعرافنا تماماً...

كانت البداية صعبة ومعقدة.... فكلهم كان يمنّي النفس بالعودة إلى وطنه وبيته ومزرعته.... لقد خرج الكثيرون من المهاجرين على عجلة عجال تاركين وراءهم كل شيء... كان المحظوظ منهم من حمل ما تيسر له من أوراق ثبوتية ووثائق ملكية لبيته وأرضه في كريت.... وقلة قليلة استطاعت تحصيل ما أمكن من قطع نقدية قليلة بعد بيع سريع لدار أو أرض بأبخس الأثمان... كان هناك بعض الرجال ممن لم يتقبلوا فكرة الخروج من الجزيرة وترك ثرواتهم وبضائعهم وأموال تجارتهم.... فبقوا هناك رغم تضرُّع نسائهم وبكاء أطفالهم، وهم يمنّون أنفسهم بتحصيل أموالهم واسترداد حقوقهم من ذمم الناس.... الفجيعة الكبرى أن الرجال ضاعوا وضاعت معها الحقوق يا ولدي... لقد فقدنا معظم

هؤلاء الرجال، ولم يتسنَّ لأحد منا أن يقتفي أثر والده أو عمه أو أخيه ممن بقي في كريت... لقد عاشت نساء تبكي أزواجها وآباءها سنوات عديدة، وكانت تهرع إلى باب دارها متلهفة كلما طرقه طارق، يتراءى لها طيف الحبيب المغيَّب، الذي كان عليها أن تنتظر عودته حتى تموت... وكان حتماً لن يعود...

هكذا بدأت قصة المهاجرين الذين تقوقعوا بعضهم على بعض، وبنوا أسواراً من الخوف مِن محيطهم الجديد الذي لا يعرفون عنه الكثير... كان طبيعيّاً جدّاً أن ينعزلوا وينفصلوا عن دائرة كانوا دخلاء عليها، في وقت كان شبح الموت قد جال فيه على معظم بيوتهم وخطف أجمل بناتهم وأقوى شبَّانهم... كانت النساء كلهنَّ يلبسن السواد.... وكان الرجال كلهم مقهورين، والدمع في أعينهم جميعاً متردد بين أن يحبس أو أن يسيل.... كان من الصعب أن ترى ابتسامة أو تسمع ضحكة أو تشم عطراً... كلهم في حزن كبير وغمٍّ عظيم وحيرة مما جرى وإلامَ آلت إليه الأمور....

كان عزاؤهم أنهم لم يُرموا في العراء أو المخيمات، وأن العثمانيين قد وفروا لهم أسباب الكرامة كلها.... فقد نزلوا في بيوت شيدت خصيصاً لهم، وحلّوا ضيوفاً في خانات تحت إشراف الدولة ومراقبتها.... وكان حُسن الجوار قد بدأت ملامحه تلوح... فبدأت نفوسهم تهدأ وأذهانهم تصفو وأبصارهم تتطلع إلى غد أفضل في مكان جديد سيكون وطناً

لأولادهم وأحفادهم وذرياتهم.... ولم يمض إلا وقت قليل حتى شمَّر الرجال عن سواعدهم لتبدأ مرحلة البناء في مكان جديد. وانطلق كل ذي مهنة إلى عمله، فحرثوا الأراضي وزرعوا الحقول ونسجوا البسط وحاكوا الثياب.... لقد كان المهاجرون أهل مروءة وكرم وعنفوان واعتماد على الذات... وكانت الدولة العثمانية قد تكفلت بحمايتهم ورعايتهم وتحقيق الأمن والأمان لهم في بيوتهم الجديدة وقُراهم الحديثة.... فكانت انطلاقتهم هذه ميسورة إلى حدٍّ بعيد.... وشقَّ كل واحد منهم طريقه إلى الأمام ليكفي أهل بيته وعائلته الصغيرة...

هذه بداية قصة المهاجرين في هذا البلد.... والحقيقة أن بداية حياتهم هنا كانت مطابقة لتلك التي كانت في الجزيرة.... فالحاكم لا يزال هو هو.... والسلطان هو صاحب الكلمة الفصل في هذه البلاد، وهو محب للمهاجرين.... فبقي الباشا على باشويته والآغا على إقطاعيته بعد أن منح السلطان كل ما يستطيع ليحافظ على كرامات الناس ومقاماتهم... ولكن لم يكن الأمر ليطول على هذا المنوال.... فبعد بضع سنوات، عُزل عبد الحميد، وتسلَّم الاتحاديون زمام الأمور، وبدأت مبادئ القومية والتتريك تفتك بهذه البلاد، فالسلطان الجديد كان أعجز من أن يقوم بشيء، وكان يمضي معظم أوقاته في تكايا المولوية محتسياً الشاي وزاهداً في أمور السلطة التي لم يعد يملك منها إلا

الاسم. . . . ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فحصدت الأرواح بالسيف والبارود والمجاعات، وعادت روائح الجثث تعبث بأحلام المهاجرين وتقض مضاجعهم، فاستيقظ الرعب في نفوسهم، وظنوا أن الدائرة تدور عليهم من جديد، ولكن الحرب هذه كانت أكبر من قصتهم، وكان رأس العثمانيين قد آل إلى السقوط الذريع، فسقطت إزمير ودخلت الجيوش الغربية إلى اسطنبول، وتقهقرت الجيوش العثمانية من كل البلدان العربية والأوروبية، تاركة وراءها ألوفاً مؤلفة من الرعايا بلا حماية ولا وصاية. . . . هنا تيقَّن المهاجرون أن كريت أصبحت من الماضي، وصار همهم أن يحافظوا على بنيانهم الجديد في هذه الأرض الجديدة، وأن يرسخوا أقدامهم في وطن سيكون حاضناً لهم ولمن خلفهم. . .

والحق أن لكل مرحلة من هذه الحياة شروطها ومواقيتها، فلا يمكن لجيل أن ينتقل من حال إلى حال إلا بعد عناء كبير ومجاهدات عظيمة. . . . فأجدادنا كانوا لا يتكلمون إلا اليونانية، ولا يعرفون لغة غيرها. . . . كما كانت كل وسائل التواصل والتعلم ممنوعة ومقطوعة. . . . وكانت الأمية طاغية على المجتمعات بأسرها. . . . لقد كان حتماً على مجتمع المهاجرين أن يكون منعزلاً بشكل أو بآخر عن كل ما كان يجري من حوادث وأمور هنا وهناك، وكان كل فرد منهم يجد سلوته في أمر من الأمور التي يجيدها. . . . هنا لا بد لي من تذكُّر جدتي (ولية) وهي تقرأ القرآن تلاوة من المصحف

الشريف، بلغة عربية ذات لهجة أعجمية، وكنت وأنا طفل صغير أطرب لصوتها وهي قابعة في سريرها تقرأ وتقرأ وتقرأ بلا كلل ولا ملل.... آه يا ولدي من الذكريات كيف تفتك بالعقول والقلوب، وما أعجب قدرة الإنسان على استحضار الماضي ورؤية شريط الحياة في لحظات وومضات!... لكأنّي أنظر إلى عين جدتي وأسمع صوتها الآن.... لكأنّي أحسُّ بيدها على رأسي وهي تداعبني وتمازحني.... الحياة الدنيا هذه أمر معقد يا ولدي.... أعمارنا تمضي ونحن نكدُّ ونجهد لتحقيق شيء ما هو في الحقيقة لا شيء إذا قيس بمعيار السنين والأيام!!!

كانت جدتي (ولية) لا تسأم من إعطائي نصائحها، وكانت ذات بصيرة ورؤية تجعلني أنصت إلى كلامها بكل اهتمام كي لا يفوتني شيء من حكَمها وقولها.... كانت تردد على مسامعي أن هذا الزمان هو زمان الخزي والعار والخذلان وأن لا أمل في هذه الأمة طالما أن الجار يغطُّ في نومه من غير أن تدخل أنّات جيرانه إلى أذنيه.... كانت تقول إن ضمائر الناس ونخوتهم وشهامتهم ستضمحل يوماً بعد يوم، وإن الأخلاق ستندثر وتمحى بالتدريج حتى لا يبقى منها أثر، وإن الأنانية وحب الذات والغرق في الملذات واتّباع الشهوات والسير خلف النزوات سيصير دين الناس ومبدأهم.... هكذا ستضيع المزيد من الأمانات، وستنحدر الأمة ويتسارع هبوطها في غياهب حفرة ليس لها قاع ولا قرار..... كنت أدهش من

حديثها عن المستقبل وكأنها تقرأ في كتاب مفتوح. . . . كنت أسألها عن طريق الخلاص وسبيل النجاة، فكانت تبتسم في وجهي وتشير بيدها إلى بعيد وتقول: الخلاص من هناك يا ولدي، وما عليك إلا أن تبقى صلباً بمبادئك محافظاً على عنفوانك وشموخك حتى يأتي الفرج. . . . وقد يأتيك الفرج وقد لا يأتيك، ولكنه سيأتي بالتأكيد، فأعدَّ له ما استطعت، وأعدَّ أولادك ومُرْهم فليُعدّوا أبناءهم أيضاً. . . . فطريق الحق طويل وشائك، ولكن نهايته حتمية وأكيدة. . . . كنت ألثم يدها البيضاء الناصعة المتشحة بنمشات بنية اللون، وأدعو الله أن يطيل بعمرها لكي أستقي من حكمتها المزيد والمزيد. . . .

على وقع مثل هذه الكلمات نشأت يا ولدي، هكذا كبرت في قلبي قضيتنا، وهكذا مضت سنوات حياتي أنتظر الفرج الذي وعدتني به جدتي من دون أن ألقاه، وأيقنت بعد فترة أنني لن أشاهد سوى مراحل الانهيار والانحطاط وأنني لن أستطيع أن أعدك بالنهاية السعيدة التي قد لا تراها أنت ولا أبناؤك ولا أحفادك. . . . . ولكن النهايات في هذه الدنيا تحتاج إلى تراكمات وتطورات، ولها مراحل وحقبات، والتحضير لها هو من أبسط واجباتك، لأنك بكل بساطة لا تستطيع أن تتبرأ من العمل بحجة أنك قد لا ترى له نتيجة. . . .

قرَّرت يومها أن أعمل، وعاهدت نفسي ببذل قصارى جهدي لتحقيق ما يمكن فعله، قليلاً كان أو كثيراً، فإنما

الأعمال بالنّيات، وإنما لكل امرئ ما نوى... ولن يهمني ما استطعت إنجازه، لأنني سأُسلِّم الراية عندما يحين الأجل إلى من سيتابع المسير ويكمل الطريق، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً... هذا ما فهمته من جدتي، وهذا ما أريدك أن تعقله بقلبك ووجدانك وضميرك وكل عقلك...

تعال أيها الفتى لأكمل لك الحكاية، فهذا ميراثك وتراثك، وأنا أنتظر منك الكثير وأعقد عليك الآمال، فهذا طموح كل والد بولده، كما أنه ليس لدي وقت مديد لأُضيعه، فالعمر يمضي كالومضات، والسنين تتهافت كاللحظات، وها أنت تكبر أمام ناظري بسرعة لم أكن لأعهدها أو أفهمها.... ولكن هذه هي الحياة، بحلوها ومُرِّها، والولد هو أحلى ما فيها وأثمن ما يمكن الحصول عليه منها، وما دون ذلك كله وهم وسراب.... وإن كنت لا تستطيع أن تعقل ما أقوله لك الآن، فأنا متيقن أنك ستتذكر كلماتي هذه في يوم من الأيام..... يومها لن أكون معك أو إلى جانبك، فلا تحزن ولا تجزع، واطلب لي الرحمة والغفران، فهذا أكثر ما يمكن أن يقدِّمه ابن لأبيه، وابقَ على العهد الذي قطعناه بيننا، ولا تحد عن المبادئ التي غرستها فيك... هكذا تكون ولداً بارّاً، وتؤدي عملاً صالحاً... هذا رجائي وأمنيتي، فلا تضيع أملي فيك، ولا تخذل أحلامي ومقاصدي، وتذكَّر أن الله لا يُضيع أجر من أحسن العمل، وأخلص النوايا.....

غداً أصطحبك إلى قرية المهاجرين، لترى جيراننا

وأقرباءنا، فتسمع وترى بعضاً مما رويته لك.... كم كنت أتمنى لو استطيع مرافقتك في رحلة إلى كريت، وطن أبي وجدي، ولكن الحقيقة أنني لا زلت أخشى من الذهاب إلى هناك.... فبالرغم من أن سنيناً قد مضت، وأن قصتنا صارت من التاريخ، إلا أن مشاهد النساء الثكالى لا تزال حيَّة في مخيلتي، كما أن دموع العجائز وآهاتهم لا تزال تصدح في صدري.... هذه ذكريات طفولتي ولن أستطيع التخلص منها أو التفلُّت من عقالها.... لذلك فأنا لن أذهب إلى كريت، وسأكتفي بزيارة الحميدية التي أعتبرها قطعة من أرض الجزيرة، فيها أهلي وأصحابي، وفيها عبق أبي وأمي وجدي وذكريات حلوة من طفولتي.... اذهب الآن يا بني وتهيّأ لهذه الرحلة، فأنا متأكد من أنك ستحب قريتنا وتألف أهلها وتعشق أرضها، فهذا جزء من حبك لي ولجدك.... وستجد ذلك بنفسك....!!!

الحميدية

انطلقت بنا السيارة من مدينة طرابلس باتجاه الحدود السورية.... كانت السيارة تنوء بحمولتها... فبالإضافة إلى أبي وأمي وأختي، كانت جدتي وعمتي ترافقاننا أيضاً إلى القرية الصغيرة... كان الطريق إلى الحميدية جميلاً جدّاً.... فالمشوار يكاد يكون كله بمحاذاة الشاطئ البحري للساحل اللبناني، وزُرقة السماء تمتزج في الأفق البعيد مع زُرقة مياه البحر لتعطي النفس شعوراً بالهدوء والبهجة.... أما أمواج البحر فكانت تلثم صخور الشاطئ المبعثرة هنا وهناك برفق ومودَّة، وكان النسيم يطلُّ بوجهه البسّام على سطح البحر فيتراءى موجات متراقصة بين زوارق الصيادين.... كنت أخرج رأسي من نافذة السيارة مستمتعاً بالرياح تصفع وجهي وتدغدغ رموشي... وكان والدي ينهرني ويزجرني من دون فائدة... أما جدتي فكانت لا تأبه لأي شيء يدور حولها، ولا تتوقف عن محادثة والدي باليونانية طوال الطريق، وكانت عمتي تجيد أن تشاركهما أطراف الحديث بلا أن تدع شيئاً من تفاصيل الرحلة يفوتها... كانت ضحكاتهم تصدر من أعماق صدورهم بعفوية صادقة، وكانت تجاعيد جباههم تختفي بشكل

يوحي أن الزمان قد عاد بهم إلى الوراء سنوات وسنوات!!!. . . . كانت جدتي سعيدة لأنها سترجع إلى منزلها وإلى المكان الذي أمضت فيه سنوات شبابها مع أختها الوحيدة فاطمة ووالدها مصطفى آغا رالاكي، كما كانت تتلهف لملاقاة صديقاتها اللواتي ينتظرن قدومها في هذا الوقت من كل عام. . .

كانت الحميدية هي المكان الوحيد الذي يعطي جدتي شعور العودة إلى الوطن. . . وربما كان والدي وأعمامي يشعرون بالشعور نفسه. . . فهي البقية المتبقية من كريت. . . الجزيرة الضائعة من أيديهم، الباقية في وجدانهم وأحلامهم عروساً تتألق بفستانها وتتبختر بجمالها وسحرها غير آبهة بحرقتهم إليها أو شوقهم لوصالها والتقرب منها. . . نعم. . . هي كذلك. . . هي عبق عطر قديم يشمّونه دون غيرهم من الناس، ورائحة تاريخ يفوح من ترابها وجدران بيوتها القديمة، يتلقفونه بأبصار مخيلاتهم دون أن يتمكن من رؤيته أحد غيرهم. . .

وصلنا إلى القرية الصغيرة التي ما فتئ والدي يحدثني عنها وعن بيوتها وسهولها وبيادرها وحدائقها وبحرها وشاطئها. . . . كان واضحاً أنه يحاول أن يجعلني أرى ما كان يراه. . . . فقد ملأت قصصه وحكاياته عقلي وذهني وخيالي إلى درجة جعلتني أرى بساتينها وبيوتها بمنامي قبل أن أراها بعيني!!! ما هذه القدرة العجيبة التي تملكها يا أبي؟ ما هذه القوة التي تجعلك مسيطراً على عقول الناس حتى لا تدع لهم مجالاً ليفكروا بغير

ما تفكر أنت فيه؟؟؟ كان أبي يضحك من كلماتي ويقول: هكذا هم الصغار دائماً.... يبالغون في قدرات آبائهم ويلقون على كواهلهم ببطولات لا علاقة لهم بها.... انتظر يا بني حتى تكبر قليلاً وسترى كيف ستبدأ بالتململ من سلطتي وتتثاقل من سماع كلماتي وتوجيهاتي ونصائحي.... ولكن صدقني فإنني ما تفوهت بكلمة واحدة ليس فيها صدق أو حقيقة أو جزء من حقيقة!! وسترى اليوم بأم عينيك ما أخبرتك به، وكن على يقين أنك سترى بقية المشهد عندما تكبر، فالصورة تحتاج إلى حكمة الكبير وخبرة السنين حتى تكتمل.... فاحرص يا بني على أن تكون لك عينان ترى وتبصر، وأن تكون لديك القدرة على تفسير ما تراه... واجتهد على أن تميز بين الحق والباطل في كل ما تشاهده، لأن الأمور ليست دائماً بظاهرها، وقد يكون ما خفي عن ما أبصرته عيناك أدهى وأعظم....

أما الآن، فتعال معي نمشي في أزقَّة قريتنا الصغيرة، وسأدعك تتعرف على كل شيء فيها.... سأصطحبك إلى البيادر والسهول، فتصافح بيديك تراب أرض جدك وجدتك، وسترى أن لنا في كل زاوية من زواياها حكاية ورواية، وأن لنا في كل بقعة فيها أثراً وذكرى... هكذا يتعلق المرء بأرض أبيه وجده، وهكذا يتعذر عليه التفريط بذرَّة واحدة من ترابها... إن جيل اليوم لا يعرف الأرض ولا يدرك قيمتها، وهذا بلاء ليس بعده بلاء، فمن فرَّط في أرضه فرَّط في كل شيء

بعدها. . . . إلا أنني لا ألوم أبناء هذا الجيل ولا أتهمهم بالخيانة أوالتفريط، ولكنني ألوم الآباء الذين لم يصرفوا من أوقاتهم لحيظات قليلة لغرس حب الأرض في قلوب صغارهم. . . .

انظر أمامك يا ولدي، وسترى أثر أقدام الأولين في كل شبر من هذه القرية الصغيرة. . . . هنا مشى جدك مع أخيه، وهنا مشيت مع أعمامك، وهنا تمشي أنت الآن. . . . فاحرص على أن يمشي أولادك ذات مشيتك، فلعلها تكون الطريقة الوحيدة للتواصل فيما بيننا. . . إذ لست أدري إن كنت سأدركهم بعينيَّ هاتين، ولكنني سأترك الدنيا قرير العين عندما أموت وأنا متأكد من أن أحفادي سيسيرون على هذه الطريق نفسها يتحادثون ويتسامرون. . . . تأكد أنني سأكون إلى جانبهم أسمع خطواتهم وأطرب لضحكاتهم. . . فالموت ليس إلا حاجزاً ظاهرياً بين حياتين. . . . فلا تجعله محطة تتوقف عندها آمالك بالمستقبل أو تتعطل أمامها مخططاتك لما هو قادم وآتٍ. . .

كانت هذه الكلمات الهادرة كافية لتوقظ في هذا الطفل كل الأحاسيس النائمة. . . . ما هذه المصطلحات الكبرى؟ أحلام؟؟. . . . مستقبل؟؟. . . . موت؟؟. . . . حياة تتبعها حياة؟؟!!! وتابع الأب كلماته فقال: قد تكون الحقيقة سهلة وواضحة في عين العارف بها، ولكنها صعبة ومبهمة كاللغز في عين الجاهل بتفاصيلها. . . .

لم يتوقف الطفل الصغير عند هذه الكلمات الثقيلة، إذ إن المكان الجديد كان فيه الكثير من الأشياء التي تسترعي انتباهه... فالدجاجات تسرح وتمرح في حديقة البيت، والديك يمشي متبختراً ويملأ الدنيا صياحاً، أما شجرة الرمان فقد كانت تزيِّن باحة الدار بطلعتها البهية وظلها الوارف وثمارها المتلألئة.... ولاحظ الوالد أن صغيره يتوق إلى استكشاف لغز القرية وأن طفولته لا تحتمل المزيد من جمل فلسفية يتقاتل على مضمونها الكبار، فتركه حرّاً طليقاً كما يريد وتوجه إلى ترتيب أغراضه وأمتعته والتحضير لمبيت الليلة الأولى في الحميدية...

وبينما كانت السيدات تضع اللمسات الأخيرة على ترتيب البيت المهجور، كان الوالد يتفقد آلاته وأدواته الزراعية ويتفحص قبعته الدائرية المصنوعة من القش.... أما الطفل الصغير فقد كان يبحث في زوايا البيت القديم عن شيء يربط أفكاره بحكايات الماضي التي سمعها مراراً وتكراراً من أبيه وأعمامه... وها هو يجد عصا مستقيمة ذات رأس دائري أملس تقبع خلف باب غرفة الجدة.... فلم يفكر كثيراً قبل أن يقبض عليها ويبدأ بالعبث بها يمنة ويسرة ويلهو بها بطريقة غريبة.... لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى انهالت على رأسه ضربة موجعة جعلت الدمع ينفر من عينيه.... إلا أنه لم يبكِ، ولم يتأوه... فضميره كان يؤنبه ويخبره بأنه قد نال جزاء العبث بعصا جده الذي تركها خلف الباب منذ عقدين من

الزمن أو أكثر!!!. . . . أحسَّ أنه قد أزعج روح جده وأيقظها من سبات كانت تغط فيه!! وتلفَّت حوله فلم يجد أن أحداً قد اهتم بما جرى، فأعاد العصا إلى مكانها وخرج إلى فناء الدار يتبع أباه ويراقب أفعاله وأعماله، وقد عاهد نفسه أن لا يلمس هذه العصا بعد يومه هذا أبداً. . .

ومضت بضع ساعات أعادت الحياة إلى البيت ونفضت عن جدرانه ونوافذه غبرة الأيام. . . فخرجنا جميعنا نمشي الهوينا في أزقة القرية. . . كان والدي يلقي السلام على كل من اعترض طريقه، وكان كلهم يبادره بالتحية والبسمة والترحيب. . . أما جدتي فكانت بطلة المشهد، فجميع السيدات يهرولن نحوها ويقبِّلنها. . . وكلهم في حوار لم أستطع يوماً أن أدرك متى تبدأ الجمل فيه ومتى تنتهي. . . . كان هؤلاء الناس مشتاقين بعضهم إلى بعض بشكل عجيب. . . كلهم يتكلم اليونانية ويغني الأشعار الكريتية مظهراً غبطته وحبوره بعودة الغائبين. . . كان جليّاً جدّاً أننا انتقلنا إلى أرض لا تشبه مدينتنا بأي شكل. . . نعم. . . لقد عدنا حقاً إلى كريت، ببيوتها وشاطئها وسهولها وكل ما فيها. . . . لقد أدركت إحساس أبي للمرة الأولى في حياتي. . . لقد كان بزيارته للحميدية يعيش فرح العودة إلى الجزيرة الضائعة، إلى الوطن الراسخ في كل جزء من عقله ووجدانه وروحه وجسده. . . إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بانتماء مختلف، وأدرك أني لا أشبه الأكثرية الساحقة التي كانت تحيط بي في

مسقط رأسي.... أدركت الآن باليقين ما معنى أننا أبناء كريت المهاجرون.... نحن أصحاب قضية إنسانية كبرى، اتفق العالم على تغييبها مثل ما اتفقوا على تقسيم تركة الرجل المريض.... هكذا خاطبني والدي مرات ومرات... وترددت تساؤلاته في ذهني من جديد وكأنني أسمعها منه للمرة الأولى: أوَتدري لماذا وُضعت الحجب والستائر أمام قصتنا يا بني؟ أوَتعلم لماذا مُنعنا من إيصال صوتنا أو الإعلان عن جراحنا؟؟ أوَتتخيل لماذا حُرمنا من المطالبة بما خلّفناه وراءنا من أرض وزرع وبيت ومال؟؟؟ كل ذلك لأن القرار العالمي كان قد اتُّخذ بإنهاء الوجود الإسلامي في القارة الأوروبية.... هذا هو الثمن الذي كان علينا أن ندفعه بعد انهزام العثمانيين وتقهقر جيوشهم التي فتحت أوروبا وأدخلت إليها الإسلام في يوم من الأيام.... لقد ذهب العثمانيون وذهبت معهم كريت، ولكن قصتنا لن تموت، ولن تضيع آه واحدة صدحت من حنجرة امرأة أو طفل... هذه هي قضيتنا يا ولدي، أمانة يجب أن لا تضيع، وقصة يجب أن لا تندثر مهما طال بها الزمن... إن الوقت يمضي ويمرُّ، وعجلة الحياة تسير، والإنسان ينسى....!!! ولكن قصتنا يجب أن لا تُنسى!!! أتفهم ذلك يا بني؟؟؟

أطرق الولد رأسه وهو يفكر مليّاً في ما قاله أبوه... ولكن والده قطع حبل أفكاره وهو يمسكه بيده ويقول: تعال أُعرّفك على أصدقاء طفولتي وجيراني وأهلي... كلنا في هذه القرية

أقرباء حتى ولو لم يجمع بيننا دم أو مصاهرة أو نسب.... القربى يا ولدي هي الألفة والمحبة والاجتماع على الخير... فكم من أخ لك لم تلده أمك!... وكم من عدوٍّ لك هو من أقرب الناس إليك نسباً وولداً!... هذه حكمة الأولين وتجربتهم، وهذه قناعتي أيضاً، قد ترسخت في أعماقي وازددت بها تيقناً كلما مرَّت بي السنين وطال بي العمر.

سوف ندخل الآن بيت الحاج مصطفى، صديق طفولتي، الذي آثر عدم الزواج للتفرغ لخدمة أمه الوحيدة!... أوَتعجب من قولي بأن أمه وحيدة؟ نعم هي كذلك! لأن ليس لها نسيب ولا قريب، شأنها شأن الكثيرين من المهاجرين من جزيرة كريت، الذين فقدوا ذويهم على متن السفن ودروب الشتات. سندخل بيوتاً كثيرة يا ولدي، ولكن حذار من أن يصدر منك قول أو عمل يخدش مشاعر الناس أو يؤذيهم، وإن أردت أن تسأل عن شيء ما فلا تفعل، وانتظر حتى نقضي زيارتنا فأجاوبك على ما تريد...

دخلنا إلى بيت متواضع بُني من الحجر الرملي وطُليت جدرانه بالكلس الأبيض، بينما فُرشت أرضه بغطاء إسمنتي أسود اللون يكاد يبرق من شدة نعومته. توجه بنا صاحب الدار إلى غرفة داخلية فوجدت امرأة تفترش سريراً مركوناً في الزاوية اليمنى من الغرفة، وعلى يمينها آلة خشبية فيها خيطان كثيرة عرفت لاحقاً أنها تدعى النَّول... كانت المرأة مبتسمة وسعيدة برؤية والدي... أما أنا فقد ربضت خلف أبي لا أنبس ببنت

شفة... كان منظر السيدة مخيفاً لطفل مثلي، فقد كان نصف وجهها متورماً ومنتفخاً، تعلوه حمرة شديدة وتضاريس غريبة، أما عينها اليمنى فكانت مشدودة الجفنين إلى أعلى وأسفل... وكأن العين ستخرج من جحرها وتقع على الأرض!!!

كان الجو في البيت بارداً ومرعباً، أو ربما كان كذلك بالنسبة لي... وما زاد في عزلتي أن كلهم كان يتحدث باليونانية... كنت لأحسَّ أني ضيف لا وجود له بين هؤلاء الناس لولا أن الحاج مصطفى توجه إلي سائلاً: ألا تفهم لغتنا أيها الصغير؟ أحسست بحرج وخجل من نفسي... فأنا لا أفهم من هذه اللغة إلا النذر اليسير... ولكن الحاج مصطفى تابع قائلاً: عليك أن تجبر والدك على اصطحابك إلى هنا مراراً وتكراراً وسترى أنك ستتعلم لغتنا بكل يُسر وسهولة... كلنا هنا يتكلم كريتيشا، ولا نتكلم العربية إلا مع الضيوف...

ارتحت إلى لطف الرجل الذي لم أكن أتخيل أن يصبح صديقي بعد أن كان صديقاً لوالدي... كثيراً ما اصطحبني معه في نزهات قصيرة، وكثيراً ما كان يمازحني ويضحكني... كان يعدو خلفي محرِّضاً لي على الركض في سهول الحميدية بين عرانيس الذرة ونباتات الباذنجان والبطيخ... أحببت التربة السوداء في هذه القرية، وأحببت كرم أرضها بكل ما تشتهيه النفس وتلذُّ به العين... أحببت بساطة أهلها القنوعين الراضين بعيشة لا ماء فيها ولا كهرباء... كان كل شيء في هذه القرية يحكي قصص الماضي، وكانت المدنية والرفاهية لا

تزال بعيدة عنها بُعد المشرق عن المغرب... كان كلهم يعيش نفس عيشته في كريت التي مضى أكثر من ثلاثة أرباع قرن على مغادرتها...

انقضى الوقت وانتهت الزيارة، فخرجنا من البيت ننظر إلى مشهد الغروب بحُمرته المتموجة على سطح البحر..... كان البحر ينادي أن أقبلوا إليَّ ولا تدعوني وحيداً، فأنا أعرف أجدادكم وآباء أجدادكم.... أنا الذي حملتهم يوم لفظتهم الأرض، وأنا الذي آويت السفن التي أوصلتهم إلى برِّ الأمان..... وأنا وأنا..... وساد الصمت الذي خلا حتى من صوت النسيم.... وشرع أبي يقول: هذا هو عدوي يا ولدي.... البحر عدوي والموج خصمي، ولو استطعت أن أقاتله لفعلت!!! إنها المأساة التي أذكرها كلما نظرت إليه... فأنا لا أرى فيه إلا وجه أبي الباكي، ولا أسمع منه إلا عويل جدتي وآهات جدي.... قلت له: وما ذنب البحر يا أبتِ؟؟ قال: وما ذنب شعب شُرِّد عن بكرة أبيه؟؟؟ قلت له: هذا ليس عدلاً لذاك!!! دع لنا شيئاً واحداً ننظر إليه من دون أن نبكي!!! نظر أبي في عينيَّ فوجدهما مغرورقتين والدمع يترقرق منهما.... قال: سامحني يا ولدي، ما كان قصدي أن أُبكيك... تعال نمشِ على هذا الشاطئ فنتعقب آثار أقدام السابقين!!! قلت له خذني إلى الدار يا أبي.... فقد اشتقت إلى حضن أمي واشتقت إلى صوتها وهي ترنم أغنيات أم كلثوم.... اشتقت إلى لمساتها وكلماتها عن المستقبل

الواعد والأيام الجميلة... أريد أن أصل إلى صدر أمي لترجع لي الحياة.... أطرق أبي رأسه قبل أن يمسك بيدي، فقد أدرك أن الحمل الذي ألقاه على كتفي كان أثقل من قدرتي على تحمُّله... فأنا لا أزال صبياً يريد أن يلهو بما يلعب به الصغار.... ولكنه كان مستعجلاً في إيصال رسالته، ولم أكن قادراً على إدراك ذلك آنذاك!!!

ومرَّت الأيام في الحميدية بين البيادر والسهول وبين مسجد القرية والمقهى المحاذي له. تعرفت على معظم جيراننا الذين كنا نتبادل معهم الزيارات الليلية.... كنت أستمتع بمشهد النساء وهنَّ يغزلن الصوف، وكنت أطرب بأصواتهن المتداخلة بعضها مع بعض، وباللغة الكريتية التي تخرج من أفواههن ملحَّنة ومرتَّبة.... كثيراً ما مشيت مع أقراني الجدد في أزقة القرية تحت ضوء القمر، وكثيراً ما تسامرنا ليلاً حتى مَلَّ السهاد منا... كان كل شيء جميلاً وبسيطاً... وكنت أتمنى أن لا أترك القرية قبل أن أتعلم لغة أبي وجدي... ولكن لكل شيء أجلاً، والخريف على الأبواب، والمدرسة تنتظر روادها... وما هي إلا أيام وتنتهي رحلتنا لنعود إلى الجِدِّ من جديد... قلت لأبي: متى سنعود؟ ربَّت على كتفي مطمئناً وقال: هذا بيتنا يا ولدي، وسنعود إلى هنا كلما سنحت لنا الظروف، فلا تبتئس ولا تجزع، وستمر الأيام بسرعة لتجد نفسك بين رفاقك الكريتيكوس من جديد...

ومرّت الأيام...

الأيام تجري والعمر غفلة.... كلمات ترددت على مسامعي منذ نعومة أظفاري ولم أدرك لها معنى إلا عندما وجدت نفسي أتهيأ للسفر إلى اسطنبول....

وبالفعل، فقد مضت السنين كأنها ومضات، ووجدت أن طفولتي قد انتهت بسرعة غير مسبوقة، وأن المسؤولية قد أضحت على كتفي وأنا لا أزال أشعر في داخلي بذاك الولد المتمسك ببنطال أبيه بقلق وخوف خشية أن يتفلّت منه أو أن يتوه!!!

اذهب إلى بلاد أجدادك أيها الشاب، اذهب لتتعلم البطولة والشهامة والكرامة من منابعها الأصلية... اذهب إلى أرض عبد العزيز وعبد الحميد...!!! هكذا بدأ أبي حديثه معي في ذلك اليوم، ثم تابع فقال:

اعلم أنك ذاهب إلى أرض عزة وإباء، وأرض كرامة ورباط... أرض فتحها سلطان الأولياء وصاحب الفخر والعلياء، محمد الثاني بن مراد، فكانت مدينة السلم والسلام والإسلام.... إنها إسلامبول، وما أدراك ما اسطنبول؟؟؟

هي بشارة الرسول التي تزاحم على تحقيقها الصحابة

الكرام، وتحقق الوعد على أيدي أحفاد بني عثمان. . . . فنُكِّست الأعلام في بلاد الأروام، على فقدان جوهرة القارات ودرَّة الزمان. . .

لقد كان جدك يروي لي قصص الأشعار التي كان اليونانيون يتناقلونها جيلاً بعد جيل، تقول إننا سنسترجعك أيتها القسطنطينية من أيدي الأتراك الظالمين. . . نعم، فلقد كان فتح القسطنطينية حدثاً جللاً بدَّل مجرى التاريخ، وأطلق العنان للانتصارات المتعاقبة للجيوش العثمانية حتى وصلت إلى أسوار فيينا. . .

كان أبي يسرد على مسامعي قصة الفتوحات بكل فخر واعتزاز. . . كان يقول إننا ننتمي إلى هذه الأمة بتاريخها وأمجادها. . . كان يردد دائماً أن ليس منا نحن أبناء المهاجرين المسلمين من جزيرة كريت من يتنكر لفضل العثمانيين. . . لأن تاريخنا قد بدأ معهم، ومعهم حُفظت دماؤنا وضُمِّدت جراحنا!!!

كان والدي شديد الشغف بالعثمانيين، لا يفتؤ يذكر أفضالهم على الأمة عامة، وعلى المهاجرين خاصة. . . . كيف لا ، وقد خرج جدي مع أبويه من جزيرة كريت مخلِّفين وراءهم مالاً ومُلكاً، فأبدلهم السلطان مُلكاً غيره، ولم يبخل عليهم بغالٍ ولا رخيص. . . لقد حفظ كرامة الناس وذاد عن أعراضهم بعد أن استعصى عليه الذود عن أرضهم. . .

اذهب يا ولدي إلى اسطنبول حتى يكتمل المشهد أمام

عينيك، لتعلم ما هو الرابط بيننا وبينهم. . . وستبدي لك الأيام ما خفي عنك الآن، ولن أقول لك ما أنا أراه، لأن عليك أن ترى الحقيقة بعينيك لا بعينيَّ. . . وقد تصل إلى مكان لم أصل إليه، وإلى وجهة مختلفة عن وجهتي. . . صدِّق أنني لن أجزع ولن أحزن، لأنني ربيتك على استقلالية الرأي والرؤيا، وأوصيتك أن لا تدع أمراً يمر من أمامك من دون أن يوافقه عقلك وقلبك. . . وعلَّمتك أن الصبر مفتاح الفرج، وأن طريق المجد محفوف بالمكاره والمخاطر. . .

انطلق بهذه المعاني والمعنويات، وسترى أن الأيام ستجمعنا بعد تفارقنا اليوم. . . ثم سنفترق مجدداً لنجتمع من جديد. . . ربما في مكان جديد. . . وقد ترجع في يوم من الأيام فلا تجدني. . . هذه حال الدنيا يا ولدي. . . إذ لو دامت لغيرك لما وصلت إليك. . . والأيام تداول بين الناس. . . أظنك تدرك الآن ما أقوله، أليس كذلك؟؟؟

أذكر تلك الليلة التي سبقت خروجي من منزلي ومن بين أمي وإخوتي لحظة لحظة. . . كان البكاء لا ينقطع عني، ولم أذق طعم النوم دقيقة واحدة. . . لقد استرجعت الألم الأول نفسه الذي ذقته في حياتي، في ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى المدرسة. . . إلا أن وجع اليوم كان أشد وأعظم. . . لقد أدركت أنني بدأت مشواري الطويل، في رحلة إلى المجهول. . . لا أملك إلا عقلي وقلبي. . . وإيماني بأن الله لن يتركني فريسة سهلة في أنياب وحوش ضارية كان طيفها قد بدأ يلوح لي من البعيد. . .

وحان وقت الفراق... وتوجهنا إلى المحطة لنستقل سيارة أجرة، هي الوسيلة الأولى في مشوار الهجرة الاختيارية التي بدأتها بمباركة أهلي وعائلتي... ضممت أبي إلى صدري ضمة قوية فبادلني بمثلها، حتى إن أضلاعنا اختلفت وتشابكت... كنت يومها أبكي بمرارة وكان صوتي قد اختفى وراء حرقة صدري وهلعي... نظر إليَّ أبي نظرة الواثق من النجاح وقال: اطمئن يا بني... أنت لن ترسب في أي امتحان طالما أنك لا تغيِّر مبادئك ومُثُلك التي ترعرعت عليها... وسترى أن أفئدة كثيرة من الناس ستهوي إليك ومن حيث لا تحتسب... وسوف تراني في كل يد عطوف تمتد إليك وفي كل نظرة حنون تخفف عنك بلواء الغربة وكربتها... هيا انطلق على بركة الله... والله معك ولن يخذلك!!!

كان التحدي كبيراً... فقد كنت أمام الامتحان الأقسى من نوعه في حياتي... فإما أن أفشل وأعود إلى وطني بخفَّي حنين لأكون عاراً على نفسي وعائلتي، وإما أن أنجح في تحقيق الحلم الكبير الذي كان والدي يخفيه عنا جميعاً لحاجة في نفسه لم أدركها في يوم من الأيام!!!

كنت مصمماً على النجاح بأي ثمن من الأثمان... لأن القارب الوحيد ورائي كان قد تحوَّل إلى رماد منذ وقت بعيد... شعرت للحظة بأني قد فقدت كل شيء، ولم يعد أمامي إلا معركة واحدة أموت فيها أو أنتصر... كنت مصمماً على الانتصار بقدر ما كنت خائفاً، وكان في داخلي صوت

قوي يقول إنني لن أُهزم، ولكنه كان ممزوجاً بأصوات البكاء والنحيب وشعور القلق والفزع... لم أكن أنظر إلى الوراء، لأنني كنت أترقب السوء في أي مشهد أراه أمامي!!! كنت لا أرى إلا الظلام، وكأن نور الشمس قد حجبته أفكاري السوداء، ومنعته تخيلاتي الرمادية المتشحة بخيوط الرهبة والرعب...

بدأت طريقي بالكثير من الهواجس، وكانت الأيام تسير في اتجاه مغاير لما أُحب وأرضى... لقد كانت البداية متعثرة في بلد لا أفهم لغة أهله ولا أعرف جغرافيته ولا خصوصيته... تذكرت قصة الفاتح التي رواها لي أبي مرات ومرات... فبحثت عن قبره ووجدته قرب مسجد ضخم يحمل اسمه نفسه... دخلت إلى الحجرة التي يتوسطها الضريح فوقع بصري على عمامة السلطان... أحسست أن الدنيا قد هانت عليَّ... فهأنذا أمام قبر السلطان ابن السلطان، ولكنه اليوم تراب من فوقه تراب ومن تحته تراب!!! استصغرت نفسي وقلة شكيمتي.... وخاطبت صاحب القبر معاهداً على أن لا أترك الخوف يتسلل إلى نفسي أو أدعه يرهق عزيمتي، لأن كل الذي فوق التراب هو تراب أيضاً... أحسست أننا قد أصبحنا صديقين... وأحسست فعلاً أن بيني وبينه مودة ومحبة... استأذنته بالخروج وتوجهت إلى المسجد الكبير، فوجدت السكينة تملأ أرجاءه... كان فيه سحر لا يمكن وصفه بكلمات... أدركت أني قد وصلت إلى المكان المنشود،

وسمعت صوت أبي يكلمني ويقول لي هنيئاً لك ما وجدت... تكلمت مع أبي لساعة كاملة، وكان يجيبني ويحاورني بلطفه المعهود... شعرت أن الفرحة قد ملأت صدري وقلبي، وكنت أبتسم ووجهي يتلألأ سعادة وحبوراً... لم يقطع تواصلي هذا إلا وكزة خفيفة من رجل بهيُّ الطلعة جميل المحيّا... خاطبني بالتركية فلم أستطع أن أفهم ما يريد... ثم تكلَّم بالعربية الفصحى... قال: ما خطبك يا أخي؟ أأنت تكلِّم نفسك؟؟؟ أدركت أني كنت في غيبوبة وجدانية لجسد يهيم على وجهه في المسجد الكبير... ضحكت وقلت: نعم... ربما أكلِّم نفسي وربما أخاطب أحداً من بعيد.... سألني إن كنت أريد أن أصعد معه إلى شرفة المؤذنين التي كانت في وسط المسجد... سررت جدّاً من هذا العرض السخي، وأحسست أن السلطان قد أصدر أوامره لحفظة المسجد باستقبال الزائر الجديد... شكرت الفاتح على الكرم وحسن الضيافة... نظر إليَّ الشاب وقال: ها أنت تكلِّم نفسك من جديد... قلت له: بل أكلم السلطان محمد الفاتح!!! ضحك ضحكة كبيرة وأمسكني من يدي وصعد بي إلى الشرفة... أخبرني بأن اسمه (يوكسل)... وأنه مؤذن هذا المسجد... وأن معه اثنين آخرين من المؤذنين المحترفين سيوافيانه خلال دقائق لأن وقت المغرب قد اقترب... وسيؤذنون للصلاة ويتعاقبون في تأدية واجب الدعاء للسلطان وقراءة أوراد المغرب لهذا المكان... علمت أن هذه تقاليد

دائمة منذ بناء المسجد وحتى أيامنا هذه، وأن كل مسجد سلطاني له أدعيته وأوراده التي يواظب عليها المؤذنون إلى يومنا هذا...

يومها شعرت بالطمأنينة للمرة الأولى في هذا البلد الجديد... لقد صدح المؤذنون بأصوات رنانة ترجع على الأذنين بصدى رائع... كانت الأدعية خليطاً بين التركية والعربية، وكانت التسابيح تهدر هدراً بأصوات خافتة تصدر من حناجر المصلين...

انتهت الصلاة ونزلنا من الشرفة، فعرض علي (يوكسل) أن يصطحبني إلى منزله القريب لتناول العشاء مع بقية المؤذنين... قبلت العرض فوراً من دون أي تفكير... فأنا في ضيافة حضرة السلطان وتحت حمايته. تناسيت كل تحذيرات والدي من التسرع في الوثوق بالناس... فهؤلاء هم خدم مسجد السلطان... هم قالوا إنهم كذلك... وأنا لم أجد ضيراً في تصديقهم لأن وجوههم كانت تنضح بالوقار والجلال وكانوا جديرين بأن أحبهم وآنس لهم...

وبينا نحن نتناول الطعام، تكلم اثنان منهم بلغة شعرت أني أعرفها... إنها اليونانية بالتأكيد!!! قلت له: كيف تعرف هذه اللغة؟؟؟ قال: أنا تركي يوناني!!! ونحن نعيش في منطقة يونانية حدودية قريبة من تركيا... كلنا في مدينتنا يتكلم التركية واليونانية على حدٍّ سواء... لنا مساجدنا ومدارسنا الخاصة، ولكننا نخضع للقوانين اليونانية، ونعاني ما نعانيه من عدم

السماح لنا ببناء مساجد جديدة أو ترميم المساجد الأثرية القديمة... هم يحاولون طمس هويتنا، ولكننا لا يمكن أن نقبل إلا أن نكون أتراكاً يونانيين... تبسمت من سخرية الموقف وتقديرات الأمور... قلت له باليونانية: إيدا كانيس؟ كالا سي؟؟ ضحك صديقي وقال لي: أأنت من جزيرة كريت؟؟؟ هم يقولون كيف حالك بهذه الطريقة!!! قلت له: أنا كريتي لبناني!!! قال: بل أنت كريتي تركي لبناني!!! استغربت هذه الصفة، فنحن نعرِّف عن أنفسنا بالمهاجرين، ولم أسمع أحداً من المهاجرين يقول إننا أتراك... وبعد أن رويت له حكايتي قال: نحن نعرف قصتكم أيها الكريتيون الأتراك... وكلنا يعلم كيف أُخرجتم من جزيرتكم... على كل حال، هذا تاريخ أصبح من الماضي، وأنتم الآن في وطن جديد، تعيشون فيه بحرِّيَّة وسلام، وتنعمون فيه بكل شيء... المشكلة الحقيقية هي عندما لا يكون وطنك وطناً حقيقياً لك ولعائلتك وأبنائك من بعدك... عندما تكون مضطهداً أو محتقَراً لدين تعتنقه أو عرق تنتمي إليه... إنه المكان الذي تشعر فيه بالغربة والكآبة وعدم الانتماء، لأنك لا تستطيع أن تتكلم لغة أمك أو تورث ثقافتك وحكايات جدك وتقاليده لأبنائك وأحفادك... ثم تابع قائلاً: أترى يا صديقي هذه الألوف والملايين من البشر في هذه المدينة الضخمة؟؟؟ إنك إن محَّصت في تاريخها لعرفت أنها من جذور بلغارية أو رومانية أو يونانية أو بوسنية أو مقدونية أو غير ذلك من الأمم

والأقوام التي سمعت عنها أو لم تسمع!!! هذه حصيلة الانهيار الكبير الذي دهس الدولة العثمانية وسحل أتباعها ومواطنيها المسلمين في كل مكان... لقد كان القتل والطرد أو النفي والتهجير مصير كل مسلم في أي بلد كان تحت سيطرة العثمانيين في يوم من الأيام... أما التهمة الحاضرة فكانت أنه تركي!!! وكل تركي هو خائن جشع أو بربري بشع في نظر جيرانه ومحيطه الذي عاش بين أكنافه العشرات بل المئات من السنين... القضية إذاً لم تكن يوماً انتماء عرقيّاً أو قوميّاً أيها الكريتي الشاب، بل انتماء ديني وربما سياسي!!! فكلُّنا كان يعرف كلّنا في وطنه المفترض... ذاك الوطن الذي ضاق على فئة من الناس دون أخرى، فكان الأناضول وجهة كل تلك الأمم المسحوقة في أوطانها المزعومة، وبذلك تحقق المعنى الحقيقي والحرفي لكلمة الأناضولو... إن كلمة (أنا) تعني (الأم)، أما (ضولو) فتعني (الممتلئ)... لقد امتلأ الأناضول بالأمهات الثكالى والأطفال اليتامى والعاجزين المرضى... فأرضعهم ترابه طعاماً وثمراً، وأظلتهم سماؤه فيئاً ودفئاً... كلنا جاء إلى هنا... كلنا جاء إلى حضن أمه الحقيقي... هل أدركت الآن ما معنى الأناضول؟؟؟

كانت هذه المائدة بداية انطلاقتي في هذا البلد الجديد... فقد بدأت أشعر بدفئه يسري إلى جسدي، وأحسست بقلبي قد بدأ يميل إلى محبته وإجلاله... أطرقت أفكر بحضرة السلطان المعظَّم، وتساءلت إن كان يعلم أن واحداً من أحفاد

المهاجرين الكريتيين سيأتي يوماً لزيارة ضريحه وفي رأسه تساؤلات وشبهات، وأنه قد ترك له من يُعلِّمه ويفهمه ويردَّ على جزء من أسئلته الكثيرة والمتعددة... لاحظ (يوكسل) أنني قد تهت من جديد، فأيقظني بلطف وقال: ها قد اقترب موعد صلاة العشاء، وعلينا أن نذهب إلى المسجد للأذان... فهلم معنا نؤدي آخر فريضة لهذا اليوم... وسيكون موعدنا معك مساء كل جمعة ننتظر قدومك إلينا من جديد... فأنت صديقنا وأخ لنا من اليوم إلى ما شاء الله أن يكون...

انتهت الصلاة، وودعت الأصدقاء الجدد في مدينة الغرباء!!! تلك المدينة التي تحكي تاريخ أمم وأقوام كيفما مشيت وحيثما نظرت... عرفت أنني سأتعلم منها الكثير الكثير، وسأجد فيها كل يوم قصة وحكاية... أدركت أني سأعثر في ثناياها على جزء من الماضي، وسأشم في هوائها رائحة سواعد كثير من الرجال العظماء، كما سأكتشف في عين حقيقتها أسرار سلسلة طويلة من الأولياء...

وداعاً أيضاً يا صديقي السلطان، يا من أكرمت مثواي بما يليق بعظمتك وقدرك، وأتحت لي فرصة الحوار مع أبي من مسجدك... لذلك سأعود حتماً لزيارتك كلما قدرت، فهو عهد بيني وبينك لن أخونه ما حييت... إنه عقد محبة ووفاء لمن أحسست عنده براحة واستقرار لم أعهدهما من قبل... فاشهد بأني سأتردد على حضرتك مراراً وتكراراً، وسأكون ضيفك الذي لن يقدر أحد أن يحجبه عن لقائك...

وبينا أنا أهمُّ بالخروج من الباب الشرقي للمسجد، استوقفتني لوحة صغيرة خُطَّت بذوق رفيع، فخطوت نحوها بضع خطوات ليتسنَّى لي تلاوة ما كتب فيها... تسمَّرت في مكاني وسرت قشعريرة في جسدي وأنا أقرأ: (غريق بحر عصيانم، دخيلك يا رسول الله)... تساقط الدمع من عيني بطريقة تلقائية عندما تراءى لي بحري الذي أغرق فيه... أتراها رسالة من السلطان إلى زائري هذا المكان؟؟؟ ربما تكون كذلك!!!... بل هي كذلك!!!

اليوم بدأت الغربة!

مرَّت سنوات الدراسة الجامعية مروراً سريعاً بعد أن تأقلمت مع البلد الجديد بشكل كامل وتام وصار لي فيه المئات من الأحباب والأصدقاء... صحيح أن البداية كانت قاسية ومؤلمة بالنسبة ليافع ترك حضن أمه ورعاية أبيه ورفقة إخوته، ولكن سحر اسطنبول كان أكبر من أن يدع أحداً يفلت من الوقوع في شباك غرامها حتى النخاع...

كان مضيق البوسفور، بأمواجه المتلاحقة نزولاً نحو البحر الأسود ورياحه المشبعة بالهواء العليل الذي يخترق أغشية القلب والصدر والدماغ، كافياً ليوقع المرء في شراك غرامه والهيام فيه... وكان الصعود إلى تلّة النبي يوشع ومنها إلى هضبة قلعة الأناضول كفيلاً بإزاحة أعظم الهموم والأكدار عن قلبي وأنا أراقب انفراج المضيق على البحر الأسود وأشاهد كيف تُلملم الشمس ضفائرها الذهبية من قعره بثبات وهدوء إلى أن يسدل الليل ستائره الداكنة وتبدأ أضواء المصابيح المنبعثة من عشرات السفن تتلألأ في عمق البحر...

لم أكن أدرك ما يخفيه القدر لي في هذه البلاد، ولم أكن أعلم أنني على موعد فراق جديد وأنا على وشك الانتهاء من

دراستي الجامعية... فبينما كنت أمنّي نفسي بالسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأتهيأ لدخول امتحانات القبول التي تؤهلني لاستكمال دراستي فيها، وصلني خبر يقول إن والدي قد أُدخل إلى المستشفى بحالة طارئة وإن الأمر قد يكون خطيراً... لم تسعفني كثرة الاتصالات بالأقارب والأصحاب لأصل إلى الخبر اليقين... كان من الواضح أنهم يحاولون إخفاء أمر ما... فما هي جدّيّة الوضع الطبي الذي ألمَّ بأبي بعد أن ودعته ببضعة أيام فقط؟؟؟ وماذا يحاول هؤلاء الناس أن لا يبوحوا به؟؟؟ أهو فالج أم ذبحة أم حادث سيترك أثره على طبيعة حياته ومقدار نشاطه؟؟؟ كنت أستشيط غضباً وأنا أحاور أقاربي عبر الهاتف ولا أصل إلى الحقيقة... الحقيقة التي لم تخطر لي على بال ولا تكهنت بها لحظة واحدة....

عندما عرفت الحقيقة، كانت مراسم دفن والدي قد انتهت ومجالس عزائه قد رُفعت... كان كلٌّ منّا مصدوماً لهذا الانتقال السريع بين حياتين... علمت لاحقاً أن الناس كانوا يسيرون خلف نعشه وهم ينظرون في أعين بعضهم بعضاً... لم يصدِّق أحد أن والدي قد التحق بالرفيق الأعلى... كان كلٌّ منّا يبكي على رحيل هذا الإنسان العطوف الذي حمل في قلبه هموم مئات الناس، وشهد له جميعهم أنه أمضى حياته في فعل الخيرات وتخفيف آلام المساكين.

هذه هي الحقيقة إذاً... لقد مات أبي وتركني وحيداً في

هذا العالم قبل أن تقرَّ عينه بي وبإخوتي... كم كان ناجحاً في بلسمة جراح الكثيرين، إلا أنه لم يستطع أن يحول دون فتح جراح عميقة في قلوب زوجته وأبنائه الصغار.. الحقيقة أنه كان يستعجل المراحل لأن مكوثه بينهم لم يكن طويلاً... ولعله كان يحسُّ بذلك، وربما كان يراه ونحن عن ذلك غافلون... تذكرت كيف كان يطيل النظر في المرآة قبل موته بأيام... ترى ما الذي كان يراه ولا نراه؟؟؟ وهل كان يحس بدنو أجله؟؟؟ ولماذا لم يقل لنا شيئاً قبل رحيله المباغت؟؟؟ لماذا؟؟؟ لماذا؟؟؟؟

لن أنسى تلك الليلة الباردة من شهر تشرين في اسطنبول، ولن أنسى كيف كنت أربض أمام الهاتف أنتظر مكالمة تقول إن الأمر لا يتعدى كونه مزحة ثقيلة أراد بها الناس اختبار محبتي لأهلي... أمضيت الليل بين غفوة وصحوة، كنت أفتح عينيَّ محملقاً في سواد الليل وعتمته القاتلة... كنت أنظر إلى السماء فلا أجد فيها بصيصاً من أمل ولا قبساً من نور... يومها أحسست أني كالطائر الهائم في السماء على غير هدى، ولم أشعر أن لي رجلين قادرتين على حمل جسدي الغريق... لم أستطع أن أبكي أو أن أنوح أو حتى أتنفس... فقد كنت لا أزال أتأرجح بين رفض الفكرة والقبول بها... فجأة تذكرت كيف كان وداعنا الأخير... لقد كان فعلاً مختلفاً عن سابقيه... تذكرت أنني ودَّعت أبي في البيت وحملت حقائبي نحو سيارة الأجرة... فوجئت بيده تنتشلني من داخل

السيارة... استدرت مشدوهاً فوجدته خلفي!... نظرت في عينيه فوجدت فيهما حزناً غريباً... قال لي يومها: إن لقاءنا القادم سيكون قريباً جدّاً، وإنني سأفاجأ بسرعة مرور الزمن... لم أستطع يومها أن أتكلم، واكتفيت بلثم يديه من دون أن أمنع دمعي من الخروج، لأن عينيه كانتا تبكيان أيضاً... عندها أيقنت أن أبي قد مات، وأن اللقاء الذي تحدَّث عنه لن يكون على هذا الكوكب بل في برزخ آخر في مكان آخر... التفتُّ فلم أشاهد حولي أحداً، رغم أن أخي وأصدقائي كانوا يحيطون بي... اليوم عرفت الطعم الحقيقي للغربة... وتذكرت الوطن... وماذا يعني الوطن... وكيف يكون الوطن وطناً... اليوم عرفت أن الوطن ليس حفنة من تراب أو قطعة من سماء أو شربة من ماء! بل هو حضن دافئ في قلب أم عطوف، وكنف آمن تحت ساعد أب مسؤول، وروابط عائلية مشدودة بأواصر المحبة والتراحم... أحسست أني قد خسرت كل شيء... وأحسست أن لا شيء بعد اليوم له قيمة أو يساوي عندي شيئاً.... تمنيت لو كان الأمر بيدي فألحق به حيث هو... تذكرت أمي وإخوتي، وأدركت أن القصة معقدة أكثر بكثير مما كنت أتخيل... فالموت بسيط جدّاً وقريب جدّاً، ولكن الحياة صعبة ومتعثرة إلى أبعد الحدود...

وبزغ فجر اليوم الجديد، فخرجت إلى الشرفة أنظر ما الذي حل بالبوسفور... فوجئت أن كل شيء على حاله، وأن

السفن تمخر عبابه في سير حثيث إلى الأمام. . . هكذا وبكل بساطة؟؟؟ وكأن شيئاً لم يكن؟؟؟ ألم يعلم الكون كله أن أبي قد مات؟؟؟ كنت أريد لكل شيء في هذه الدنيا أن يتوقف. . . كنت أتوقع أن تهبط السماء من عليائها أو أن تقوم الأرض من مقامها لتشاركني فجيعتي وحزني. . . إلا أن كل شيء كان كما كان بالأمس. . . السماء سماء والماء ماء. . . وهتف والدي في أذني مقولته التي كان يحب تردادها. . . إن دولاب هذه الدنيا يسير معك أو من دونك، فاحرص أن تسير معه إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. . . أما إذا أردت السير في عكس اتجاهه، فستجد نفسك وحيداً، ولن يلتفت إليك أحد، أو يلحظ تخلُّفك عن ركب هذه الدنيا أحد!!!

وبدأ شريط حياتي يعبر أمامي مثل الحلم. . . ولكن حلمي لم يكن يوماً واحداً من دونك يا أبي!!! فكيف أحلم إذاً بعد رحيلك؟؟ وهل سيكون هناك معنى لأي حلم لا تشاطرني فيه كل التفاصيل؟؟؟

كانت الأسئلة تنهمر على رأسي كهطول المطر في يوم عاصف، وكان الأسى يمزِّق كبدي لكل موقف كنت قد تجرأت على الوقوف فيه بوجه والدي. . . ندمت على لحظات وأيام ومواقف. . . أسفت لكل أفٍّ قلتها، جزعت لكل دقيقة أمضيتها بعيداً عن كنف أبوَّة لم أعهد منها إلا رصانة ورصافة وتضحية. . . لماذا لا يشعر الإنسان بقدر شيء حتى يفقده؟ أليس حرياً بالمرء أن يعيش قيمة الأشياء حين تكون بين يديه؟؟؟

شعرت أني أريد لمس أمي... واحتضان إخوتي... وطني هو حضن أمي ولا أريد ملجأ ولا ملاذاً غيره... أردت أن تحملني ومضة إليها لألازمها بقيَّة العمر كله... ولكن وبعد أن وصلت إليها وأمضيت معها شهر الحداد، أصدرت أمرها بأن الأوان قد آن لمغادرة لبنان، وأن واجبي اليوم هو تحقيق الحلم الأكبر لرجل ربما يكون قد بلي تحت التراب... وهكذا وجدت نفسي من جديد، على شرفة منزلي في اسطنبول، أنظر إلى مياه البوسفور، وأستمع إلى صفارات البواخر وهي تمر فيه تترى، وأرفع رأسي إلى السماء لأبحث عن نجمتي فلا أجدها... لقد ضاعت النجمة في الفضاء... وهي وإن استقرَّت في مكان لا أراه ولا أعرفه، إلا أنني كنت على يقين بأنني سأجدها في يوم من الأيام، وكنت متأكداً من أن وعد أبي بأن الزمان سيطوي المسافات هو صادق وحقيقي... هكذا وجدت سلوتي وسكنت آلام روحي... هذا إذاً هو العلاج... أمل بلقاء قريب في يوم من الأيام... في مكان ما، في زمن ما، عند أحد ما... ومن يدري ذلك أو غير ذلك؟؟؟ يكفي أن تؤمن أنك ستجد شيئاً حتى تجده فعلاً... هذا هو درب الدراويش... صبر بعده صبر يليه صبر ومصابرة ورباط... حتى يصل المريد إلى مبتغاه... قلت لنفسي: هذه بداية طريق الصبر... وستثبت الأيام إن كنت جديراً بالوصول... عاهدت نفسي أن أعمل حتى أصل... وقد لا أصل... ولكنني لن أقعد... بل سأجري وأمشي

وأزحف حتى أصل... عهد ووعد أيها الشيخ المربي، المتربع على عرش قلبي... عهد ووعد لا أُخلفه أبداً... ما دام في صدري شهقة واحدة وزفرة واحدة... عهد ووعد أنني سأصل إلى حيث أظنك قد وصلت... عهد ووعد أني سأحفظ أمانتك وأصون عهدك... والله بيني وبينك... والله على ما أقول شهيد!!!

تنكة!!!

مضت الأيام ثقيلة كالسنين... كنت بأمسّ الحاجة إلى رحلة تُخرجني من كآبتي وحدادي... فقرَّرت السفر إلى أدرنة بعد أن سمعت الكثير عن جمال طبيعتها وعن الآثار العثمانية العظيمة الموجودة فيها... وما شجعني على هذه الرحلة أن المسافة بين أدرنة واسطنبول هي قصيرة جدّاً مقارنة بأي رحلة أخرى داخل الأراضي التركية... حزمت أمتعتي وتوجهت إلى منطقة (الحرم)... كانت نيَّتي أن أقوم برحلة برّية قصيرة أُقلِّد فيها ما كان يفعله سلاطين بني عثمان عند تعرُّضهم للغمِّ والكآبة، أو عند حاجتهم لقضاء خلوة تتيح لهم اتخاذ قرارات مهمة وحاسمة...

ست سنوات مضت في اسطنبول، تعلمت فيها من دروس الحياة أكثر مما درسته في الجامعة... لقد تعلمت أيضاً تاريخ الامبراطورية العثمانية بتفاصيله المملة وأحداثه التفصيلية... كيف لا وأنا أعيش في مركز الخلافة وعاصمة السلطنة... لقد أشبعت خلال هذه السنين نهم طفولتي المثقلة بأحاديث التاريخ وذكرى الحكايات التي كانت تترك في ذهني أسئلة أكثر مما تحقنه بالعلم والمعرفة والإدراك...

أخذت مكاني في الباص بعد أن ألقيت التحية على رفيق الطريق الذي لا أعرفه... ومضى الباص في طريق ممتع وجميل... كنت أنظر من النافذة بعينين فارغتين هائمتين... فأنا ذاهب إلى مكان لا أعرفه، ولكنني أفعل ذلك عن قصد وسابق إصرار... فأنا أهرب هذه المرة من واقعي وذكرياتي وآلامي... بل أفرُّ من حياة رتيبة إلى أفق آخر وفضاء مختلف... كنت أريد أن أبحث عن نجمتي في سماء أدرنة... تلك النجمة التي ضاعت مني في سماء اسطنبول... كنت أريد أن أتوه في مجاهل هذه المدينة الصغيرة التي خرجت منها قرارات كبيرة غيَّرت مجرى التاريخ... كنت أطمع بالوصول إلى شيء يغيّرني أو يفتح بصيرتي على أمور لم يكن لي نصيب في إدراكها... كانت عيناي تفيض دمعاً بين فينة وأخرى... وكنت أُنظِّف أنفي مراراً وتكراراً لكثرة انحباس الدموع في مقلتي... كان واضحاً أنني لم أتخلص بعد من حمل ثقيل على عاتقي... التفت إلي رفيق الدرب الذي لا أعرفه وحيّاني من جديد... سألني عن سبب رحلتي إلى أدرنة وإن كان لي فيها أهل أو أصدقاء... أخبرته أنني طالب في اسطنبول يبحث عن مغامرة في مدينة قريبة... تبسَّم الرجل ابتسامة أحسست أني رأيت مثلها قبل ذلك... قال لي: سأصطحبك إلى مسجد السليمية إن كنت لا تمانع... فهو أعظم مسجد بناه العثمانيون، وتحفة المعمار سنان وأجمل أعماله... شعرت أني قد أنست لهذا

الرجل الذي رأيت فيه شبهاً لصديقي (يوكسل)... ضحكت من كل قلبي وقلت للرجل بلا حرج ولا مجاملة: أأنت من خدم هذا المسجد؟؟؟ أم لعلك أحد رجال السلطان سليم الثاني أو مأمور من قصره أرسلك إلي؟؟؟ تبسم الرجل ابتسامة عريضة وقال لي: رحم الله السلطان سليم وكل السلاطين العثمانيين، فقد تركوا لنا خزائن وكنوزاً لا نستطيع تعدادها ولا إدراك بركاتها... نحن نعيش في هذا البلد بفيض كرامات هذه المساجد المقدسة... هذه البيوت التي أذن الله أن ترفع ويُذكر فيها اسمه... يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال... لقد شيِّدت هذه المساجد وارتفعت مآذنها من مال حلال لا لبس فيه... فتغلَّبت على الزلازل عصوراً مديدة، واحتضنت قلوب ملايين الناس وحناجرهم التي صدحت بالأدعية والتضرع إلى الله... يا ليتني أكون نقطة عرق واحدة سقطت من جبين أحد العمال الذين رفعوا هذا البناء... أن أكون هذه النقطة هو أشرف عندي وأعظم من أن أكون وزيراً أو عظيماً...

أدهشني هذا الرجل، وأحسست أني بحاجة إلى التحدث معه والتعرف إليه أكثر... فلربما كان من أهل العلم والبصيرة فأنهل من معارفه ما أستطيع... قلت له جاداً: هل لي أن أتعرَّف إلى حضرتك أكثر؟؟ قال ضاحكاً: أنا (تنكة)... ثم تابع الرجل ونقر بإبهامه الأيمن على قصبته الهوائية وهو يمد رقبته ويرفع رأسه... قال: أسمعت هذا الصوت؟ هو يشبه نفس الصوت الذي يصدر عن (تنكة) فارغة!!! وأنا كذلك يا

عزيزي، وعاء فارغ له أصوات... لا قيمة لي ولا ثمن في هذه الحياة الفارغة المليئة بالضوضاء والأحداث، وهي في الحقيقة (تنكة) أيضاً...!!! عجباً للبشر كيف يلهثون وراء (تنكة) فارغة!! وهم أيضاً فارغون!! إن الإيمان بالله والرضى بقضائه هو السبيل الوحيد لجعل الوعاء يمتلئ رويداً رويداً من دون أن يصل إلى كفايته أبداً... والتقوى والعمل الصالح هما جدران التنكة وأعمدتها... والنهاية السعيدة للحياة تكون عند امتلاء الوعاء بأعمال الخير قدر المستطاع وتقديمها إلى مانحها الأصلي وواهبها... أطرقت رأسي متفكراً بما قاله رفيق الدرب المجهول...

عجباً لنفسي كيف استسلمت وانهزمت وسقطت عند أول امتحان حقيقي مرَّت به... حتى إذا أخضعتُ ما عشته في الآونة الأخيرة إلى معادلة التنكة، لوجدت أن كل الأحداث المريرة التي قاسيتها هي مجرد أصوات لا قيمة لها صدرت من تنكة فارغة... ولكن كيف تكون الأمور بهذه البساطة؟؟؟ وهل كل ما تكبدته من عناء وما ذرفت من دمع هو أيضاً لا شيء؟؟!! قاطعني الرجل وقال: إنَّ تحمُّل الصعاب والصبر على المشقة هما أول المدارج إلى الله... فلن يعرف اللهَ رجلٌ منغمس في شهواته وملذاته حتى أخمص قدميه... كما أنه لن يدرك اللهَ رجلٌ يكفر به عند كل نازلة أو مصيبة ألمَّت به... وكم هو بعيد عن الله من بُسطت الدنيا أمامه فتجبَّر وطغى واستغنى، فاستغنى الله عنه... هكذا تكتمل معادلة التنكة يا

عزيزي... والآن... لا تخبرني عن ألمك فهو ملك لك وحدك، عشه كما تريد، ولا تجعله يلفتك عن متابعة المسير إلى الأمام... حتى تصل إلى ما تريد أن تصل إليه...

يا سبحان الله... من أين أتى هذا الرجل؟؟؟ وما باله يقرأ داخلي ويخبرني عن نفسي؟؟؟ ولعل عيني قد أخبرته بما لم يفصح به لساني... أيقنت أن الأقدار قد رمت بي من جديد في حضن أحد العارفين... ولعل ذلك من محاسن هذه السياحة التي شعرت أنها قد آتت أُكُلها قبل أن تطأ قدماي أرض أدرنة...

مددت يدي إلى الرجل وقلت له: يا أخي الكبير، قد هوَّنت علي مصابي وبدَّدت ألمي بكلماتك التي أنا بالأصل ميّال إليها... ولكنني عرفت الآن أني كنت عاجزاً عن تطبيق ما علمته وتعلمته، فكنت أنت المعلم والأستاذ... قال لي فوراً من دون أن يدعني أتابع حديثي... تذكر أني قلت لك منذ البداية إنني (تنكة)... يعني أنني قد أقررت لك أني رجل فارغ!! فلا تنعتني بما لست أهلاً له... أنا مجرد مكافح بسيط في طريق الوصول إلى النجاة... وعلى كل امرئ أن يجد لنفسه الطريق للنجاة والخلاص...

أثار حديثنا عاصفة في الحافلة التي كانت تقلُّ أناساً يحملون مبادئ وأفكاراً مختلفة... فكان نقاش لم يحوِّله صديقي إلى حاد، بالرغم من اتهام الكثيرين له بالعبث بدماغ شاب يافع بأفكار لا طائلة منها ولا فائدة... اكتفى صديقي

بالرد بأن هذه هي طريقه التي لا يجبر أحداً على أن يسلكها معه، وأن لكل فرد الحق في تقرير مصيره ورسم خارطة حياته بالشكل الذي يريد. . . وهدأ كل شيء عند وصول الباص إلى محطته الأخيرة، وتفرَّق الناس كلٌّ إلى هدفه وغايته. . . أما أنا، فقد كنت ممسكاً بيد صديقي أطلب منه المزيد من الكلمات، وأرجوه أن يقبل رفقتي ليوم واحد في هذه الرحلة. . . فكانت سياحة أقل ما يمكن وصفها بالرائعة، لأنها استطاعت أن تعيد لنفسي توازنها بكل ما في الكلمة من معنى. . .

وحان موعد الفراق، إلا أن الرجل لم يفصح عن اسمه الحقيقي وقال: هذا سيجعلك تذكر التنكة ما حييت، ولن تنسى لقاءنا هذا أبداً. . . ذلك خير من أن تعرف اسم رجل فارغ لا حول له ولا قوة. . . ولن يفيدك ذكره في أي شيء من الأشياء!!! أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، وتذكَّر أن تكون مع الله إذا أردته أن يكون معك. . .

اسطنبول الحبيبة

انتهت أيام الدراسة الجامعية... كنت أمام مرحلة جديدة لا بُد من خوض غمارها لإتمام ما خرجت من وطني لأجله... كنت أشعر بضيق شديد لمجرد التفكير بأنني قد أضطر للانفصال عن اسطنبول... صرت أعرف كم أحببتها وكم أنا مغرم بكل ما فيها... أدركت أني لا أريد العودة إلى وطني الذي ولدت فيه، وأن أعماقي وجذوري صارت مشدودة إلى هذه الأرض التي لطالما نعتُّها بديار الاغتراب... قاومت تساؤلات تزاحمت في ذهني تتهمني صراحة بخيانة ضمنية لوطني الأصلي... كنت أتصارع مع نفسي التي كانت تنهي كل حوار مع ذاتها بأنها لا تريد العودة الآن إلى وطن الأحزان والآلام، وأن هناك مرحلة أخرى لا بد من عبورها... كانت كل تمنياتي أن تكون سنواتي الدراسية القادمة في المدينة التي بلسمت جراحي وداوت كدمات قلبي ومحت كل آثار الاضطراب من عقلي وفكري... عرفت اليوم أن اسطنبول كانت هي الحبيبة الأولى والغرام الحقيقي الذي ملأ لُبّي وكياني...

هكذا بدأت المرحلة الثانية من حياتي في اسطنبول... لقد كانت فرحتي عظيمة لأنني على موعد مع ست سنوات أخرى

أمضيها مع عشقي الأول... كانت كل أمنياتي أن أحظى بقربها والوصل معها أطول فترة ممكنة...

كانت أيام هذه المرحلة ممتعة وجميلة بكل ما في الكلمة من معنى... فقد بدأت أشعر بالطمأنينة والأمان، وبدأت أعرف معنى الاستقرار الروحي والنفسي، كما بدأت أستشعر اكتمال النضج والوعي لدي. لقد بدأت تظهر ملامح شخصيتي مصقولة بأفكار متنوعة ومتعددة ومنفتحة على الآخر بكل ما تعنيه الكلمة من معنى... كان لهذه المدينة فضل كبير في تعريفي على فلسفات ومعتقدات تختلف عن التي أؤمن بها وأعتنقها... وجدت الإنسان هو هو مهما تنوعت ثقافته واختلف دينه ومذهبه... رأيت الآلام تعصف بالبشرية كلها، وأيقنت أن ما ذُقت من ألم في حياتي لا يتعدى أن يكون ذرَّة أو جزءاً من ذرّة في مجرة كونية صغيرة تتبعها مجرات وأكوان أخرى... علمت أن الدنيا هي أوسع بكثير من أن يحتضنها عقل أو يحيط بها لُبٌّ أو يفهمها قلب... بدأت أعطف على كل الناس، وصرت أقرأ آلامهم من تجاعيد جباههم ووجوههم... رأيت حاجة المريض إلى طبيب رحيم يرأف بحاله ويعطف على أبنائه وزوجه وأهله قبل أن يداوي علَّته بدواء أو جراحة... شاهدت البشر يتألمون، كلٌّ على سجيته وطريقته، ورأيت كلهم يبحث عن ترياق يسكِّن وجعه ويذهب ضنكه... أزعجتني حقيقة اقتتال الناس فيما بينهم وتنازعهم على أوهام وسراب.... لم أفهم لماذا يصرُّ بنو آدم على

إيلام بعضهم بعضاً وإيذاء أحدهم الآخر... وجدت أن كل واحد منهم يبحث عن استقراره بطريقته، ويبرر لنفسه كل وسيلة للوصول إلى غايته... كرهت تلك الغريزة فيهم، وتمنيت لو استطاعوا أن يجتثّوا من نفوسهم ما يثبِّط إنسانيتهم، وأن يواجهوا شهواتهم وغرائزهم التي تدفعهم لارتكاب ما ينزع عنهم شرفهم وعلو شأنهم... أدركت أن الناس كلهم بين نقيضين متضادين، يتنازعون بينهم أمرهم... ورأيت الإنسان يترنح بين الخير والشر في كل لحظة من لحظات حياته... فهمت الآن معنى أن تكون كل نفس بما كسبت رهينة، وعلمت معنى أن يلتزم المرء مع نفسه، فلا يضره ضلال الآخرين وانحرافاتهم إذا تحقق من الهداية لها بمراقبة أعماله وجميع تصرفاته... الطريق شاق وطويل، ولكنه ليس بممتنع ولا مستحيل... فالحياة هي نضال مع الذات قبل أن تكون مع الآخرين... نضال لا ينتهي إلا بانتهائها، إذ لا يكاد المرء يخرج من امتحان حتى يجد نفسه بين يدي واحد آخر لا يقلُّ عن سابقه صعوبة ولا إيلاماً...

كانت هذه الأفكار تتكرر في رأسي عند كل صباح أمضيه وحيداً من على تلة تشامليجا... هذه التلة المشرفة على اسطنبول التي كانت ملاذاً للكثير من الحائرين والقلقين، وكذلك للعالمين والعارفين، مثل الأستاذ الرباني الكبير بديع الزمان سعيد النورسي... كنت أقف هناك ساعات طويلة أرقب هطول الثلج فوق مياه البوسفور، وأشاهد يد الرسام

تطلي بيوت المدينة وأزقتها باللون الأبيض حتى لا يبقى من درن الدنيا شيء... كنت أمكث ساعات طويلة جاثياً على صخرة أو مستنداً إلى شجرة إلى أن تتجمد أطرافي من البرد... حتى إذا أحسست بطوفان الرضى يفيض من قلبي ويسري في كل بقعة من جسدي هممت بمغادرة المكان وأنا في شوق إليه قبل أن أتركه.... آه منك يا حبيبتي يا اسطنبول، أيتها الساحرة التي ملكت ضميري ووجداني... أنت وطني ووطن كل واحد مثلي... لن أدعك تتركينني ولن أسمح لك بالتفلت مني...

كان تعلُّقي بهذه المدينة يزداد يوماً بعد يوم... فقد وجدت فيها نفسي بعد أن هدأت ثورة جوارحي الغاضبة، وسكنت آلام روحي المعذَّبة... لقد أصبح لي في كل بقعة منها حكاية، وفي كل زاوية منها قصة ورواية... ألفت أهلها وشوارعها، وتذوقت حلاوة السكينة في آثارها ومساجدها... كنت أستمتع بقراءة شواهد مقابرها، وأتأمل ما نُحت فوقها من أشكال العمامات التي تدل على مقامات ساكنيها... كنت أستذكر قصص والدي كلما دخلت إلى الحجرة التي استضافت رفات عبد الحميد وعبد العزيز... كنت أُقرئهم سلامه وأشعر بسعادتهم عند كل زيارة أقوم بها إلى أضرحتهم.... كنت أرى في هذه المدينة ما لا يراه الآخرون... لأنني كنت عالقاً في الماضي ولم أكن أستطيع التفلت من عقاله بأي شكل من الأشكال...

ومع مرور الأيام، كان الماضي يلقي بأثقاله على عقلي

وذاكرتي أكثر وأكثر، وكنت أرزح تحت وطأة هذا الحمل كلما جلست مع نفسي وانزويت مع أفكاري وأطلقت العنان لخيالي ووجداني... كنت أُحدِّث نفسي ساعات وساعات وأنا أمشي على شاطئ أوسكودار بعد منتصف الليل... كنت أجد راحة غريبة بعد حديث طويل مع الأموات... ربما لأنهم يصدقون أقوالهم فلا يراؤون ولا يحابون... كان صوت والدي يدوي قوياً في أذني ويأمرني بالاستعداد للعودة إلى مسقط رأسي... ولكنني كنت أقاومه في كل مرة وأرفض بوضوح أن أترك الوطن الذي أعطاني كل شيء... ماذا بقي لي في مسقط رأسي بعد رحيلك يا رجل؟؟؟ لقد كان وطني الحقيقي هو في زرقة عينيك والأمل الذي كان يشع منهما نوراً ودفئاً على عقلي وقلبي... لم يعد عندي أدنى شك في أن وطني قد مات عندما أغمضتهما، فالوطن حلم جميل وحضن دافئ وملاذ آمن، كما أنه شعور بالوجود وقيمة الذات وأهميتها... وبصراحة أقول: إنني لم أعد أجد هذه المعاني في مسقط رأسي أيها العزيز...

أنت تريد، وأنا أريد، والله يفعل ما يريد!!! أوَلست أنت من علَّمني هذه الكلمات؟؟؟ سوف أستسلم للقدر كما كنت أفعل دائماً، وسأرضى بما كتب لي بالتأكيد... ولكن هواي سيبقى ههنا ولن يفارق فؤادي هذا المكان ما حييت... سوف أنتظر القضاء بكل إيمان راسخ، وسأدعو الله أن يجعل لي في هذه الأرض ملاذاً ومأوى... فإن وافق الحكم مرادي فالحمد لله، وإن خالفه فلا حول ولا قوة إلا بالله... والله خير الحاكمين.

وصدر الحكم...

هكذا هي الدنيا... السعادة فيها ومضات ولحظات... لم أكن أتخيل أن عودتي إلى مسقط رأسي ستتم بهذه السرعة... أغمضت عينيَّ فوجدت شريط اثني عشر عاماً يمرُّ أمامهما بلحظة واحدة... ذُعرت من وهل المشاهد وتسارع اللقطات... وجدت أنفاسي حبيسة في صدري الذي كان يضجُّ بدقات قلبي المتسارعة... كانت رياح السنين تنهال على وجنتي ضرباً مبرحاً دون استطاعتي أن أتقي منها شيئاً... لقد أصابني شلل عام منعني من مقاومة الأحداث... وها أنذا مستسلم لقدري من جديد كما يستسلم الجندي الجريح المضرج بالدماء... وددت وقتها لو أموت قبل أن أقع في براثن من سوف لن يرحمني ولن ينظر إلى عثرتي أو يرأف بقلّة حيلتي...

فتحت عيني فوجدت نفسي في مكان آخر... فيه ثلة من الأقرباء والكثير الكثير من الغرباء... بحثت عن أصدقائي فلم أجد منهم أحداً... فتشت عن سند أتوكأ عليه فما وجدت غير أعجاز خاوية من كل أسباب القوة والبأس... أُصبت بخيبة أمل كبرى عندما أدركت أن كلهم كان يرى قوتي وعزيمتي

بينما كنت لا أرى في المرآة إلا صورة الطفل الذي ينظر إلى الأعلى باحثاً عن يد يتلقفها أو صدر يرتمي إليه... ربما كان في العودة إلى الديار تنبيه لي من غفلتي الطويلة وإنذار بأنني لا أزال على أول طريق النضج وفي الدرك الأسفل من سلَّم الحياة... تذكرت تلك الرؤيا القديمة التي كنت أركض فيها صعوداً على سلَّم طويل ممتد نحو الفضاء... كنت كلما اجتزت منه مرحلة وجدت نفسي أمام مراحل أخرى لا نهاية لها... كنت أجري وأركض حتى تملَّكني التعب والإرهاق... كان الهاتف في المنام يأمرني بالاستمرار... ولكن الهدف كان بعيداً جدّاً عن متناول قبضتي... لم أفقد الأمل بالوصول، ولكنني لا أذكر أني قد وصلت إلى شيء... كل ما أعرفه أني استيقظت يومها متعباً، وزفرت بعد شهيق عميق، ثم توجهت إلى الله سائلاً خير هذا المنام وخير ما فيه، ومستعيذاً به من شره وشر ما فيه...

إذاً، فقد بدأ المشوار الحقيقي، أو لعله مرحلة جديدة من السلَّم العتيد... وربما كانت كل هذه الفصول مقاطع مرحلية للوصول إلى الحقيقة المطلقة في هذه الحياة... وعلى الرغم من كل شيء، فلم يكن أمامي خيار إلا متابعة المسير، فهو الخيار الوحيد أمام بني البشر... فكل الناس يسيرون بأقدامهم نحو أقدارهم من دون تباطؤ أو استمهال... وأنا فرد من هذه المجموعة الكبيرة وعليَّ أن أمضي معها حيث تمضي... تذكرت تشامليجا وتلة النبي يوشع... واسترسلت مخيلتي من

أمام شرفة مسجد السليمانية تنظر إلى مياه الخليج... ثم نطق لساني قائلاً: أيها الوطن الضائع، كيف أفلتَّ مني؟! ترى كيف حالك يا أوسكودار؟؟ وكيف حال أهلك؟؟ وما هي أخبار عشاق الليل الذين كنت أنتظر معهم بزوغ فجر يوم جديد من أمام قلعة (الفتاة) الصامدة وسط مياه البوسفور مئات السنين؟؟ أحسست أن الشوق قد فاض بي إلى معشوقتي التي أُجبرت على تركها بالقوة... ناديتها بأعلى صوت لم يسمعه أحد غيري: أنا قادم إليك فانتظريني... أعلم أن الوصل معك لم يعد مسموحاً به إلا لوقت معلوم، وأنا أعلنت الرضى والقبول بكل شيء... لذلك سأكتفي ببضع أيام أمضيها بقربك يا جميلتي، ثم أعود بعدها إلى الحقيقة المُرَّة من جديد...

وفي اليوم التالي، حزمت ما خفَّ من متاعي وانطلقت عائداً إلى المكان الذي تركت فيه ذكريات السنين والأيام... فور وصولي، توجهت إلى تشامليجا أتحسس أشجارها وترابها... وقفت أتأمل البوسفور من أوله إلى آخره... نظرت إلى أزهار الأقحوان المنتشرة بألوانها الزاهية في كل مكان... ثم لاح لي من بعيد طيف السلطان أحمد الثالث يتبختر بقفطانه المزركش بين هذه الأزهار التي وسمت عهده وحكمه... رأيت الدنيا جميلة وفاتنة... أحسست بالبرد... فأصابتني رعشة أحدثت في كياني دفئاً حريريّاً يعجز الوصف عن تعريفه... لقد رُدَّت إليَّ روحي... نعم وبكل بساطة... سوف أترك روحي عند أعالي تشامليجا وأعود بجسدي إلى

مسقط رأسي... لن أطيل الغياب عنك يا معشوقتي أبداً... سأظل أتردد إليك كلما سنحت لي الظروف... سأتعلم أن أعيش من غير روح... سأكون جسداً بلا حياة حتى أعانقك... سيبقى حبك أمل حياتي... دائماً أبداً ما بقيت وما حييت... ما بقيت وما حييت!!!

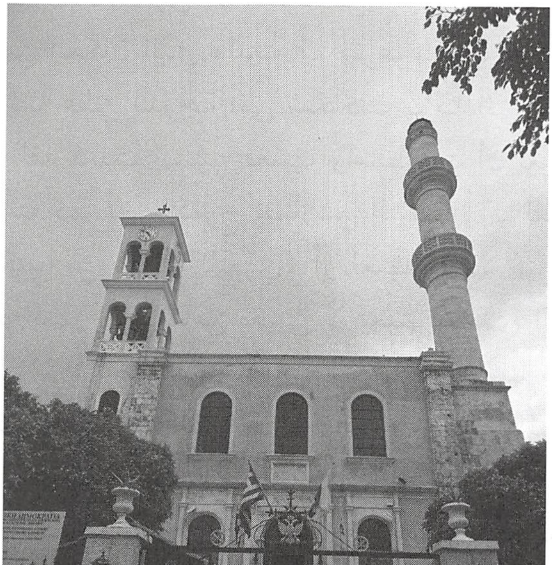

صورة هنكار تزاميسي وتظهر المئذنة بلا هلال بجانب برج الكنيسة

عُدنا والعَود أحمد!!

إذاً فقد كان قدري أن أعود من حيث بدأت... من هنا... من المكان الذي ولدت فيه وترعرعت فيه... كان كل شيء غريباً عليَّ لدرجة أني شككت يوماً أني قد ولدت ههنا... لقد فعلت السنين فعلتها واستطاعت أن تغيِّر ملامح الشخصيات كما يغيِّر الموج تضاريس الشطآن... لقد أصاب الناس الكثير من عوامل التعرّي، أو لعلها كانت المرة الأولى التي أنظر فيها إلى الناس بعينيَّ لا بعينَي والدي الذي كان يجمِّل كل شيء ليبدو نقيّاً ونظيفاً، لدرجة أنه جعلنا نعيش في مدينة مقدسة لا وجود لها في الحقيقة... سررت لما تيقنت أن السنين قد فتحت بصيرتي على أشياء كثيرة... أدركت أني قد فقدت طهارة ذاك الفتى الصغير وأني قد دفنت عذرية عقله في وحول الحياة، فالدنيا ليست للغافلين والمغفلين على حدٍّ سواء... والتغيير أمر لا بد منه ولا مناص عنه... إنه تغيير نحو الفهم الأشمل والأعم لهذه الدنيا بكل ما فيها...

كان كل شيء في حياتي الجديدة يقول إنه لم يعد مقبولاً بعد الآن إلا أن أمارس دور الرجل القوي القادر بأفعاله وأقواله... فلقد ولّى زمن السماح، وصار الخطأ ذنباً لا يُغتفَر...

كانت الحقيقة الجديدة أن راية حمل المسؤولية قد باتت حكماً في يدي ولم يكن من مجال للتهرب منها أو الخلاص من تبعاتها... ولكني كنت أشعر أن حنيناً إلى الطفولة يتملكني أكثر من أي وقت مضى... تمنيت لو عادت عقارب الساعة عشرين سنة إلى الوراء... تمنيت لو عدت إلى أيام لم أكن فيها مسؤولاً عن أي شيء... ولكن هيهات... هيهات... فالحياة لم تكن يوماً لترجع بأحد إلى سابق عهد أو تعود بأيام مضت وأفعال عبرت... الوجهة هي دوماً إلى الأمام، ليلاقي كل امرئ قدره الذي كُتب له... وليشاهد لقطات حياته المسجلة منذ الأزل، فيضحك لبعضها وينتحب لمعظمها... ثم لتنتهي فصول المسرحية الكبرى بأكثر المشاهد تأثيراً وإيلاماً... فصل الرحيل عن خشبة الحياة بحلوها ومرِّها وجميع ما فيها...

ها قد عدت أسمع صوت والدي يهتف في أذني من جديد: «ربما لن تستطيع أن تعيش كما يعيش العظماء، ولكن احرص على أن لا تموت كما يموت الأغبياء»... تساءلت يومها عن الطريقة التي يموت فيها الأغبياء حتى أجتنبها... فحياة العظماء مكتوبة في مئات كتب التاريخ، ولكنني لم أقرأ يوماً عن الطريقة التي يموت فيها غيرهم من الناس... أو لعل حادثة موتهم تمرُّ مرور الكرام فلا يسمع بها أحد ولا يتناقلها قيد ولا كتاب... سألته يومها أن يمنحني سرَّ ذلك فقال:

كن أنت كما أنت، ولا تكن كما يريدك الآخرون...

اتبع وجهة عقلك وضميرك وقلبك ولا تكن تابعاً لمخلوق مثلك، يأكل كما تأكل ويشرب مثلما تشرب...

لا تكن رقماً ولا عدداً يجمع أو يطرح في أي معادلة بشرية صمَّمها غيرك لحاجة في نفسه أو مصلحة لذاته أو غيره...

عش كريماً ومت كريماً، ولا تحنِ رأسك إلا لخالقك ومولاك، فما عداه وهمٌ وسراب وتراب في تراب...

عندها فقط تستطيع أن تتوسد مخدتك وأنت عن نفسك راضٍ، وبذلك فقط تدخل لحدك وربك عنك راضٍ...

طريقك هي في مرضاة ربك، وليست في مرضاة أحد سواه... ولكن يكون الأمر صعباً طالما أنك لا تحيد عن مبادئك ولا تعطي من كرامتك ولا تتنازل عن أخلاقك ومروءتك...

لقد عزمت النية على المضي قدماً بهذه الروحيات والأفكار... إلا أن البداية كانت صعبة ومتعثرة أكثر مما ظننت وتوقعت... فسرعان ما وقعت في براثن سفيه وظالم ومتكبر مرة تلو مرة... وكنت أخرج من كل تجربة جديدة بمرارة هي أشد من سابقتها... لدرجة أني كرهت نفسي واحتقرتها... بل وعاقبتها في كثير من الأحيان... كنت سأعلن هزيمتي لولا أن صوت والدي كان يعود على مسمعي آمراً بالصبر والتسليم، وواعداً بأن الفرج قريب...

كان هاتف والدي لا ينفك يذكِّرني بعهد كنت قد قطعته له عندما كانت روحه لا تزال في عنقه، هو عهد ووعد بتنفيذ مهمة ليست كغيرها من المهمات!...

كم وددت أن أتحرر من عقال وعود وآمال منَّيت نفسي بها عندما كنت طفلاً صغيراً!... لقد اكتشفت أن رؤيتي للأمور قد تغيرت وتبدلت بشكل شبه كامل، فكل ما كنت أحسبه هيّناً هو في الحقيقة أمر عسير، وكل ما كنت أراه ممكناً في الماضي هو اليوم من المستحيلات التي لا يمكن الوصول إليها بأي شكل من الأشكال... استفقت على واقع يقزّم أحلامي إلى محيط دائرة صغيرة جدّاً لا أكاد أراها أو أرى ما فيها... صحيح أنه كان حلماً جميلاً، ولكنني عرفت الآن أن إدراك المرء لقدراته وما يستطيع تحقيقه هو أسمى بكثير من الغوص في بحر من الأحلام الزائفة التي لا تتحقق بشكل من الأشكال... القضية إذاً هي قضية ميزان موجود في عقول كل الناس، فمن استطاع أن يزن الأمور على حقيقتها ويعطي الأشياء مقاديرها كان ناجحاً في حياته... أما من اختلّت عنده الموازين ومعايير الوزن الصحيح فقد وقع في المحظور... ومن لم يملك الميزان أصلاً كان في هذه الحياة أعمى يهيم على وجهه ولا يأتي بخير في أي حال من الأحوال!!!

لربما كان هذا ما عناه أبي عندما نصحني أن لا أموت ميتة الأغبياء، الذين يقضون حياتهم من دون معرفة الميزان، أو يمضون أعمارهم منهزمين مستسلمين أمام تعقيدات الحياة وصعوباتها... فالميزان والاستسلام لا يتفقان أبداً... الميزان إدراك والاستسلام جهل... الميزان عزيمة والاستسلام عار... الميزان قوة والاستسلام يأس... هذا

بيت القصيد إذاً... وهذا ما كنت أبحث عنه منذ سنوات بعيدة...

من هنا كان أول قرار أتخذه في حياتي الجديدة... ألا وهو تخفيف الأوزان التي أحملها فوق ظهري ما استطعت إلى ذلك سبيلاً... فكلما خفَّ حِمل كان السير بما بقي أهون وأيسر، وكان الوصول إلى الهدف المنشود أكثر احتمالاً وواقعية... إن أول بناء يلزم تشييده هو بناء النفس وتحصينها من الفتن الشعواء العاصفة بلا رحمة ولا هوادة... تلمَّست قلبي فوجدت فيه حنيناً إلى أهلي وعائلتي التي تركتها لأكثر من عقد من الزمن... وتلفتُّ حولي فوجدت كهلهم قد قضى، وشابَّهم قد شاخ، وسليمهم قد مرض!!! قلت في نفسي: هذا ما تبقَّى لك من كنزك، فانظر ما أنت فاعل فيه!!! فالزمان يمر وينقضي، ولن تكون أمامك فسحة كبيرة لمزيد من التأملات بعد الآن!!!

البحث عن الماضي

بعد تعثُّر وتخبُّط، بدأت تلوح في الأفق ملامح خيوط حقبة جديدة من حياتي. فلقد بدأت بممارسة مهنتي وكسب قوتي بعرق جبيني، كما أنني كنت على موعد مع شريكة حياتي ورفيقة دربي التي كانت تستمع لثرثرتي وتبتسم لحكاياتي من دون تذمُّر ولا ملل...

وجدت نفسي أحدثها عن الماضي البعيد... عن حكايات أبي وجدتي... عن الحميدية والمهاجرين... عن معشوقتي اسطنبول... عن حبيبة أخرى لا أعرفها ولم ألتق بها... عن عروس منِّيت نفسي بوصلها لسنوات طويلة... كانت تضحك من مبالغتي في سرد الأمور، وكانت لا تتردد في قول ذلك! فالصراحة هي أساس بناء حياة زوجية سليمة، وشراكة الفكر والقلب هي دعامتها، والنصيحة هي جوهر العلاقة ولبُّها، والتآزر هو الطريق الوحيد الذي يوصل إلى تحقيق حلول جسدي وعقلي كامل للرجل مع قرينته...

لقد قطعت لي وعداً بمساعدتي في الوصول إلى الحبيبة المفقودة، وطمأنتني إلى أنها لن تكون موضع خلاف في علاقتنا، أو عائقاً في توثيق أواصر المحبة والمودة بيننا!!!

فوجئت عندما طلبت مني أن أصطحبها إلى الحميدية ولم يفت على زفافنا سوى يومين اثنين!! صُدمت من إلحاحها على تحقيق ذلك رغم اعتراضي المتكرر... فقريتنا ليست المكان المناسب لقضاء شهر عسل أو حتى يوم!!! ولكنها كانت مصممة على تعرُّف المكان الذي كان يشغل حيزاً كبيراً من تفكيري، وعلى تلمُّس حكاياتي بعين الحقيقة لا الخيال...

رضخت لإرادتها مجبراً... فوجدت نفسي على الطريق الساحلي من جديد... أروي على مسامعها حكايات المهاجرين، وأخبرها عن عاداتهم وتقاليدهم، وأصف لها بيوتهم... ثم صمتُّ فجأة واسترسلت عيناي في غيب الرؤى بعد أن عادت بي الذكريات إلى طفولتي، ولاح طيف أبي وجدتي ومشاهد الوصول إلى القرية والحفاوة التي كنا نلقاها من جميع الناس في يوم من الأيام... قلت في نفسي وجلاً: ماذا سأجد من الماضي؟ وما الذي بقي من أثر والدي وعائلتي في مكان قد هجرناه أعواماً طويلة؟!

كان شعوراً غريباً أن يمتزج الفرح بألم العودة إلى الماضي، خصوصاً وأن هذا الماضي لم يبق منه شيء!!! فما إن ركنت السيارة حتى رأيت حطام بيت جدتي... نظرت من الباب الأمامي فوجدت السماء ظاهرة من خلال سقفه المتهالك!!! التفتُّ إلى الغرفة اليمنى فوجدتها مليئة بأكياس علف المواشي!!!... وما الغريب في ذلك؟؟؟ فلقد يئس الجيران من عودة سكان هذا البيت المهجور فاستباحوا لأنفسهم أن

يستفيدوا من فراغه ولو بشكل مؤقت!!!... لم أستطع أن أجد روح أبي ولا جدي ولا جدتي في أي ركن من أركان هذا البيت... فلقد أصبح مكاناً لا أعرفه ولا يشبه البيت الذي كان في مخيلتي بأي شكل من الأشكال... وما زادني يقيناً بذلك أني لم أعثر على عصا جدي التي خبأتها بنفسي في مكان آمن لأسترجعها في يوم من الأيام!!! نظرت إليَّ عروسي بعينين مندهشتين، فهي لم تعرف بعد أن هذا هو بيتنا الذي كنت أحدِّثها عنه، ولم تستطع أن ترى ما الذي فعلت به السنين... وجدتني أبكي وأنا أنظر إلى حيطان هذه الخرابة المتساقطة... سألت ببراءة وكأنها قد حلَّت لغزاً: أهذا بيت جدك وجدتك؟؟؟ قلت: كأنه هو!!! فأنا لم أتعرف منه إلا بعض جدران شيدت بحجر رملي... وللحقيقة فإن الحجارة نفسها قد باتت غريبة بعد أن اعتلاها عشب وغمرها سواد وشحوب... أمسكت بيدها هارباً من هول المكان وتوجهت بها إلى دار الخالة (كالاينتزينا) الذي كان لا يزال عامراً ببناتها الثلاث بعد أن رحلت عن الدنيا مخلِّفة وراءها عبقاً وذكريات مضحكة... حاولت أن أضحك وأنا أفتش عن شجرة التوت التي كانت تتوسط باحة بيت خالتنا، وأنا أتذكر كيف كانت تعطي ابنتها نظمية أو (نازمو) عصا طويلة لتسقط ورقها بالقوة والضرب عند حلول فصل الخريف، لأنها ـ وبكل بساطة ـ لا تريد أن تنظف أرض الدار من الورق اليابس الذي سيتساقط تباعاً عشر مرات في اليوم!!! ولكن أين هي شجرة التوت؟؟؟

تلفتُّ إلى كل حدب وصوب، ثم علمت أنها صارت من المشاهد المقتطعة والمحذوفة من شريط الذكريات الذي كنت أفاخر فيه وأتباهى به!!! ثم انقطع الصمت بصوت معروف ينادي بأعلى نبرته: بشوس إيسه أسي؟؟ بشوس إيسه أسي؟؟ وظهرت نازمو من باب الدار مندفعة إلى الخارج، فوجدت ضيوفاً غير مترقبين... إلا أنها عرفتني فوراً... فاحتضنتني بقوة بين ذراعيها تماماً كما كانت تفعل من عشرين سنة... وتعالت أصوات الأخوات من الداخل: موري نازمو، بشوس إينه أفتوس؟؟؟ كانت نازمو تمسك بذراعي بكل قوتها خشية أن أتفلت من بين يديها لعشرين سنة أخرى وهي تجرني إلى داخل البيت جرّاً، صارخة بأعلى صوتها: أليو تو براهيميس... موري فيتخو، موري خالديه، إيلاتي... بشاستوني تو أليو... كانت الفرحة ظاهرة على محيّا بنات الخالة، فالضيوف ينتمون إلى زمن غابر بمعظم أحداثه وأشخاصه... كانوا يسألون عن أحوال أعمامي وعمتي، وعن أمي وإخوتي، وعن الكثيرين ممن اعتادوا رؤيتهم في يوم من الأيام...

كانت زوجتي تقف على مقربة مني، ممسكة هي الأخرى بذراعي، تنظر بعجب إلى ما يدور حولها من حوار وأسئلة... كان لا بد من أن أقطع الحوار بتعريفهم على زوجتي التي نالت قسطها من الاحتضان والتقبيل أيضاً... كم هي جميلة قريتكم أيها المهاجرون!... وكم هو جميل أن تعيشوا البساطة والعفوية والمحبة بهذا الشكل!... بهذه الكلمات القصيرة

استطاعت زوجتي أن تدخل إلى قلوب أقاربي وأهلي في الحميدية، وتسابق كلهم إلى إخبار الآخرين عن الضيفة الجديدة التي وطئت أرض الوطن البديل... فقدم الناس للتعرُّف إلى عروس المهاجرين، التي أتت إلى قريتهم المنسية في صفحات تاريخ عتيق لم يعد أحد يريد فتحه أو قراءة ما فيه...

كانت (نظمية) هي أكثر المتحمسات لاصطحاب الضيفة في رحلة تعريفية بالقرية وأهلها وكل ما فيها... وكنت أنا بطبيعة الحال أرافق الفتيات في رحلتهن عبر السهول والبيادر الممتدة إلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه نظر... تتابعت خطواتنا إلى أن وصلنا إلى حافة بئر قديم متهدم، ورأيت جرناً حجريّاً قديماً مرميّاً إلى جانبه... نظرت داخل هذا الجرن فوجدت طفلاً صغيراً خائفاً، قد تركه والده فيه برهة من الزمن حتى يقضي حاجة أو ليحقق أمراً على عجل من دون أن يكون راغباً في اصطحاب طفل يعيقه أو يؤخره عن فعل ما يريد... كان الطفل ساكناً لا يتكلم، ولكن فرائصه كانت ترتعد من الخوف، كما كانت عيناه مفتوحتين بشكل دائري كامل مع تيقظ وانتباه لكل ما يتحرك من حوله... أشفقت لحال الصبي، وشعرت بقلقه وخوفه... قلت له: من أنت وما اسمك؟؟ ولماذا تقبع في هذا الحوض وحيداً وسط هذه السهول التي لا يُرى فيها إنس ولا جان؟؟؟ أجابني الولد فقال: اسمي علي... وأبي اسمه إبراهيم... وهو دائماً ما يتركني في هذا الحوض وحيداً

بين علو السماء وعمق الجب وفسحة السهول... هو دائماً يقول إن فراقنا آني ومؤقت، وإنه سوف يعود دوماً للقائي... وعندما غادرني هذه المرة، طلب مني أن لا أجزع ولا أخاف، وأن لا أشك لحظة واحدة في أني سأبقى بعيداً عن ناظريه... ثم تابع الطفل الصغير حديثه بيقين تام فقال: إنه الآن ينظر إلينا ويعلم كل كلمة نقولها لأنه قريب جدّاً من هذا المكان، بل هو معنا يستمتع بأننا التقينا من جديد حول هذا البئر القديم الذي حفره بيديه، وتهلل وجهه فرحاً عند رؤيته الماء يتدفق من بين الرمال والصخور... تلفتُّ من حولي فما وجدت غير زوجتي وابنة خالتي تنظران في وجهي بغرابة وتعجُّب، فأشحت بوجهي عنهما لأقول للطفل إن والده ليس على مرمى بصري، وإنه في الحقيقة وحيد وتائه في هذه البيادر الموحشة، وإنه يتعين عليَّ أن أصطحبه إلى أمه أو أحد أقاربه بدل انتظاره غير المبرر لرجل قد لا يعود... فوجدت الحوض خالياً إلا من رائحة هذا الطفل الصغير الذي جلس فيه منذ أكثر من ثلاثين سنة خلت وبقي جزء من خوفه وأحاسيسه معلَّق بين ثناياه منذ ذلك الحين وحتى هذا الزمان... سألتني زوجتي عما دهاني... فاعترفت أنه شوق طفولة من الماضي اعترى مخيلتي، ومشاهد من رؤى حياة قديمة تراءت أمام عيني، فلم أستطع أن أحجبها عن اختراق ذهني واقتحام عقلي فاستسلمت لها دقائق معدودة ثم انتبهت...

لم تكن زوجتي قادرة على سبر أغوار ما كنت أراه يومها،

ولم تكن مؤهلة للغوص معي في ذكريات الماضي. . . حسبها ما أرادت أن تراه وتعرفه عن شريك حياتها الجديد، وهي إذ تطمع في نيل أكبر قدر ممكن من الفهم لشخص هذا الشريك، فإنها تدرك مسبقاً أن ما من أحد قادراً على معرفة كل شيء عن الآخر حتى بعد مرافقته له سنين وسنين، فهذا هو المستحيل بعينه. . . لأن الإنسان وعاء كبير يمتلئ كل يوم بشيء جديد، وكلما زاد محتواه طرح بالقديم إلى قعره ليتكدس بعضه فوق بعض، فيطمس الحديث على القديم حتى لا يبقى منه شيء يُسمع أو يُرى!!!

ولكن حدث في الحميدية ما استثار ذكريات الماضي. . . شيء ما جعل صور مشاهد قديمة تطفو إلى السطح من جديد. سمعت أمواج البحر تعيد صوت أبي وأحلام يقظته التي كان يعيش فيها. . . ورأيت طيفه يلوح لي وراء كل زاوية من بيوت هذه القرية الهادئة. . . أما يده فكانت تلامس رأسي مع كل هبَّة ريح ونسمة هواء. . . تجدد أملي بأن أجد ذاك النجم الذي ضاع مني في سماء اسطنبول. . . فمكثت مع زوجتي نصف الليل أرقب بزوغ نجمي هذا وأنا أتبادل معها أطراف الحديث بينما كانت عيناي تحملقان في السماء. . . كنت أقطع مراقبتي بنظرة فيها ابتسامة مسروقة من أسى الماضي. . . كنت أقول لزوجتي: ضاع نجمي مني، ويبدو أنني لن أجده ههنا. . . أما وأنت بجانبي، فأنت نجمتي التي قبلت حبّاً ناقصاً تتشارك فيه مع من قضوا وذهبوا إلى مكان غير هذا المكان، إلى عالم لا يشبه عالمنا بأي شكل من الأشكال. . .

كان الصمت جواب زوجتي المفضل في مثل هذه الحالات... ربما كانت واثقة بأنني سأجد ذلك النجم الضائع في يوم من الأيام، أو أنها كانت تعلم أن السنين كفيلة بأن تجعلني أجد عنه بديلاً يعوضني خسارتي ومرارتي...

هكذا انتهت ليلتنا... بحلم شاهدناه سوية، وبرؤية مشتركة لظلال نجم أفل منذ زمن غابر... أحسست أن زوجتي قد أحبَّت نجمي وكأنها تراه كما كنت أراه... شعور جميل أن شخصاً جديداً يتعاطف مع قصتي سيكون بجانبي... في رحلة البحث عن نجم تائه في الفراغ... كانت هذه الليلة التي قضيناها في الحميدية سبباً في إمساك طرف أول خيط قد يوصلنا إليه... أو قد لا يوصلنا...

نعم، فقد كان هذا رهان رحلتنا الذي سيربح أو يخسر في يوم من الأيام!!!

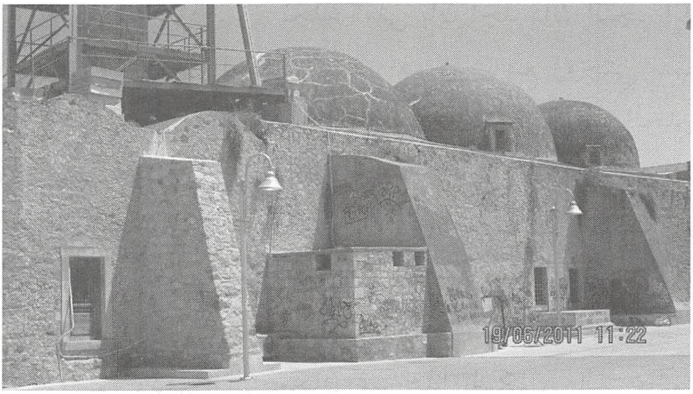

نانرتزي تزاميسي في رثيمنو

حلم يتلألأ من بعيد

«لا بد أن يتحقق أي حلم إذا كنت تريده كثيراً». . . مقولة لطالما تردَّدت على مسامعي عندما كنت طالباً في اسطنبول. . . ولكن لا بد أن أعترف أنني شخص قليل الأحلام. . . فنادراً ما يوقظني منام أو تُقلق نومي رؤى. . . ربما تعلمت أن لا أحلم، أو أن الأحلام هي متلازمة الأوهام، وأن المرء ينبغي عليه أن لا يعيش في أضغاث كوابيس ولا نشوة تهيؤات. . . أن أكون واقعيّاً وأن لا أبني قصوراً في الهواء. . . ولكن ثمة تمنيات في حياة كل إنسان قد تسيطر على عقله ولبِّه ردحاً من الزمن دون أن يستطيع التفلُّت من عقالها أو أن يخفف عن ظهره من وطأة حملها.

كان التعرف على جزيرة كريت حلم اليقظة الذي لم يفارقني يوماً في حياتي. والحق يقال: إنني لم أكن أحلم بأن تطأ قدماي أرضها، ولا أن أكحل ناظري ببحرها أو أن أتنفس هواءها أو أشرب من مائها في يوم من الأيام. . . كان مجرد الحلم بأن أزورها ممنوعاً. . . فقد رأيت والدي قد عاش بحسرتها، ومات وهو يذكرها ويتغنى بأمجاد أهله فيها، ولكنه كان يخشى من مجرد الحديث عن العودة إليها أو زيارتها.

كانت قصص المذابح والقتل لا تزال ماثلة أمام عينيه... هما عينان لم تبصرا يوماً لا مجزرة ولا حرباً في الجزيرة، ولكن المهاجرين الذين فرّوا بأرواحهم كانوا يقصّون على الصغار ويلات ما رأوا وشاهدوا ليل نهار، حتى أضحت صور الدماء والأشلاء مطبوعة في ثنايا أدمغة أطفال المهاجرين من دون أن يروا منها شيئاً...

كان والدي يمثّل هذا الجيل... جيل لم يكن يملك حتى جرأة العودة إلى الجزيرة كزائر ليس إلا. كان الهلع يأسر لبَّه بمجرد الكلام عن الذهاب إليها... فجدُّه كان قائد ثورة... أو ربما كان يظن ذلك... كما أن اسم جده كان على رأس قائمة المطلوبين للإعدام... فهو عدو الإنكليز وأحد أكبر المشاكسين المتهمين بإحراق منزل القنصل البريطاني في قندية... ولكن قصة جدك أضحت سراباً من الماضي يا أبي... هيا بنا نذهب معاً إلى جزيرتنا، إلى أرض أجدادنا وآبائهم وآباء آبائهم... نحن أيضاً كنا ندافع عن وطننا بالطريقة التي ظنناها صحيحة... ليس من حق أحد أن يتهمنا بأي شيء... وكيف يجرَّم من وقف يدافع عن بيته وأهله وماله؟!

كان والدي يردُّ عليَّ دائماً بالجملة نفسها: هذا الزمان ليس زماننا، والرياح تمشي بعكس سفننا... حسبنا أن نكون مواطنين صالحين في أوطاننا الجديدة... أن نكبر فيها ونهنأ فوق ترابها، لأنها حضتنا وآوتنا يوم لفظتنا أرض آبائنا

وأجدادنا... دعك من حلمك هذا واحلم بشيء آخر قد يكون أكثر نفعاً أو أقرب إلى التحقيق من زيارة الأرض التي سالت عليها دماؤنا!!!

كانت معادلة صعبة تلك التي نعيشها نحن أحفاد المهاجرين الكريتيين... لأننا كنا نتصادم بين حبٍّ جموحٍ لأرض لم نرها، ولكننا نتكلم لغتها ونطبخ طعامها ونروي قصصها، وبين كره العودة إليها أو زيارتها. كان من الواضح أن عقارب الساعة قد توقفت في أعين المهاجرين عند صبيحة الثامن من أيلول سنة ١٨٩٨م. كانت فظاعة أحداث هذا اليوم وأهواله قد استولت على عقولهم وطبعت ذاكرتهم بسواد لا يمكن محوه أو تجاوزه بأي شكل أو طريقة. الثامن من أيلول هو نهاية العالم بالنسبة للمهاجرين... أما حياتهم بعده فأعجوبة مروية في أسطورة قديمة كانوا يتلونها ليل نهار ويدرِّسونها لأبنائهم حتى لا تُحدِّثهم نفوسهم بمجرد الاقتراب من شبح الموت الذي استوطن أرض كريت بعد أن خرجوا منها وتركوه فيها.

وبالرغم من تمردي على هذه الفكرة، إلا أنني لا أنكر أنها كانت تسيطر على تفكيري وتمنعني من أن أتهور بالتفكير بها في لحظة من اللحظات. قررت أن أبحث عن أي شيء يخبرني عما حدث في كريت... ولكن ضآلة المعلومات وندرة الكتب كانت تحول دون وصولي إلى شيء يذكر...

وفي خضم معمعة البحث التي دخلت إليها راغباً متطوعاً، وقعت في يدي وثائق تتحدث عن اليوم المشؤوم... ذاك اليوم

الذي سمعت روايته من فم والدي مرات ومرات... كان الفرق هذه المرة أن الرواية هي من فم أشخاص آخرين، يروونها كما حصلت يومها بالفعل... لذلك كانت بالنسبة لي صيداً ثميناً واكتشاف أول الخيوط إلى الحقيقة المطموسة لأكثر من مئة عام!!!

قرأت البريطانيين يتحدثون عن انتفاضة في قندية راح ضحيتها قنصلهم كالوكيرينو مع أهل بيته كلهم من قبل متشددين محمديين... قرأت حديثهم عن ثورة عارمة وقتال عنيف بين المسلمين والجنود البريطانيين في جادة السوق الذي ينتهي إلى البحر، وكيف أزهق المسلمون أرواح مئات المسيحيين في قندية وكيف أحرقوا بيوتهم على مرأى ومسمع من الجنود العثمانيين الذين لم يحركوا ساكناً لإيقاف المجزرة!!!

كان لا بد من أن يدفع كل المسلمين ثمن صلفهم ووحشيتهم... كان لا بد من العقاب العلني أمام جميع الناس...

نعم... هكذا اقتيد المسلمون وهم يعتمرون طرابيشهم العثمانية معصوبي الأعين بقماشة بيضاء مربوطة من الخلف، ويدان مشدودتان بوثاق أمام أجسادهم، يمشون بين جنود المملكة العظمى من دون أن يخلعوا جزماتهم الكريتية الطويلة التي تصل إلى مستوى الركبة... هكذا نفِّذ حكم الإعدام بثلاثة محمديين متشددين، كان أحدهم زنجياً شابّاً يدعى (كاكوريذا)، والآخر يقال له (عبدلاكي)، والثالث لم أتمكن من معرفة اسمه...

لقد أُصبت بقشعريرة سرت من رأسي إلى كل جزء من أجزاء جسدي وأنا أنظر إلى صورة فوتوغرافية يبدو أنها التُقِطَت على عَجَل... من مكان بعيد... بعيد عن أعين جنود الدول الكبرى وهي تحيط بشابين مسلمين مربوطين وقد أدير ظهراهما إلى فوهة بنادق عساكر وهم على وشك تنفيذ حكم الإعدام فيهما... أما التهمة فهي المشاركة بمجزرة قندية كما أسموها... هكذا أُعدم حيدر عثماناكي وخليل عارف خالياكي في الساعة الثامنة صباحاً من اليوم الثالث من تشرين الثاني في مدينة خانيا... وهكذا استطاع بهاء الدين، أشهر المصورين في كريت، أن يلتقط هذه الصورة من بعيد ليوثق كيف أُعدم جيرانه في الجزيرة الثكلى بحروب عبثية في تلك الحقبة من الزمن.

هذا إذاً هو المصير الذي كان ينتظر جدي... الآن فقط فهمت سبب خوف والدي من حديث العودة إلى كريت... عرفت الآن لماذا كان يحاول دائماً أن يثنيني عن هوسي في زيارتها... الآن فهمت هواجسه وأسباب قلقه... هذا إذاً هو سر الصراع الذي يعيشه أبناء المهاجرين من جزيرة كريت... هم يتقلبون بين عاطفتين جياشتين... بين حب الوطن وحب الحياة... وهل هناك وطن لا حياة فيه؟؟ أم هل يمكن للحياة أن تكون حقيقية من دون وطن؟!

أسئلة كانت دائماً تبقى بلا جواب... في مجتمع المهاجرين!!!

القرار

قصص من الماضي تزدحم مخيلتي بها... ومفاهيم متضادة تتصارع داخل عقلي. صحيح أن نسيان الأسى مستحيل، وأن الوصول إلى عالم لا حقد فيه ولا غل أمر مستحيل أكثر... فنحن نعيش في عالم تحكمه الغرائز على أنواعها. أما فصيلة البشر فهي أكثر المخلوقات فيه صلفاً وتيهاً وظلماً... علَّمتني السنوات أن الذين ينتصرون على شهواتهم قليلون، وأن المنقادون وراء رغباتهم كثيرون.... رأيت أن التباغض والتباعد أمر يسير، بينما إفشاء السلام وتعميم الحب أمر عسير... لمست جهلاً خفيّاً يستتر وراء غيوم تديُّن زائف أو شهادات معلَّقة على جدران، بينما أدركت حكمة رجال بسطاء باعوا نفوسهم لله لا يبغون من هذه الدنيا جاهاً ولا مالاً. أصبحت لا أرى في الأشياء إلا ضدها، حتى صرت أسير البحث دائماً عن خلفيات الأمور وما ورائياتها...

كانت نفسي تتوق إلى هدم حائط الخوف الذي شيَّدَته سنوات من استذكار العذاب ومشاهد القتل والتهجير في مجتمع المهاجرين... ولكنني كنت في المقلب الآخر حبيس أفكار والدي لا أستطيع التفلُّت منها بأي شكل من الأشكال...

شعرت أنني أمام امتحان أقدمه لذاتي. . . فأنا بطبعي لا أميل إلى تذكية شحناء ولا إلى إثارة ضغينة. . . بل على العكس من ذلك كله، فقد كان كل همي على امتداد سنوات غربتي عن بلدي أن أبني الصداقات مع الناس وأن أحاورهم في ما علق من مبادئ ونظريات. . . تعلمت كيف أتقبل أفكاراً مناهضة لعقيدتي وإيماني من دون أن أكره من يؤمن بها أو يناقشني بصدقها. ولعل ذلك هو القصد من وراء اختلاف الناس، فلو شاء الله لجعلهم أمة واحدة. . . ولكن الاختلاف هو في باطنه نعمة حوَّلها بنو البشر إلى نقمة ما بعدها نقمة. . .

هكذا كان لا بد من أن أتخذ القرار. . . قرار العودة إلى الوطن الذي هجره جدي وهو طفل صغير. . . قررت أن أعود إلى المكان الذي خرج منه جدي باكياً وأنا أحمل في يدي وردة وعلى وجهي ابتسامة. . . قررت أن أعود مئة عام إلى الخلف لأنظر بمنظار الحب والقلب لا بعين الكره والانتقام. . .

لم أكن متأكداً من نجاحي أمام نفسي. . . فقد لا أكون قادراً على أن أخلع أثر الذكريات من عقلي وكياني. . . إلا أنني قررت المحاولة، وقررت أن أخوض غمار هذه التجربة بمفردي، فعزمت الأمر على زيارة جزيرة كريت وحيداً، لأطلق فيها العنان لباطني علِّي أكتشف ما يدور فيه، وأنبش ما استتر منه من خفايا وأشجان. . .

صديقي نيكوس

كان نيكوس تسوفالاكي هو الشخص الذي سيعبِّد الطريق أمام أحلامي ليجعلني أتجاوز الخوف وأكسر حواجز الرهبة التي ورثتها عن أبي وجدتي لزيارة كريت. لقد رمته الأقدار في دربي فتعارفنا عبر صديقة مشتركة كان لها فضل كبير في تسهيل المهمة التي لطالما كانت تبدو مستحيلة. كان نيكوس لطيفاً وودوداً... وكنا نتحادث ونتسامر ساعات وساعات عن كريت... ولجنا إلى عالم التاريخ وتبادلنا نظريات وأفكاراً... كان نيكوس هو الرجل الموجود على الضفة الأخرى، فجدُّه حارب العثمانيين وشارك في الثورات التي انتهت إلى إخراجهم من الجزيرة. كان لا يخفي حبه لنا نحن المهاجرين الكريتيين المسلمين، ولكنه في الوقت عينه يعتبر أننا دفعنا ثمن الوقوف إلى جانب المحتل لجزيرة لم يستطع أحد أن يطوعها على مرِّ التاريخ... كان صديقي الكريتي فخوراً بتاريخ أجداده وبطولاتهم في مقارعة الترك وإلحاق الهزيمة بهم، بينما كنت أنا أيضاً أفتخر بأجدادي الذين لم يهزموا أبداً في أي معركة في جزيرة كريت، وإنما خرجوا منها بعد عقد الصلح على طاولة المفاوضات... كم اختلفنا على أمور

تاريخية كثيرة! ولكننا كنا نتفق على حقيقة مهمة هي حب كريت وكل ما يمت لها بصلة.

لقد كنت متيقناً أن صديقي هذا يتمتع برؤية أوسع من القومية، وفكر أرحب من التعصب الديني الضيق. لمست تديُّنه المسيحي في كل كلمة يقولها، كما أدرك هو أيضاً تعلُّقي بإسلامي في كل خطوة أمشي بها في حياتي. كان أجمل شيء في علاقتنا هذه أنها كانت تتوطد يوماً بعد يوم، لدرجة أني وصلت بعد ذلك إلى قناعة أن نيكوس هو الإنسان الذي أستطيع بكل بساطة أن آمنه على روحي، وشعرت برغبة جامحة إلى لقائه على أرض كريت، فهو النصف الآخر من القصة المفقودة التي كنت أبحث عنها...

الكريتي لا يعرف الخوف... والوهم لا يمكنه مجالسة الكريتي أكثر من خمس دقائق... الكريتي يتغلب على كل شيء، حتى الهزة الأرضية وزلزلتها لا تخيف عجوزاً كريتيّاً واحداً... كريت هذه هي مزيج بين قطعة من فردوس الإله أرسلها إلى الأرض نموذجاً للسحر والجمال، وبين قطعة أخرى من جهنم بتضاريسها المخيفة والوعرة... هكذا كان يقول نيكوس... لذلك أيها الكريتي الشاب، دعني لا أبوح لك بسرٍّ إذا أخبرتك أن الرجل الكريتي هو خليط بين صلافة ورعونة وقساوة لا نظير لها على وجه الأرض، ولكنه في الوقت ذاته يحمل بين أضلاعه قلباً رقيقاً وفي وجدانه حنيناً دافئاً ونعومة تفوق براءة طفل رضيع... لن يفهم الكريتي إلا

كريتي مثله يا بني... وأنا قد وصلت إلى أعماق قلبك وعقلك، وأدرك جيداً ما يدور في خلدك... أنا من الآن وصاعداً أبوك الذي بقي في كريت... تعال إليَّ كلما اشتقت إليه أو أردت أن تسامره أو تشاركه في فكرة أو في عبرة. أنا هو النجم الذي سينير دربك إلى أرض أجدادك... هيا احزم متاعك وتهيأ للعودة إلى الماضي... فأنا أعدك بلقاء صور غابت عن عينيك سنوات وسنوات... ستجدها عندي هنا في كريت... في كل شبر من المدينة القديمة في خانيا ورثيمنو وإيراكليو وسيتيا وسفاكيا... وسنشرب نخب عودة حفيد المهاجرين إلى وطن جده مع أصدقاء كثيرين... ضحكت من كل قلبي وأنا أقول له: قد اتخذت قراري أيها العجوز، فأنا قادم إليك، وسأشاركك في كل ما تريد، ولكن دعني من نخب العودة هذا، فهو لا يناسبني... حسبي أن أكون سائحاً لطيفاً يجوب في الشوارع القديمة لجزيرتك، ينهل من كل ما تقدمه له من ذكريات ومشاهد عتيقة، وتعيده إلى عالم خفي مكنون لم تلوَّث صفحاته بآراء أو تفاسير... سآتي إليك كما يأتي الطفل إلى حجر أمه وأبيه، سأسألك عن كل شيء، ولن أدعك تعرف طعم الصمت طالما أنني بجانبك... فعدني أن تكون صبوراً على تحمُّل طفولتي، وأن تتفهم تقمصي لروح جدي الذي غادر الجزيرة وعمره سبع سنوات ليس إلا... أريد أن أقف حيث وقف، وأن أشاهد كل ما كان يراه، وأن أسلك كل الدروب الضيقة التي مشى فيها...

هل تعدني أنك قادر على مماشاة طفل أيها العجوز الهرم؟؟؟

كعادته جاء الرد ساخراً من صديقي الكريتي: عندما تلقاني ستعرف من يكون العجوز الهرم... الكريتي يُخلق شابّاً ويموت شابّاً أيها الجاهل... تعال إلى هنا وسأريك فتوة العجائز الكريتيين... سأصطحبك إلى سفاكيا لترى أنك لا تستطيع مجاراة كريتي تسعيني في أي شيء... من عاش يشرب من مياه كريت ويتنشق هواءها ويأكل من أرضها هو حتماً قادر على مواجهة الموت ومصارعته...

هل تفهم ذلك أيها اللبناني؟؟؟ هل تفهم ذلك؟؟؟

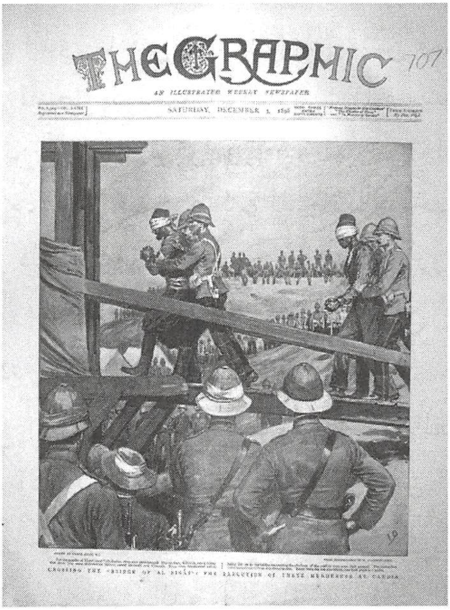

مشهد سوق المسلمين للإعدام

وبدأت الرحلة

جلست مع عمي عبد الله، وهو العم الأكبر ممن بقي على قيد الحياة، بعد أن غيَّب الموت عمي عبد الحميد عام ١٩٨٩، ثم والدي إبراهيم عام ١٩٩٣، ثم عمي الأكبر أحمد عام ٢٠٠٨، وشرعت أسأله عن كريت... الوطن الأم... ذلك المكان المختلط بين الوهم والحقيقة في مخيلتي... أنا الطفل الصغير الذي ما فتئ أبوه يذكر له بعينين ممزوجتين بدمع القهر والظلم قصص كريت، الوطن الذي أُجبرت عائلتنا على تركه مع كثيرين آخرين، تركوا وراءهم الأرض والحجر وشجر الزيتون والكرم، على عجل عجال للنجاة بأرواحهم التي هانت ورخصت في ذلك الزمان السيئ، وما عاد للأرواح معنى ولا قيمة... إنه وقت السلاح وزمن الانتقام لتاريخ لم يكن لأحد من عائلتي دور في كتابة سطر واحد منه.

الذنب كل الذنب أننا كنا مسلمين، وأن القرار قد صدر بإنهاء الوجود الإسلامي في كريت بأي شكل من الأشكال.

حدثني عمي، وكان قليلاً ما يتحدث عن كريت، عن جزء يسير مما سمعه من فم والده وما علق في ذهنه المتعب بسنين الكدِّ والجهد والعمل، عن جدِّنا عبد الحميد ووالده حسن، أو

بسيرا حسن، أي الشاطر حسن كما كان يحلو للكريتيين أن يلقبوه. . . الذي كان يعمل في التجارة المختلفة من بيع الزيت والزيتون إلى قطاف العنب عالي الجودة، وهو ما اشتهرت به أرض كريت قديماً ولا تزال تشتهر بالأصناف نفسها حتى يومنا هذا. . . لقد كان جدُّنا حسن كثير التجوال والترحال، وكان دقيقاً جدّاً في تجارته وبيعه، لدرجة أنه لُقِّب بالشاطر حسن أو بسيرا ساين، (بسيرا كلمة يونانية تعني شدة الدقة، وهذا اللقب يفيد أن صاحبه لا يترك شيئاً من دون أن يقيم له حساباً دقيقاً)، وكان يعود بربح وفير إلى منزله الذي كان قريباً من إحدى القلاع أو الحصون في كريت.

ظننت نفسي قد فككت اللغز بحصولي على هذا المعلم المحدد، لقد عرفت الآن أين كان يسكن جدي في كريت!!! حصن وقلعة في الجزيرة اللغز. . . .سأجد الحصن هذا وسأدخل إلى بيت جدي ولو بعد مئة سنة!!! قلت لعمي: زدني. . . .قال: يا ابن أخي، قد وهنت ذاكرتي وضعفت، ولكن أذكر أن والدي حدثني مرة عن بطل كريتي، دافع عن وجودنا هناك، وحارب لنبقى في وطننا وديارنا، إنه (علي بومبازي أو علي أبو القنابل). . . لقد كان ماهراً في صنع القنابل اليدوية، وكان بارعاً في نصب الكمائن وزرع الأفخاخ، وقد حارب ببسالة وشجاعة حتى أنهك عدوَّه وأضناه. لقد كانت المرة الأولى التي أسمع فيها عن هذا الشخص الرمز بالنسبة للكريتيين المهاجرين. . .ثم أردف قائلاً: إن عليّاً هذا

بطل كبير، وله نصب في إزمير، وعيد قومي سنوي يذكرونه فيه ويرددون بطولاته وخوارق عاداته. نعم، إنه بطل قومي تركي من جزيرة كريت، شارك في حرب التحرير في إزمير وكان مع رفاق سلاحه أسطورة مزعجة أقلقت أعداءه وأقضّت مضاجعهم فترة طويلة من الزمن.

قلت له: وماذا أيضاً؟ قال: إنه العمر يا ابن أخي... وسأحدثك عن أي شيء آخر عندما أتذكره... أما الآن، فقد خانتني ذاكرتي ووهن لساني عن أن أقول أكثر مما قلته... هكذا انتهى اللقاء مع عمي ليلة أن قررت السفر إلى كريت.... إنها ليلة المغامرة إلى الجزيرة اللغز... سأعود إلى كريت، ولو لأيام يسيرة وقليلة، ولو بصفة الزائر والسائح، ولكن لن أدع لمخيلتي أن تتحكم بذهني بعد اليوم. سأذهب لأرى الحقيقة بنفسي، وأطّلع على أرض جدي بعين الحقيقة لا الخيال...كنت مصمماً على ذلك بكل عزم وقوة....

ها قد حان وقت الرحيل... فخرجت صرخة مدوية من أعماق روحي وعقلي تقول: أنا قادم يا كريت...انتظريني يا خانيا وإيراكليو وريثمنو وسيتيا وسفاكيا...أنا قادم إليك!!!

مرَّ عليَّ ليل السفر طويلاً كما لم أعهده من قبل... تخيلت جدي عليّاً الذي أحمل اسمه صبيّاً صغيراً يجري في أزقة قندية وخانيا، يجمع الصدف من شواطئ الجزيرة التي لا تعرف حدوداً وليس لها نهاية، ينادي أصدقاءه حسن وإسماعيل ومصطفى... رأيت جدي الأكبر عبد الحميد يصطحب عليّاً

الصغير إلى مسجد الشاطئ أو يالي تزاميسي، كما يسميه الكريتيون المحليون، رأيتهم جميعاً يصلون في صفوف منتظمة وراء إمام يقرأ القرآن بلغة عربية ركيكة ترافقه أصوات الموج المتلاطم على الصخور، وزقزقة عصافير النورس التي لا تريد أن تهدأ ولا أن تستريح... سمعت صوت جدي يناديني من بعيد، يسألني عن السبب الذي يجعلني أجلب الحزن إلى قلبي الذي لا يحب الاقتراب إلا من كل ما يدميه ويزعجه، وعقلي الذي لا يمل البحث عن الأشجان والمواجع، ومخيلتي التي لا تفارقها أصوات الموتى الراحلين إلى العالم الأزلي وصورهم القلقة الحائرة وخطواتهم المتعثرة على دروب الدنيا الضيقة الوعرة.

سألني جدي: لماذا كريت يا ولدي؟! هي أرض لم تعد لنا، وليس لنا فيها ما يدفعنا إلى مجرد أن نفكر بالعودة إليها... لقد خرجنا منها محزونين مضطربين، بين هلع الرجال وبكاء النساء وعويل الأطفال... لا ترجع إلى الماضي يا ولدي، فلن تجد فيه ما يسر قلبك الصغير ولا ما ينعش خيالك الحائر. إنها حرب أتت على كل شيء جميل، قتل فيها الجار جاره، وسرق الرفيق مال صديقه، واستولى اللئام على الشوارع فهانت الأرواح وأُزهقت النفوس... لا ترجع إلى هذه الأرض يا بني، فوالله ما آمنك فيها على نفسك ومالك ودينك... قلت: مهلاً مهلاً يا جدي، فوالله لقد لحقني منك ظلم كثير، أورثتني اسماً يميزني عن كل من هو حولي،

ومنعتني أن أعلم من أي أرض أتيت، وفي أي مدينة كنت، وأي درب سلكت... خفت عليَّ من أن تحدثني نفسي يوماً بالسؤال عنك، فلم تترك لي أثراً مكتوباً أو صورة معلومة، كل ما وصلني منك هو أننا مسلمون، نجونا بديننا من القتل، وتفضَّل علينا خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد بمال وبيت وأرض في بلد جديد، أمنّا فيه وغنمنا منه، هو وطننا وسكننا وليس لنا مكان غيره... قلت لي إننا مهاجرون، ومدحت الهجرة والمهاجرين، وأكثرت من تعظيم أمرهم وشأنهم حتى أصبحت لا أفرقهم عن المسلمين الأولين الذين هاجروا بدينهم أيضاً من مكة إلى المدينة، وتركوا وراءهم كل ما ملكوه وصنعوه وغنموه في كل عمرهم... قلت دائماً في نفسي: هذه تشبه تلك، نعم هذه تشبه تلك...

كان هذا ما يخفف عني حزني الدفين في أعماق قلبي ووجداني، ولكن الأسئلة في عقلي كانت تتلاحق بوتيرة عجيبة، لا أكاد أدفع واحداً منها حتى تنهال عليَّ عشرات ومئات أخرى... والورطة كل الورطة أنني كنت لا أجد لواحد منها جواباً ولا تعليلاً.

لماذا تفرَّق المهاجرون الكريتيون بين تركيا وسوريا ولبنان وليبيا ومصر؟ لماذا بقيت قصتهم دفينة صدور الأموات ولم تعرف سبيلاً واحداً يخرجها من ظلمة المجهول إلى نور الحقيقة؟ لماذا خان الجار جاره؟ لماذا قبل الصديق أن يظلم رفيق عمره وشريك بلده ووطنه؟ من كان الكاذب ومن كان

الصادق؟ من الظالم ومن المظلوم؟ هل كنا أجانب مستوطنين في الجزيرة؟ هل كنا محتلين في بلدنا؟ هل كان هذا البلد أصلاً لنا؟؟ لماذا لم يسأل أحد عن قصتنا؟ لماذا لم يصل صوتنا إلى أي مكان وبقي حبيس الألم والنحيب والخوف؟؟

قاطعني جدي قلقاً ومضطرباً، قال: لا تكثر من ظلمي يا ولدي، فوالله ما عرفت موطناً لي غير هذه الجزيرة، ما ظلمت فيها أحداً أبداً، ولم أتعدَّ على ملك أحد ولا على عرض أحد ولا على ولد أحد... لم أدرِ ماذا جرى؟ كانت قضية أكبر من أن يعلمها رجل لا يعرف القراءة والكتابة، ولا يتابع الأنباء من الصحافة العالمية ووكالات الأنباء الأجنبية... هذه أشياء لم تكن موجودة بين أيدينا يا ولدي، كنا نطيع أمر ولي أمرنا، نثق به ونتكل عليه... إلى أن جاءنا يوماً ليخرجنا من بلدنا لوقت قليل خوفاً على أرواحنا وحفظاً لها من أن يصيبها مكروه... وعدنا بالعودة إلى الدار والأرض والبذور التي تركناها في رحم أراضينا لعلنا نأكل ثمرتها... ولكننا ما عدنا إليها أبداً... بل بقينا نمنّي أنفسنا بالعودة حتى وصل نبأ وفاة السلطان العظيم... حينها شعرنا أن الأمنية باتت صعبة المنال، فصاحب الوعد قد ذهب إلى عالم الأرواح، لقد مات السلطان عبد الحميد، مات الوعد ومات الحلم، وذهبت كريت في نعش السلطان إلى لحد غوره عميق... إلا أن الحلم بالعودة بقي يراودنا ولو بأمل ضعيف حتى أعلن العالم كله وفاة الدولة العلية العثمانية، تلك الدولة التي سندنا ظهورنا

إليها واعتمدنا كليّاً عليها في يوم من الأيام. . . تلك الدولة التي عشنا في كنفها أعزاء أقوياء في وطننا كما في غربتنا، تلك الدولة التي ذهبت في لحظة من لحظات التاريخ، تاركة وراءها إرثاً ثقيلاً من شعوب إسلامية كثيرة منتشرة في كل أرجاء أوروبا. . . من دون سند أو معين. . . هنا عرفنا قيمة السلطان يا ولدي، عرفنا أنه بذل ما استطاع لينقذ القضية. . . وكيف يستريح ولي أمر المسلمين وهو غير قادر على حمايتهم وهم يساقون إلى أخاديد الذبح والتصفية؟؟؟ وكيف تنقذ القضية من دون أن تنقذ من يبقيها حيَّة؟؟؟ وكيف تنتقل تجربة الماضي إلى عالم الحاضر من دون شاهد ينقلها أو محدِّث يخبر بها. . . هذه قضيتنا يا ولدي، قد حملنا منها ما استطعنا، وأوصلنا منها ما وصل إليكم. . . إنها ليست قضيتكم وحدكم، إنها قضية كل المسلمين في أوروبا والعالم. . . لن أقف أمام ما تريد البحث عنه يا ولدي، ولكن الحقيقة واضحة وجلية، والمسألة لا تحتاج إلى تدقيق ولا إلى تنقيب، ولا تحتاج حتى أن تذهب إلى كريت، فما الذي ستجده هناك؟ أجيال جديدة ووجوه غريبة. . . لا يعرفون عنك شيئاً ولا يهتمون بأصلك ولا بفصلك. . . وماذا عساهم يعرفون؟ ومن روى لهم القصة وحكى لهم الحكاية؟ وهل هم مسؤولون عما حصل قبل ما يزيد عن مئة عام؟؟؟ راجع حساباتك يا بني، ودع عنك عناء السفر، ولتبقَ مع عيالك وبين أهلك في وطنك. . . فهذا هو وطنك وهذه هي أرضك. . .

خفت صوت جدي حتى ما بقي منه شيء، كنت أريد متابعة الحديث معه، ولكن هذا هو علي عبد الحميد بكراكي الذي ولد وترعرع في كريت، هو أيضاً حلم مات قبل ولادتي بعشر سنين، فأودعني والدي اسمه، وسلَّمني أمانة حمل حكايته وحفظها من الضياع والنسيان... قلت في نفسي: والله إني ذاهب يا جدي ولن يثنيني عن الذهاب إلى وطنك أحد... إنه التاريخ يا جدي، ولن يستطيع طمسه أحد...إنني لا أريد ظلماً ولا اتهاماً لأيٍّ كان في أي مكان كان، ولكن لن أدع الخوف والقلق يضعفان عزيمتي... فأنا لا أريد إلا أن أمشي على الأرض التي مشيت عليها، ولا أحلم إلا برؤية ما شاهدته عيناك من سماء وماء وجبال ووديان، ولا أمنّي نفسي بأكثر من إيقاظ الذكريات العابرة وتجديد حيويتها وبث الروح فيها من جديد... إنه حقي يا جدي أن أجلس مع أولادي لأحدثهم عن ما شاهدته عيناي ولامسه وجداني وأحسه قلبي... إنه حقي وحق أبنائي يا جدي... فأرجوك دعني أنفذ رغبتي، واقبل عذري واعتذاري عن عنادي وإصراري، فهاتان صفتان ورثتهما عنك بالأصالة، أنت الذي علَّمت والدي إبراهيم أن صاحب الحق سلطان، والساكت عن الحق شيطان...

أغلقت عينيَّ المثقلتين لأستسلم للنوم بعد أن ودَّعت جدي وعاهدته أن أعود إلى قبره في لبنان فأقص عليه ما رأيت وما سمعت في كريت، وأن أعرِّج على قبر والدي ومعلمي إبراهيم، فأنثر عليه حفنة من تراب كريت، فهو الذي غرس في

قلبي لوعة وطن الأجداد وحسرة من أتى بعدهم من الأحفاد...

انقضت ساعات النوم لحظات تلتها ومضات وجدت نفسي بعدها أحلّق في سماء اليونان من أثينا إلى كريت... كانت الطائرة تحلّق على ارتفاع منخفض، فهي طائرة صغيرة تقل عدداً قليلاً من الركاب من مطار أثينا الدولي إلى مطار داسكالويانيس في خانيا... كنت أراقب كل يابسة تظهر أمامي، وأمنّي نفسي بمشهد جوي للجزيرة الحلم... كنت على مسافة خمسين دقيقة تفصلني عن كريت... ولكنني كنت لا أزال أحلم... فأصوات الركاب الذين يتكلمون اللهجة الكريتية قد أعادتني إلى أيام الطفولة، يوم كنت ألعب في أزقة الحميدية في سوريا، وكان أبي يرقبني من بعيد، حتى إذا أيقن أني فرغت، اصطحبني إلى مسجد القرية لنصلي صلاة المغرب مع المهاجرين الكريتيين الذين كانوا يشكلون أغلبية سكان القرية آنذاك... فجأة تذكرت صوت ذلك الكريتي العجوز الذي كان يداعبني خلال الصلاة بوكزة من هنا وركلة خفيفة من هناك... لم تكن الصلاة تهمه بقدر ما كان يهتم بإفراح علي الصغير، هذا الطفل الكريتي الذي سيصبح رجلاً في يوم من الأيام... كنت أزجره على أفعاله بعد نهاية كل صلاة، وكان دائماً يرد عليّ بضحكات طوال غير مكترث بتحذيراتي نهائيّاً، ويخاطبني باللغة الكريتية مع علمه بأنني كنت لا أجيدها... ثم وثبت بي الذاكرة إلى تلك الحلقات الدائرية

التي كان المهاجرون الكريتيون من الكبار والعجائز يجتمعون فيها مع من أراد مرافقتهم من الشباب والصغار. . .كنت دائماً ذلك الصغير الذي يجلس بجوار والده في هذه الحلقات التي لا يتكلم فيها أحد غير الكريتية، أضحك لضحكات والدي وقهقهاته التي لم أعتد أن أراها تصدر منه في مكان غير هذا المكان. . . يبدو أن أبي كان لا يعرف طعم الفرح الحقيقي إلا بين الكريتيين، وكان لا يضحك لفكاهة أو دعابة مثل ما كان يفعل عندما تروى عليه باللهجة الكريتية!!!. . . كانت ضحكاته تفرحني غريزيّاً بطريقة أعجز عن وصفها. . . فبالرغم من أنني كنت لا أفقه شيئاً مما يقولونه، إلا أنني كنت أرفض مغادرة هذا المجلس الذي كان يطول أحياناً لعدة ساعات. . . هو إذاً حنين غابر وذكريات قديمة تفجرت في سماء كريت قبل أن تطأ قدماي أرضها!!!. . . لم أكن أدرك ما الذي يتحرك في داخلي وما معنى كل ما يجري، ولكنني كنت أعرف أنني قد اقتربت من كريت كلما تسارعت دقات قلبي وانحبست أنفاسي أكثر فأكثر. . .

فجأة أحسست بقلبي يمزق القفص الصدري ويخترقه منطلقاً إلى المجهول. . . ها هي كريت، إنها هي. . . ها هو الحلم يصبح حقيقة. . . بدأ رأسي يدور بشكل هستيري يحاول الخروج من نافذة الطائرة الضيقة، ليشاهد كل كريت، ويطبع في دماغي المشهد الحقيقي الأول للجزيرة الحلم. . . ولكن الطائرة شرعت سريعاً بالهبوط، ولم يكن هناك مجال لأشاهد

أكثر مما رأيت... حاولت السيطرة على مشاعري وأحاسيسي من دون جدوى، فلم تقبل عيناي إلا أن تذرفا دموع الحسرة على كل شيء مضى، وامتزجت آلامي كلها حتى ما عدت أستطيع أن أفرّق بينها... ولكن ما هي إلا لحظات قليلة حتى انقشع الضباب وظهر الألم الأكبر في حياتي واضحاً وجليّاً... فتّشت حولي بحركة لا إرادية عن يد والدي لأمسك بها فننزل معاً لنطأ أرض كريت، ولكن أبي كان قد فارقني منذ زمن بعيد، وكان عليَّ أن أدخل الجزيرة وحيداً بمفردي...

لا... فلطالما وجدت حلاًّ لهذه المسألة... وبأبسط الطرق أيضاً... من غير تكلُّف ولا تصنُّع... فها هو لساني ينطلق من جديد، وها أنذا أحادث والدي ويحادثني مثل أي خليلين يتسامران في ليلة اكتمل بدرها وصفت سماؤها... سندخل سويّاً إلى كريت، أليس كذلك؟... جسدي وطيفك.... فلا تكترث... سيكون طيفك معي لحظة بلحظة، وساعة بساعة، وسأحدثه مراراً وتكراراً حتى لا يملَّ من صحبتي فيغادرني... نعم لقد وجدت الحل... هذا هو الحل!!!

حطت الطائرة في مطار صغير في سودا باي في خانيا... كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ظهراً بقليل... كان الجو صافياً والسماء شديدة الزرقة... وكان الربيع في أواخر أيامه يحاول أن يرحب بالضيف الجديد على طريقته... أرسل نسيمه ليقول لي أن حللت أهلاً ووطئت سهلاً في أرض

أجدادك أيها اللبناني الكريتي... كان صوت الطبيعة يعطي مشهد اللقاء الأول بين الحبيبين... شاعرية لا مثيل لها... كان كل شيء يدعوني إلى التأمل والمراقبة، ولكن كان لا بد من دخول مبنى المطار لإجراء ما يلزم للدخول إلى الجزيرة... كما أن صديقي نيكوس كان بانتظاري، وكان لا بد من الوصول إليه بأسرع وقت ممكن...

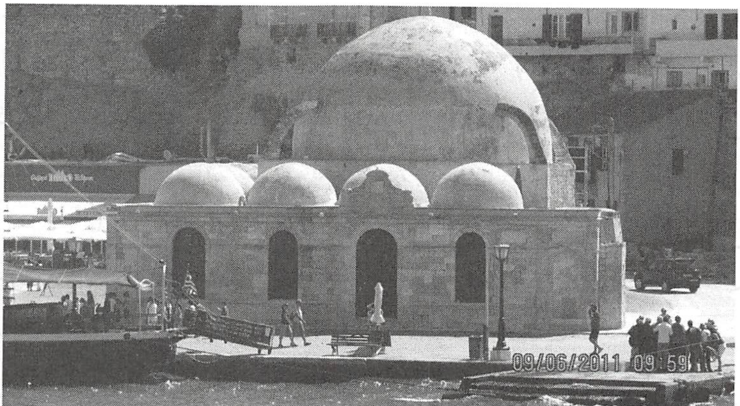

صورة حديثة لجامع يالي تزاميسي

٩ حزيران ٢٠١١
أول يوم في جزيرة كريت

نيكوس، رجل كريتي معتدل القد والقامة، في منتصف العقد السادس من عمره... أسدل تحت ذقنه لحية بيضاء كثة... كان يقف صلباً رافعاً رأسه مثل أي كريتي شامخ... نظر إليَّ بعينين خضراوين واسعتين، أرهقهما العمر وأتعبتهما التجارب القاسية في الحياة حتى صارتا محاطتين بتجاعيد كثيرة... مدَّ إليَّ يده مصافحاً... كانت المرة الأولى التي نلتقي فيها بعد أن تسامرنا طويلاً عبر الإنترنت، وصار كل واحد منا يعرف الكثير عن الآخر، حتى لربما أدق تفاصيل حياته... كنت أعلم أنه فقد زوجته منذ ثلاثة أعوام بسبب مرض عضال فتك برئتيها، وأن الموت خطف شقيقة زوجته ووالده في العام نفسه، وأنه خضع لعدة عمليات جراحية في القلب والأمعاء وغيرها، كما كان يعاني من ارتفاع السكر في الدم ... ببساطة، كان رجلاً ملاحقاً بأتراح الحياة ومشقاتها، ولكنه كان شامخاً لا يخاف الموت ولا يهابه، ويتعامل مع الحياة بإيجابية المجبر على خوض معركة والفوز فيها...

رحَّب بي صديقي نيكوس، ثم ركبنا سيارته قاصدين خانيا،

المحطة الأولى في هذه الزيارة... كان بيننا حاجز جليد طبيعي وددت أن أذيبه بالضربة القاضية، فبادرته بالقول ممازحاً: كيف وجدتني أيها الكريتي العجوز؟ هل تراني مختلفاً عن ما كنت أبدو عليه خلال التخابر المرئي من بعيد؟؟؟ تلقف صديقي هذه الدعابة فرد عليَّ سريعاً: بل أنت تبدو أفضل مما كنت أتوقعه أيها الشاب الكريتي... شكرته بابتسامة عفوية شرع بعدها يشرح لي جغرافية الجزيرة وطبيعتها... ثم ما لبث أن ركن سيارته جانباً ودعاني إلى تناول القهوة اليونانية في مقهى كوكوفاغيا Koukouvagia، الذي يقع على هضبة تطل على خانيا من بعيد... كان المنظر خلاباً والجو رائعاً... تناولنا الحلوى الكريتية زومرو Zoumero مع فنجان ساخن من القهوة، ثم قمنا لنتابع المسير باتجاه المدينة القديمة... المكان الذي كنت أحلم برؤيته منذ زمن بعيد.

كانت كريت هادئة جدّاً، وكان صديقي يقود سيارته ببطء شديد، فقد لاحظ أني كنت أريد رؤية تفاصيل كل شيء فيها، فلم يحرمني هذه المتعة... كنت أقرأ أسماء الشوارع والأزقة كلها، واحداً تلو الآخر... كم كنت سعيداً بأسماء الشوارع التي كان معظمها شبيهاً بكنيتي، فهذا ما يميز أسماء معظم الكريتيين عن باقي اليونانيين... كنت أتلفَّت يمنة ويسرة بسرعة جنونية، ولا أنبس ببنت شفة... إلى أن اخترق صوت نيكوس جدار الصمت الرهيب الذي كان يخيم على المكان قائلاً: انظر أيها الشاب، ها هي كريت... كل شيء فيها

مختلف عن العالم، كل شيء عندنا مميز، له طعم خاص ونكهة فارقة... حاول أن تفهم كريت... تطبَّع بطباعها... اترك نظام حياتك السابق وتأقلم مع نظام كريت!!! كريت جزيرة هادئة جدّاً بطبيعتها الخلابة وجمالها الفائق... شعبها طيب وكريم ومضياف، ولكنه أيضاً عنيد المراس وعصبي المزاج، لا تعلم متى يثور ولا متى يهدأ... جاوبته مبتسماً: أنا أعرفهم جيداً يا سيدي، وما من داعٍ لتشرح لي خصائص الكريتيين... ولكن الذي لم أستطع أنْ أجد له تفسيراً منطقيّاً واحداً هو أنه كيف يمكن لشعب يعيش هذه الحياة الهادئة والجميلة أن يكون عصبي المزاج وصعب المراس؟؟؟ جاوبني صديقي ممازحاً: ألم أقل لك إننا مختلفون؟ إن بين جموح الحب وشراسة الكراهية خيط رفيع جدّاً أيها الشاب، ونحن الكريتيين متطرفون في مشاعرنا وأحاسيسنا.... تلك هي ميزتنا، ومن الأفضل للناس أن يقبلونا كما نحن، فالكمال لله وحده، وإن كنت أظن أن الكريتيين هم أقرب الناس إلى الكمال... قلت: لن أجادلك في هذا أيها الكريتي العجوز، لأن الحكم في هذا الأمر يعود للناس وليس لي، ولكن تواضعك أخجلني وحيادك أدهشني... إلا أنني لا أخفي عليك أني أحببت طريقة كلامك وأسلوبك... عاجلني بالمقاطعة قائلاً: يا رجل... أنا كريتي... ولا يمكن إلا أن تعجب بي... وستثبت لك الأيام القادمة صدق قولي وسبب ثقتي بنفسي...

تابع صديقي القيادة نزولاً إلى الشاطئ الذي يحيط بالجزيرة من كل حدب وصوب... كنا كلما اقتربنا من خانيا، تلك المدينة التي يقطنها اليوم حوالي مئة وخمسين ألف نسمة، ازداد توتري وخوفي وقلقي... فأنا على موعد قريب جدّاً مع التاريخ... إنه يدنو مني بسرعة مهيبة لم أعتدها ولم أحسب لها ذلك الحساب... لاحظت أن أشجاني بدأت تستفيق من سبات قديم، وأن لوعة قلبي عادت تتحرق من جديد.... لم أدرِ ما الذي دهاني فجأة... لقد كان صديقي يتوجه إليَّ بكلمات لم أكن أسمعها... كنت أتظاهر بمتابعة حديثه بحركات رتيبة من رأسي توحي بأنني مدرك تماماً لما يقول، ولكن الحقيقة أنني كنت في مكان آخر... نعم أنا في خانيا القديمة... مدينة السحر والجمال... مدينة الشواطئ الرملية والصخرية... مدينة المياه التي لا مثيل لزرقتها وصفائها وشفافيتها... مدينة التاريخ الذي يحكي حكايات كثيرة بالرومانية والعربية والإيطالية والتركية واليونانية... كنت لم أزل أعاني من هذه الغيبوبة الغريبة... إنني أسمع وأرى ولكنني كنت لا أدرك....

انتبهت أخيراً إلى صوت صديقي يخبرني بأنه قد حجز لي غرفة في فندق لوسيا الذي يطل على الميناء القديم للبلدة... مرفأ بناه البنادقة ورممه العثمانيون وأضافوا إليه.... فقد اتخذ العثمانيون خانيا عاصمة للجزيرة في وقت من الأوقات، واعتمدوا على هذا المرفأ بشكل أساسي، ومن هذا المرفأ ذاته

خرج معظم المهاجرين الكريتيين المسلمين بقوارب صغيرة إلى البواخر العثمانية التي كانت تنتظرهم في عرض البحر... قال لي صديقي: هكذا خرج جدك من هنا أيها الشاب الكريتي!!!

لم أعلّق على هذا الحديث بتاتاً... فأنا لم أزل أعاني من تداخل الأصوات واللغات في رأسي... حملت أمتعتي وتوجهت إلى غرفتي مع صديقي الذي سارع إلى فتح باب الشرفة... دعاني إلى الخارج قائلاً: تعال أيها الشاب، تعال وانظر... من هنا خرج جدك، وهنا أقام آخر صلاة له على أرض كريت... كانت يده تشير إلى مسجد الشاطئ أو يالي تزاميسي.... في الحقيقة، إنه مسجد حسن باشا ليس إلا... وصرخت قائلاً: ولكن ما هذا المسجد الغريب؟؟ أين مئذنة الجامع؟؟ ماذا فعلوا بها؟؟؟ وتداركت نفسي قليلاً ثم قلت: غريب هذا المسجد، ولماذا بناه العثمانيون من دون مئذنة؟؟ تبسم صديقي نيكوس... ثم أردف قائلاً: لم تكن الثورات التي انتهت بخروج جدك من هنا آخر عهد هذه الجزيرة بالحروب... لقد دفعت الجزيرة ثمناً باهظاً في الحرب العالمية الثانية، فقد هاجمتنا الجيوش الألمانية وأمطرت خانيا وغيرها من مدن كريت بوابل من قذائفها ونيرانها، فدمرت بيوتها وأزهقت أرواح شبابها... ثم احتل الألمان جزيرتنا، وقاومهم شبابنا الأبطال، لأن الكريتي لا يقبل الاحتلال، ولا يمكن لأحد أن يهزمه أو يستقوي عليه... انظر إلى هذه التلة هناك... وأشار بيده غرباً... هناك قاتل أولادنا من تلامذة

الكلية الحربية وكانوا لا يزالون في الصف الأول، كان عددهم لا يجاوز الثلاثمئة، يكادون لا يعرفون شيئاً عن فنون القتال وأنواع السلاح... بعد أن رفضوا الانصياع لأوامر القيادة العسكرية اليونانية المهزومة التي طلبت منهم الهروب والفرار بأنفسهم وأرواحهم، فجابهوا الألمان بصدورهم العارية وأسلحتهم الخفيفة، وقُتلوا جميعاً بعد معارك بطولية منقطعة النظير... ثم دُفنوا في مقابر عند سودا باي، بعيداً قليلاً عن مكان المعركة الحقيقي.... وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، اشتعلت الحرب الأهلية في كل اليونان، وكان للجزيرة المسكينة نصيبها كذلك... ثم انتهى القتال... وأفاق الناس على دمار كبير وخراب مفزع، وكان عليهم أن ينفقوا أموالاً طائلة لإعادة إعمار كريت...

قاطعت صديقي مستنكراً: صحيح كل ما تقول، ولكن ما علاقة كل ذلك بالمئذنة؟؟ فالمسجد لا يزال قائماً بجميع جدرانه ونوافذه وقبابه الصغيرة المحيطة بقبته الكبيرة... كل شيء في مكانه إلا المئذنة!!! ضحك صديقي وهو لا يزال يحاول أن يفهمني شيئاً: ضع أغراضك وأمتعتك وهلم نمشي في خانيا... إنني أرى أنك لا تريد أن تستريح أبداً بعد ساعات سفرك الطويل... إنني أتفهم أحاسيسك وأحترمها.... ولكن خانيا اليوم تختلف جذرياً عن تلك المدينة القديمة يوم كان جدك هنا... أطرقت رأسي قليلاً ثم نظرت إلى الجامع بعين الواقعية والأمر الحاصل... وجدت

المسجد محاطاً بمئات المطاعم والخمارات التي يرتادها آلاف السائحين الغربيين الذين خرجوا لتوّهم من مياه البحر... قلت لصديقي: والله إنه لحق ما تقول، وما الداعي لمئذنة لا وظيفة لها، بل وسأقول لك أكثر من ذلك بكثير... إنني لا أرى من سبب لوجود المسجد كله ههنا... من يريده أو يحتاج إليه؟؟؟ لا أحد.. لا أحد...!!!

نظر نيكوس إلى قلب عينيَّ مخاطباً عقلي من جديد: أيها الكريتي الجامح... أنت تشبه الكريتيين بكل شيء... حتى بجنونهم وعصبيتهم... اسمع أيها الشاب، إن وجود هذا الجامع ضروري... فهو قطعة أساسية من تاريخ هذه البلاد، ولو أزيل هذا المبنى بالإمحاء والتدمير لما أمكن إزالته من كتب التاريخ وصور الرسامين... قلت في نفسي: ولكن إزالة المئذنة وحدها تكفي لإعلان انتهاء دور المسجد ومن لحق بهذا المسجد... معك حق يا سيدي، وما أنا إلا خير دليل على ما جرى، فأنا الشخص الشاهد على هذا التاريخ... انظروا إليَّ واقرؤوا قصتي وستعلمون حقيقة ما أقول!!!

ثم تابع نيكوس مداخلته قائلاً: إنني أرى أن المسجد ضروري لهذه المدينة، فلدينا عمال سوريون ومصريون وليبيون وباكستانيون وغيرهم من البلدان الإسلامية الأخرى، ولا بد من وجود دار يتعبد فيها هؤلاء على طريقتهم وبالشكل الذي يريدون، ولكن من دون أن يتعارض ذلك مع حرية الآخرين وراحتهم... ثم سارع إلى إتمام ما يريد قوله من غير أن يدع

لي فرصة المداخلة فقال: إنني لا أحب صوت القس خارج الكنيسة حتى أيام الأحد، لأنه قد يزعج المرضى والأطفال النيام في البيوت المجاورة، وأنا أنظر بالطريقة نفسها إلى مساجدكم، وأراها تزعج الكثيرين بأصوات الأذان المرتفع بصراخ أصوات المؤذنين... ولكنني في الوقت عينه لا أمانع بتاتاً بأن يقوم المسلمون بكامل شعائرهم داخل أي مكان يتخذونه مسجداً لهم في هذه المدينة من دون إسماع ما يقولونه وما يفعلونه للخارج.

تعال ندنُ من هذا المسجد يا عزيزي لأريك كيف أزالت البلدية من حوله كل المباني التي ألصقت به بعد خروج أجدادكم الكريتيين المسلمين... لقد تم هدم مقهى أقيم على الجدار الخلفي للجامع، وها هي البلدية تعيد ترميم الحائط من الخارج لتعيد للمبنى رونقه وجماله السابق. قلت في نفسي: هنيئاً لك أيها المسجد الموصد من كل باب ونافذة بإحكام فريد، هنيئاً لك عملية الترميم، ولعل يوماً يأتي تُعاد إليك مئذنتك من باب ترميم الآثار التاريخية ليس إلا... وقد يتبرع بذلك محسن عربي كبير كان في طريقه للمتعة في مقاهي خانيا... ولا أظن أن البلدية ستمانع وقتها... دنوت من نوافذ المسجد علّي أطلع من شق ما في مكان ما على أي شيء يصف داخل المبنى... ولكن الأمر كان مستحيلاً... ولم أجد إلى ذلك سبيلاً.

وتلفتُّ أتلمس آثار أيدي المسلمين السابقين على جدران

المسجد، وأستشعر حركة دخولهم وخروجهم منه وإليه، وأرى أطيافهم تركع وتسجد، وتسبِّح وتمجِّد، وتدعو وتبتهل... وسال الدمع من جديد على وجنتي... بعد أن كنت قد حبسته واستعصيت على خروجه من مقلتي ولكنه أبى... وأحسست بيد جدي (علي) تمسك بي من جديد، وسرت قشعريرة باردة في بدني المكتوي بنار الأسى... قلت: إلى أين يا جدي؟ قال: بعيداً عن هذا المكان... لقد حذرتك قبل ذلك ولكنك لم تسمع نصيحتي... هذه حالك في اليوم الأول في كريت، وهذا ما ستناله دوماً من هذه الجزيرة... كنت أعرف ذلك جيداً، ولكنك طفل عنيد، قد أبيت مني النصح، ولكنني لن أبادل عقوقك بجفائي، وسأبقى معك يا صغيري أينما حللت وحيثما ذهبت... ضحكت ضحكة طويلة... عجباً!!!... تارة جدي يرافقني وتارة يرافقني أبي... عرفت أن روحيهما تجولان في هذا المكان... بل لعلهما لم يتركاه في يوم من الأيام... أحسست أنهما ربما كانا ينتظران اليوم الذي أقرِّر فيه الذهاب إلى كريت حتى يلتحقا بي... فالسفر وحيداً ليس بالأمر المحمود... فكان لا بد من رفيق يؤنسني... وكانا حتماً ذاك الرفيق...

التفتُّ إلى أبي مخاطباً... أترى خانيا يا والدي؟ أليست مدينة رائعة؟؟ جُلت بنظري في المكان ثم أسندت ظهري إلى المسجد ومعي جدي وأبي، ورحنا نتأمل المرفأ القديم ومحيطه... هنا (طوب خانة) على شمالنا، وبجانبها منطقة

(فرقة)... هنا كان يجتمع العسكر العثماني، ليؤدي تحية العلم، وهناك كان يخزن ذخيرته وعتاده ومدافعه... وها هو البحر أمامنا... وها هو موجه الرقيق يدغدغ صخور الشاطئ بنعومة وتؤدة... وهناك القوارب الصغيرة التي تصطاد الأسماك، وهناك أيضا زوارق السائحين تنقلهم في رحلات قصيرة حول المرفأ القديم... ما أجملك يا خانيا... بماضيك وحاضرك... كل شيء فيك ينطق ويتكلم... ما أجملك يا كريت... ما أجمل الذكريات التي تنبع من سمائك ومائك وأرضك وحيطانك... كريتي يا كريتي... آه منك يا كريتي!!!

أيقظني صديقي نيكوس من غفلتي، بعد أن أحس أني قد استرسلت ما يكفي، وبعد أن قرأ في ملامح وجهي سكوناً يعبِّر عن هدوء ثورتي وانخفاض حدَّتي... قال: تعال نأكل معاً من أصناف المطبخ الكريتي... إنه مطبخ غني وصحي ولذيذ... ولن تجتمع هذه الصفات الثلاث في مطبخ واحد إلا في كريت... تعال لأثبت لك كم نحن متميزون، ولأريك كم نحن مختلفون عن باقي شعوب الأرض جميعهم...

دخلنا مطعماً محاذياً للشاطئ في المدينة القديمة، فاستقبلنا شاب طويل القامة، رياضي البنية، شديد زرقة العينين... استقبلنا بحفاوة وترحيب باللغة المحليَّة، فنحن لا نشبه السائحين بأي شكل من الأشكال... أدخلنا إلى المطبخ ليرينا أصناف مأكولاته المتوفرة وقتها... كانت كلها مألوفة ومعروفة

بالنسبة لي. . . فهي من الأطباق التي تطهى بكثرة في اسطنبول. . . أدهشتني أسماؤها. . . هي كلها كلمات تركية باللفظ اليوناني. . . موساكا، بوريكي، باربونيا، إمام (بايلدي)، تورلو، تزازيكي، مارولي، لاخانا وغيرها وغيرها. . . قلت لصديقي: هذه كلها أطباق تركية. . . فأجابني من توه: نعم، هذا صحيح، وعليك أن لا تنسى أن الأتراك قد احتلوا هذه الجزيرة مئتين وخمسين سنة، وتركوا لنا الكثير من مأكولاتهم وأصنافهم في مطبخنا، كما أخذنا من لغتهم الكثير الكثير من الكلمات، وهناك من يدَّعي أن الكلمات المشتركة بين اللغة التركية واليونانية المحكية في كريت يقارب ثلاثة عشر ألف كلمة!!!

كان الجوع قد أخذ مني مأخذاً كبيراً. . . فقد أدركنا المغيب من دون أن أتذوق أي طعام يُذكر منذ الصباح، اللهم إلا قطعة الحلوى في كوكوفاغيا. . . قلت: فلندع النقاش جانباً يا صديقي نيكوس، ولنستمتع بالأصناف التركية المطهية في كريت، وسيكون أمامنا في الغد متسع من الوقت لنكمل رحلتنا في أزقة خانيا. . . وسنستكمل حوارنا ونتابع استحضار التاريخ في مدينة التاريخ. . .

بدأت ألتهم الأطباق التي وُضعت أمامي بكرم وسخاء، بينما كان نيكوس يستمتع بلقيمات قليلة يمضغها ببطء شديد وهو ينظر إليَّ مبتسماً. . . لن تهرب السُّفرة يا رجل. . . لِمَ تتعجل بطعامك هكذا؟!. . . تعلَّم كيف تستمتع بمذاق أطباقك

لأطول وقت ممكن... فالأكل هو نعمة من الله قد أغدقها علينا لنستمتع بها... هذه هي المتعة الوحيدة التي يمارسها الإنسان حتى آخر يوم من حياته، وهي في ذلك لا ينافسها شيء بتاتاً. أومأت برأسي موافقاً وأنا أزدرد لقمة كبيرة كادت تعلق في حلقي لولا أن تداركني صديقي العجوز بكوب ماء بارد ينضح عرقاً... شربت منه نصفه قبل أن يرتد إليَّ نفَسي... هنا بادر نيكوس إلى استكمال أوامره وتعاليمه لي فقال: عليك أن تأكل مثلي... رويداً رويداً... وأن تتجاذب أطراف الحديث مع رفيق سُفرتك حتى لا يمل من صحبتك... القصد من جلوسنا هنا هو أن نتذوق طعم الماضي، كل منا على طريقته ونظرته... وأن نتبادل ما نرى وما نشعر... هكذا نبني شراكة أعمق، وهكذا نُمنح عمراً أطول لعلاقتنا التي بدأت من هنا... من الميناء البندقي القديم لمدينة خانيا، مدينة الكريتيين، المسيحيين والمسلمين... هكذا جلس أجدادنا ههنا في يوم من الأيام... هل عندك شك في ذلك أيها الشاب؟؟؟

لن أخفي إعجابي بك يا صديقي العجوز... فأنت حقّاً تتمتع بنكهة مميزة في طريقة حياتك وتعاطيك مع الأمور... على الأقل، دعني أُقدّم لك اعترافاً بأنك كنت قادراً على ردم هوَّة كبيرة كانت موجودة بشكل طبيعي بين شخصين لا يعرف أحدهما الآخر... وأن طمر هذه الحفرة لم يتطلب منك سوى بضع كلمات قليلة مع ابتسامة طبيعية كانت تزين وجهك

المنهك، الذي رسمت عليه السنوات خطوطاً كثيرة ومختلفة في كل ناحية منه تقريباً. . .

لم تنتهِ هذه المائدة ببطنين ممتلئتين أبداً بقدر ما أفضت إلى تعارف شخصين غريبين، مع توثيق تآلفهما وتوطيد العلاقة بينهما. . . هكذا قفلنا عائدين إلى الفندق حيث سأقيم في خانيا. . . فندق لوسيا. . . في قلب المدينة القديمة. . . حيث الماضي والتاريخ!!!

ودَّعني صديقي، ونصحني أن أجلس على شرفة غرفتي في الفندق، وأن أتأمل يالي تزاميسي من جديد. . . . من الواضح أنه كان يداعبني على طريقته. . . قلت له مبتسماً: سأفعل ذلك. . . ثم تركته وصعدت إلى غرفتي، متفكراً في أمر رحلتي وما جرى وسيجري معي. . . هل أنا حقّاً في كريت؟؟ هل أنا في خانيا؟؟

وبينا أنا غارق في أسئلة كثيرة تتدافع داخل نفسي، لا أريد لها جواباً ولا أنتظر من أحد عليها ردّاً، دوى صوت أذان العشاء في أذني . . .الله أكبر الله أكبر. . . أذان في خانيا؟؟؟ ناديت جدي وأبي. . . هل تسمعان؟؟؟ أذان في خانيا. . . أدركوني بربكم وقولوا لي، هل رجعت بي عقارب الساعة إلى زمن يقام فيه الأذان في خانيا؟؟ نظرت حولي فلم أجد أبي ولا جدي. . . فتحت باب الشرفة ونظرت إلى المسجد. . . هل أنا أهذي؟ ولكنني كنت متأكداً أنني سمعت الأذان بأذني هاتين. . . ولكن أين تتمة ما سمعت؟؟؟ ولماذا توقَّف المؤذِّن

عن متابعة إقامته للصلاة بمجرد أن هرعت إلى النافذة؟؟؟ في الحقيقة، لم يكن في الخارج أيُّ صوت وأيُّ أذان. . . ولكنني على ما يبدو كنت في حالة استرجاع للتاريخ بشكل قوي وجيّاش. . . حالة جعلتني أسمع أذاناً ينطلق من مئذنة يالي تزاميسي المبتورة. . . نظرت إلى المسجد مجدداً فلم أجد أرتال المصلين تأتي إليه تترى، ولم أرَ غير بضع زوار من الأجانب يحملقون ويدورون حول المبنى الأثري لالتقاط الصور التذكارية أمام معلم سياحي من معالم هذه المدينة الجميلة. . .

وضعت الكرسي على الشرفة، أتأمل البحر والمسجد والفنار. . . كان منظراً رائعاً أن أرى خانيا مضاءة في الليل بنور الكهرباء. . . ابتسمت وقلت: هذا ما لم تره في حياتك يا جدي، ولولا رحلتي هذه لما استطعت أن ترى ما تراه الآن. . . ضحكنا سويّاً حتى علت أصوات قهقهتنا. . . قلت لجدي فجأة: أتريد أن ترى أضواء خانيا من بعيد؟؟ لم يستطع جدي أن يجيب، فقد كنت أسرع منه بكثير في اتخاذ القرار. . . إن كنت لا تريد يا جدي فأنا أريد. . . أمسكت بالهاتف واتصلت بصديقي نيكوس. . . قال لي: ماذا دهاك أيها الكريتي المجنون؟؟؟ لقد تركتك منذ ساعة فقط!!! قلت له تعال وخذني من هذه الغرفة اللعينة، فأنا لا أريد أن أُمضي الليلة الأولى من رحلتي في السرير. . . أريد أن أرى كل خانيا بنظرة واحدة. . . قال: لك ما تريد، أمري لله أيها الكريتي

الشاب... فالذنب ليس ذنبك أنت، ولكنه ذنبي أنا... مالي أنا وما شأني بكريتي مهاجر!!! ولكن وبما أنني اخترت طوعاً أن تكون صديقي، فسأجاريك إلى أقصى حدود قدرتي... أنا قادم إليك فانتظرني... موعدنا عند بهو الكاتدرائية بعد نصف ساعة من الآن...

ارتديت ملابسي بسرعة البرق، وتحسُّباً لأي فشل في الوصول إلى الكاتدرائية في الوقت المناسب، فقد قررت مغادرة الفندق فوراً، فهذه المرة الأولى التي أمشي فيها وحدي في شوارع خانيا... بعد أقلَّ من عشر دقائق، كنت أقف أمام الباحة المتفق عليها أنتظر العجوز المسكين ليأخذني بسيارته في مشوار ليلي أردته أن يكون مميَّزاً... هذه هي فرصتي، وقد لا أجد فرصة أخرى للحصول على مثلها ثانية...

لم أشعر بطول وقت الانتظار، فكل شيء في المدينة القديمة كان جديداً وجميلاً... كنت أُمتع ناظري بمشاهدة بركة المياه الرخامية عند أسفل الشارع، يتراءى من ورائها مسجد الانكشارية أو يالي تزاميسي بإضاءاته الممتازة التي أضفت إلى رونقه الطبيعي لمسة حضارية جديدة، جعلته لا يبدو كئيباً كما كان يطلُّ عليَّ خلال النهار... هذا هو الحوض الذي كان يتجمع حوله المتوضئون قبل دخولهم إلى المسجد للصلاة... أما اليوم، فهو مكان التقاء عشاق الليل مع عازفي الكمان... وما الضير في ذلك... كلهم في المدينة يتسامر ويأكل ويحتسي المشروبات الروحية بكثرة

غريبة... كما أن أصوات الموسيقى الأجنبية الصاخبة كانت تعلو من مختلف الحانات المجاورة لهذه البركة... إلى جانب كل ذلك، فقد كان هناك فنان كريتي، في العقد الرابع من عمره، يحاول أن يضفي إلى المشهد الصاخب شاعرية فريدة بمروره مع قيثارته من طاولة إلى طاولة، يعزف ويغنّي بصوت رقيق لمن أراد أن يمنَّ عليه ببضع قطع معدنية من اليورو... كنت أرقبه من بعيد، وكانت تعجبني ألحانه وطريقة غنائه... حاولت أن أدنو منه أكثر، ولكن صديقي نيكوس كان يناديني من بعيد... لا وقت لدينا لمثل هذه الأشياء أيها الشاب... كان عليك أن تصطحب زوجتك أو تجد لك هنا صديقة تؤنسك في وحدتك لتستمتع بهذا العزف.... هيا بنا، أخبرني ماذا تريد مني؟؟ قلت له ساخراً: لا أريد منك شيئاً أيها العجوز الهرم، بل أريد أن أرى خانيا تتلألأ بالأضواء من بعيد... قال: قد أجيبت دعوتك، وسأصطحبك إلى مكان لن تنساه في حياتك... هيا بنا إلى مالاكسا... وسترى كل شيء من هناك، وبالطريقة التي تريدها أو تحلم بها...

انطلق العم نيكوس بسيارته إلى مالاكسا... كانت السيارة تصدر أصواتاً تشير إلى المجهود الكبير الذي كانت تبذله وهي تصعد في طريق ضيق كثير الالتواء... كانت مالاكسا هضبة مرتفعة جدّاً تطل على خانيا من كل نواحيها... هذه سودا باي، وهناك أكروتيري، وهاك المدينة القديمة ومرفأها، ومن هناك طريقك إلى إيراكليو، وانظر وراءك إلى ليفكا أوري...

كل هذه المشاهد من مكان واحد . . .لله درك أيها العم نيكوس! قد أكثرت من جميل صنعك عليَّ. . . لم ينتظر نيكوس خارج سيارته طويلاً، فقد كان الجو بارداً، وريح الليل تلسع من لم يأخذ الاحتياطات المناسبة. . . ويبدو أنني كنت لا أشعر بقساوة البرد إلا عندما قررت أن أعود إلى السيارة. . . كان نيكوس نصف نائم. . . قال لي بلهجة فيها الكثير من الرجاء والقليل من الاستفهام: هل اكتفيت اليوم أيها المهاجر الكريتي؟؟ قلت له على استحياء وخجل: قد أفضلت عليَّ وأكثرت، ولكن هذه ليلتي الأولى، وأنت تعلم أن الليلة الأولى قليلاً ما تُنسى. . . ردَّ عليَّ هازئاً ومازحاً: وهل هذه ليلة زفافك أيها المعتوه؟ هيا إلى فندقك. . . ولا تزعجني غداً قبل الثانية عشرة ظهراً. . . ضحكت من أعماق قلبي. . . لقد شعرت بالسعادة الحقيقية تغمر فؤادي للمرة الأولى منذ وصولي إلى خانيا. . . فهذا أكثر مما كنت أتوقعه وأبغيه. . . حمدت الله على كل شيء، وشكرت العم نيكوس مرة أخرى، فآثر الصمت على الكلام. . . لقد تجاوز الوقت الثانية ليلاً!!!

اقتربنا من الكاتدرائية، وكنت على وشك النزول من السيارة، فاستوقفني العم نيكوس قائلاً: ما رأيك ببوظة كريتية في ميدان سبلانتزيا؟؟ نظرت إليه متعجباً. . . قال وقد لفَّت الابتسامة وجهه: لن تكون أكثر جنوناً مني أيها الكريتي اللبناني. . . أرني الآن كيف تجاري عمَّك العجوز. . . إنه دوري الآن. . . لن أدعك تنعم بالنوم هذه الليلة. . . قلت له:

لك ما تريد... لن أردَّ طلبك أبداً، وأنا مستعد للسَّمَر معك حتى انبلاج الفجر... فهذه ليلتنا الأولى أيها العجوز الشاب... سنرى من منا سيستسلم أولاً... تبادلنا المزاح بشكل اعتيادي، إيذاناً من كل جانب منا أنه قد قبل الآخر واعتاد عليه... لقد بدأت أحب العم نيكوس، كما كان واضحاً بالنسبة لي أنه كان يبادلني الشعور نفسه.

كانت البوظة لذيذة بالفعل، ولعلها كانت من أطيب ما أكلته في حياتي... قال: هذه بوظة كريتية أيها الشاب، ولن تجد مثلها في أي مكان آخر... شكرت العم نيكوس على حُسن ضيافته، واتفقنا على اللقاء غداً عندما تستيقظ أبداننا من دون أي تدخل خارجي... هكذا أرادها نيكوس... لقد استسلمنا سويّاً، وما عاد هناك مكان للمكابرة أو العناد، فنور الصباح قد بات قريباً، كما أن معظم رواد المقاهي قد عادوا إلى فنادقهم، حتى صرنا من القلَّة القليلة المتبقية في أزقة خانيا القديمة حتى ذلك الوقت من الفجر.

ارتميت على فراشي لأغيب عن الوعي في ثوانٍ قليلة... ونمت نوماً عميقاً جدّاً... لقد كانت ليلة لا تُنسى!!!

١٠ حزيران ٢٠١١

لم أحلم بأي شيء في هذه الليلة... فقد كان يومي الأول مرهقاً ومحمَّلاً بالكثير من الأحداث...

في اليوم التالي، نهضت من الفراش وأنا في شوق كبير إلى يالي تزاميسي، كأن بيننا معرفة قديمة وعهد قديم... فتحت باب الشرفة فاستقبلني بحر هادئ حسبته سيدخل إلى غرفتي لشدة دنوّه وقربه... كان شديد الزرقة منعدم الموج... أحسست أنه يخاطبني ويقول لي أهلاً وسهلاً بك أيها الغريب القريب... سألته بصوت مرتفع لم يتجاوز حنجرتي: هل أنت البحر نفسه الذي لطالما تأملته مع أبي من شواطئ الحميدية؟؟؟ ولماذا أشعر بأنك ودود ومحب بشكل قد فاق كل توقعاتي السابقة بأنني سألقاك وبيننا حقد قديم وجفاء مزمن؟؟؟

لم يكن في الغرفة سوى أصوات خافتة لحركة مياه ساكنة في الميناء القديم... كان هذا البحر مختلفاً تماماً عن بحر الحميدية بأمواجه المتلاحقة بين مدٍّ وجزر... وكذلك الأمر بالنسبة لمياه مضيق البوسفور التي لطالما قضيت الساعات وأنا أتأمل تيارها الجارف باتجاه البحر الأسود. هنا كل شيء

هادئ على ما يبدو، لدرجة أنني صرت أشكك بكل الروايات التي تحدثت عن عواصف الجزيرة وثوراتها التي لم تهدأ في يوم من الأيام.

هذه إذاً هي كريت، جزيرة التناقضات على ما يبدو... ومن المؤكد أنني بحاجة إلى وقت كبير جدّاً لأستوعب طبيعتها الثائرة وراء هدوئها الرائع وجمالها الساحر...

رجعت من الشرفة إلى داخل غرفتي وشرعت بتحضير سريع للشاي... ثم بدأت أرتشفه متأملاً هذا المشهد الخلّاب ...الله الله يا كريت، كلمة لطالما ردَّدتها سرّاً وجهراً منذ أن وطئت قدماي موطن جدي... ترى، ماذا سأرى اليوم منك يا عروسة المتوسط؟؟

اتصلت بصديقي نيكوس، وأخبرته أني على استعداد للبدء بيوم جديد ومغامرة أخرى في الجزيرة. تواعدنا والتقينا مثل المرة السابقة... في ميدان سبلانتزيا أمام الكاتدرائية الكبيرة التي حوَّلها العثمانيون من كنيسة كاثوليكية إلى مسجد الخونكار في يوم من الأيام... تأملت هذا البناء المعماري الجميل... كانت المئذنة لا تزال منتصبة إلى يمين برج الجرس الذي يُقرع اليوم صباح كل أحد لإقامة القداس... كانت أحجار الكاتدرائية شاهداً على التحولات الدينية والمذهبية الكثيرة التي شهدتها جزيرة كريت... علمت أن المئذنة قد رُممت حديثاً بشكل دقيق من قبل أخصائيين قاموا بترقيم الأحجار وفكِّها ليعيدوا صقلها وبناءها كما بُنيت منذ أكثر من قرنين من الزمن...

وقفت في منتصف الميدان أنتظر صديقي... كان كل شيء لا يزال هادئاً... وما هي إلا دقائق معدودة حتى ظهر رفيق رحلتي نيكوس الذي كان قد أعدَّ برنامج رحلتنا لهذا اليوم بكل تفاصيله وتفرعاته...

مشينا الهوينا في أزقة خانيا التي بدأت تشهد اكتظاظاً ملحوظاً بشكل مطَّرد وواضح... لقد بدأ تدفُّق السائحين الأوروبيين بكثرة، فهم يأتون إلى كريت للتمتع بشواطئها ورمالها وبحرها لأيام قليلة معدودة، ثم لا يلبثون أن يتابعوا مسيرهم إلى مناطق أخرى من اليونان... حركة مستمرة لا تعرف الهدوء ولا التوقف... هذا هو الموسم الأهم بالنسبة إلى السكان المحليين، الذين فضَّلوا ترك الزراعة وتربية المواشي، واستعاضوا عن ذلك بالتفرغ الكلّي للعمل السياحي، فهو يتطلب جهداً أقل، ويوفِّر مدخولاً أكبر.... آه مما آلت إليه أحوالنا أيها الطبيب الكريتي.... تخيّل أن بلد البحار والجزر تستورد الملح!!! أليس هذا عجيباً... أين العمال والفلاحون؟ أين البحّارة والملّاحون؟؟ أين المزارعون والصناعيون؟! نحن نعيش في واحد من أجمل وأخصب بلاد الأرض، ولكننا نستورد تقريباً كل شيء... نظر العم نيكوس إلى البحر وتابع مستطرداً: بلادنا على وشك الإفلاس... فنحن نستهلك أكثر بكثير مما ننتج، ونستورد أكثر بكثير مما نصدِّر، ولا أرى بصيص أمل واحد يخرجنا من النفق المظلم الذي نحن فيه.... يجب على شبابنا أن يكافحوا من جديد،

فالوطن أمانة في أعناق الشباب... أما نحن العجائز، فليس لنا حول ولا قوة، اللهم إلا النصح والتوجيه، وهذا ما لم يعد يتقبله جيلكم أيها الشاب.....

قلت: دعني من مشاكلكم، فلدينا منها ويزيد... أنا هنا في لقاء مع حبيبة قديمة لي، وهناك أطياف تنتظرني، فلا تدع الوقت يفوتنا بالحديث عن السياسة والاقتصاد، فأنا لا أفهمهما أصلاً، ولا أميل إلى أيٍّ منهما... هلمَّ نتابع اكتشاف الجزيرة شارعاً شارعاً وحائطاً حائطاً... ضحك نيكوس بسخريته المعهودة وقال: يا عزيزي، هذه ليست قرية بسيطة على سفح جبل، أو تلَّة صغيرة في مدينة ما.... إنها كريت، واحدة من أكبر جزر المتوسط... ولتفهم ذلك منذ الآن... إن كريت هي أكبر بكثير من أن يحيط بها سائح، أو حتى مقيم... جزيرة سهولها مبسوطة أمامك ما امتد بصرك... جبالها شاهقة، فيها وديان سحيقة تكاد لا ترى قعرها.... هل تعلم أن بعض الأوروبيين يأتون إلى كريت ليمارسوا هواية القفز من نقطة تعتبر واحدة من أعلى النقاط الطبيعية في أوروبا؟... نعم، إنه في مكان ما في أنوبوليس.... قرية صغيرة في منطقة سفاكيا... ادعُ الله أن يكتب لك أن ترى بعض المدن الرئيسة وبعض القرى خلال فترة إقامتك هذه... وحاول أن تستوعب كريت، فهذه كانت نصيحتي لك منذ البداية... إذ ليس المهم أن تذهب إلى هنا وهناك وترى كذا وكذا، ولكن المهم أن تفهم ما شاهدت وتعقل ما رأيت...

انطلقنا إلى السوق الكبير... محلات كثيرة تبيع عشرات الأصناف من الزيتون الكريتي... الأخضر والأسود، والصغير والكبير، وما بينهما من أصناف تكاد لا تُعدُّ ولا تُحصى... أما الجبنة الكريتية ميذيثرا MIZITHRA فهي موضع تفاخر عند الكريتيين، لأنها لا تشبه أي جبنة بيضاء أخرى... كل ذلك قليل أمام ثقافة الأعشاب في كريت... إنها بحر محيط لا يعلمه في الأرض أكثر من أهل هذه الجزيرة... فهم يستعملونها بأساليب متنوعة لأهداف مختلفة وكثيرة، فبعضها يغلَى مع الماء ويشرب مثل الشاي كالفاسكوميليا، وبعضها يستخدم في إضافة نكهات خاصة للطعام... وبعضها الآخر يطبخ ويؤكل مثل الماراثا... ولكل من هذه الأعشاب حكاية تُروى وخصائص تُحكى... أما البزّاق أو خوخليوس فهو موضع تغنٍّ عند الكريتيين... وبرأي صديقي نيكوس فإن الذي لا يحب البزّاق لا يمكن أن يكون كريتيّاً حقيقيّاً... كان لا بد لي من أن أتبرأ من كريتيتي للمرة الأولى في حياتي لأجتنب تناول وليمة البزّاق التي كان يصرُّ العم نيكوس عليَّ أن أجربها ولو مرة واحدة في حياتي... كان يقول إن على الإنسان أن يجرب كل شيء خلقه الله في هذه الدنيا ولو مرة واحدة، ثم يقرر بعدها أن يدعه أو يأخذه... وكيف لك أن تقول لا لشيء لم تجربه في حياتك بتاتاً؟؟؟ هذا أمر لا يجوز!! قلت للعم نيكوس: سنناقش هذا الموضوع لاحقاً... ثم أجال العم نيكوس نظره إلى بائع الكحول وقال: نحن نصنع نبيذنا وعرقنا

بأنفسنا، ولدينا صنفان مميزان عن كل ما سواهما من المشروبات الروحية.... لدينا أوزو OUZO ولدينا تسيكوذيا TSIKOUTHIA... أما الأوزو فهو شبيه بالعرق اللبناني إلى حدٍّ ما، ولكن دعني أخبرك شيئاً عن تسيكوذيا... إنه شراب يُصنع من أجود أنواع العنب، ونسبة الكحول فيه عالية جداً تكاد تقارب التسعين في المئة... ونحن عادة ما ننهي طعامنا بكأس صغيرة منه، فهو مفيد في عملية الهضم، وإن كنت لا تصدقني، فما عليك إلا أن تستشير طبيباً... ضحكت من سخريته الواضحة... ألا تعرف أنني طبيب أيها العجوز الكريتي الماكر؟! قال: أعرف ذلك جيداً، ولكنني أعرف أنك لا تؤمن بما أقول، فأنت مسلم لا تحتسي الكحول، ولكن صدقني أن ما أقوله لك صحيح، وسأفسر لك ذلك بأبسط أسلوب وأبلغ تعبير... فعندما يصل التسيكوذيا إلى المعدة، يحدث فيها صدمة كبيرة، فتقول: ما هذا؟؟ نسبة عالية جدّاً من الكحول دفعة واحدة؟!!! فتبدأ بإفراز كميات كبيرة من عصائرها لتعديل ما دخل إليها، وأنت تعرف أن العصائر هذه تُيسِّر الهضم بشكل كبير... شكرت العم نيكوس على درس الفيزيولوجيا الذي منحني إياه، ونصحته أن ينظر إلى الأمر من زوايا مختلفة، فقد يفيده هذا في تعديل نظرته الطبية على الأقل إلى هذا المشروب ذي النسبة الهائلة من الكحول...

بعد ذلك خرجنا من السوق الكبير متوجهين إلى منطقة المنارة... نظرت أمامي فوجدت مئذنة قديمة مهلهلة بُنيت

على الطراز العثماني منذ زمن بعيد... كان من الواضح أن المنارة لا تلقى أي اهتمام ولا تحظى بأي عناية... فتشت عن المسجد حولها فلم أجد له أثراً... استشطت غضباً ولم أستطع كبت شعوري مرة ثانية... قلت: أين المسجد أيها الناس؟؟؟ مئذنة من دون مسجد؟؟؟ اقتربنا من المنارة أكثر وأكثر... كانت المباني والمحلات التجارية والمقاهي تلفُّ المنارة من كل حدب وصوب، ولم أستطع أن أهتدي إلى مكان يدل على موقع المسجد القديم. ثم قررت أن أقارب المنارة من الشارع الخلفي لعلّي أجد شيئاً... وجدت المقاهي والمطاعم على طول الشارع الخلفي الضيّق، ووجدت باباً قديماً موصداً، تعلوه لوحة رخامية وسخة، كتب عليها بالخط العربي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله!!! كان من الواضح أن هذا الباب كان لإحدى الغرف التابعة للمسجد وليس المدخل الرئيس له... وكان من الواضح أيضاً أن المبنى الرئيس قد تم توزيعه على الحانات والمقاهي بما ضمن طمس معالمه الأساسية بشكل كامل... ازداد الألم في قلبي حتى بدأت أتلوى من شدته... وقفت أمام المنارة سارحاً بخيالي بعيداً أتابع مشهد استمرار المعركة بعد خروج جدي من الجزيرة... يبدو أن المعركة لم تنته بخروجنا، ولكنها استمرت بعد ذلك حرباً على كل ما يمتُّ إلينا بصِلة، أو ما يدل على أننا قد سكنّا هذه البلدة في يوم من الأيام... تبادر إلى ذهني سؤال بديهي... قلت للعم نيكوس: خذني إلى

مقابر المسلمين، لأنني أريد أن أزور عظام أجدادي وأقرأ الفاتحة على أرواحهم من جديد... وُجِم العم نيكوس وأطرق رأسه قليلاً ثم قال: لم تعد هناك مقابر للمسلمين في جزيرتنا... لقد كبرت المدن واتسعت القرى... وأنت تعرف مستلزمات التخطيط الحديث... وبخروجكم، لم يعد لوجود المقابر هذه معنى، فلا أحد يزورها ولا أحد يكترث لحالها، والقاعدة تقول إن الأحياء أبدى من الأموات... ولا بد من تخطّي بعض القوانين في بعض الأحيان لتحقيق المصلحة العامة لكل الناس... أحدث جوابه صدمة في نفسي كتلك التي تُحدثها التسيكوذيا في المعدة... لم تكن لدي عصارة لأفرزها إلا الدموع التي تقاطرت من عيني حزناً على رفات الأولين... وأشحت بوجهي بعيداً عن صديقي لأخفي عنه بكائي... لقد عرفت الآن قيمة أن يعرف المرء أين دُفن والده وجده... وعرفت الآن قيمة زيارة القبور بشكل لم يخطر على بالي من ذي قبل... عرفت الآن قيمة الوطن، ومعنى أن يقول الإنسان عن وطنه إنه أرضه وأرض أبيه وجدِّه وجدِّ جدِّه... وما الذي يبقى من الجدِّ أو جدِّ الجدِّ إلا الرفات والمقابر... وتراءى لي قبر والدي وجدي في لبنان... ورأيت هذه القبور جميلة جدّاً... رأيتها مشعَّة ومضيئة... رأيتها روضة تستحق الزيارة كل يوم... ما أغباني عندما كنت أمرُّ يوميّاً أمامها وأكتفي بإلقاء التحية على أبي وجدي من بعيد... وعداً عليَّ أيتها العظام النخرة في طرابلس أن أوليك اهتماماً أكثر مما

كنت قد أعطيتك إياه قبل اليوم... عهداً عليَّ أن أكون أكثر وفاءً لك أيتها الأضرحة المنسية المفقودة... عهداً عليَّ أن أعيد بعث ذكراك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.... عهداً عليَّ أن أكون الحفيد البار لبقايا مئات الموتى التائهين في كريت...

التفتُّ إلى نيكوس... كان يمسح نظارته الشمسية ويعيد وضعها من جديد أمام عينيه متقياً بها وهج نور الشمس الذي كان لا يزال يتَّقد قوة رغم أن وقت الظهيرة قد ولّى منذ فترة لا بأس بها... قال: لقد أطلت وقوفك أمام هذه المئذنة، وعلينا أن نتابع السير في الأزقة الضيقة، فقد تجد فيها أشياء وأشياء... هززت رأسي في إشارة مني إلى قبول ذلك... وتابعنا السير حتى وصلنا إلى دكان قديم أُقيم تحت قبّة قديمة هي الأخرى... كان فيها رجل أسمر البشرة طويل الشعر، يعمل في مصنع صغير أقامه لنفسه لصناعة السكاكين الكريتية القديمة... وإذا أردت أن تعرف ما السكين الكريتية، فما عليك إلا أن تنظر إلى الصور القديمة للرجال الكريتيين... إنك لن تجد رجلاً واحداً لا يتقلد سكينه بشكل بارز على خصره، تتدلى منها شرابة مزركشة... كانت السكين هذه ولا تزال رمزاً للرجولة عند أهل كريت... بحيث إن الرجل الكريتي كان لا يخرج من بيته من دون أن يحملها ويزين خصره بها... كان صاحب المتجر قد أنجز صنع سكين كريتية تقليدية، قبضتها من العظم الحقيقي المرصَّع بأحجار كريمة،

ونصلها مكتوب عليه أمثال كريتية تذكّر حامل السكين بقضية أو أسطورة أو عظة... أما الغمد الفضي، فقد زركشه الصائغ هذا بنقوش جميلة في منتهى الروعة والدقة، وعتّقه بشكل أضفى عليه عمراً وتاريخاً... كانت السكين تلك تحفة فنية وددت أن أشتريها منه وأُزيِّن بها داري، ولكن سعرها كان يفوق كل ما أملك من مال أضعافاً مضاعفة... وفي الحقيقة أن السكين هذه كانت تستأهل أن تكون في بيت محافظ أو قصر أمير... وليس لها مكان في بيت حفيد مهاجر كريتي مثلي...

كان الصائغ يتحدث إليَّ شارحاً مزايا السكين الكريتية وأهميتها، ولكنني لم أكن لأفهم كل ما قاله... تدخَّل العم نيكوس ليروي للرجل قصتي... وقد كانت المرة الأولى التي يتحدث فيها مع أحد السكان المحليين عن المسلمين الكريتيين الذين غادروا الجزيرة في يوم من الأيام... أنصت الرجل بعناية وانتباه، وكان كلما أنهى نيكوس بعض كلماته نظر الرجل إليَّ نظرة ودٍّ ومحبة... وبعد أن انتهى صديقي من سرد ملخص حكايتي، مدَّ الرجل يده وصافحني وعلى وجهه علامات الترحيب بحفيد المواطن القديم... ودَّعت الرجل وقد شعرت أني أحبه رغم أني لا أعرفه.... وقد كان هذا أول شعور دافئ أحس به تجاه السكان المحليين الذين يعيشون اليوم في خانيا... لقد كان إحساساً جميلاً جعلني أتغلب على شعور الإحباط الذي عانيت منه قبل ظهر هذا اليوم... الناس

هنا طيبون ومحبون وقريبون من القلب... هذه هي القناعة التي تولدت لدي وأنا أصافح هذا الرجل...

نظرنا بعضنا إلى بعض... قال نيكوس: ألست جائعاً أيها الكريتي الصغير؟؟؟ قلت له: ما بالك تناديني تارة بالرجل الكريتي، وتارة بالكريتي الشاب، وها أنت الآن تصفني بالكريتي الصغير... أجابني نيكوس ضاحكاً: أنت كل هؤلاء... أنت طفل وشاب في رجل!!! رأيتك تبكي كما يبكي الأطفال، وتمشي وتركض بلا كلل ولا ملل مثل الشباب، وتتحدث بنضج رجل عرف الحياة واختبرها... ولكن دعني أبوح لك بسرٍّ اكتشفته بعد مرافقتك ليومين اثنين... فمن بين أكثر تلك الصفات الثلاث، رأيت فيك الطفل أكثر من أي شيء آخر... أنت عاطفي لدرجة قاتلة... لقد رأيتك تذرف الدمع على الحجر والأثر... وتسرح لحظات وتغيب دقائق عديدة عن مسرح الحاضر، وتغوص في عمق الماضي... إني أفهمك يا صغيري أكثر مما تظن، وأعرف ما تريده وما تشتهيه قبل أن تفصح عنه... إنك تنظر إليَّ كما تنظر في عين والدك الذي تركك منذ وقت بعيد... إياك أن تنسى أنك ترافق عجوزاً كريتيّاً أكل عليه الدهر وشرب... تعال.. تعال، أنت الآن طفل جائع... وسيرافقك عمك نيكوس إلى واحد من أحسن المطاعم التي تحضّر أكلاً كريتيّاً تعدُّه امرأة بالطريقة عينها التي تعدُّه في بيتها... جاوبته بسرعة ومن غير تردد: هيا بنا إلى المطبخ الكريتي... فأنا جائع بالفعل...

جلسنا في مطعم تؤمُّه عائلات كريتية محلّيّة، حتى إني لم أرَ سائحاً واحداً... كانت هناك عدة طناجر مغطاة... وكنا نرفع الغطاء عن كل طنجرة بدورها لنرى ما بداخلها... كان كل شيء يبدو شهيّاً... ولكنني فضّلت أن أتذوق الأطباق المطبوخة بزيت الزيتون... فهي أشهى المأكولات على الإطلاق... وكعادته، فاجأني نيكوس بطبق كريتي أُعد من لحم الأرانب وكان عليَّ أن أتذوقه غصباً عني... لقد كانت المرة الأولى في حياتي التي أتناول فيها لحم أرنب.... والحق يقال إن طعمه كان لذيذاً... ضحك نيكوس وقال: لا تخف، هو لحم حلال ومطبوخ أيضاً بطريقة حلال... اعلم أنني أحترمك وأحترم معتقداتك أيها الرجل، قلْ مطمئن البال، وكن على ثقة أني لن أخدعك في هذا الخصوص على الأقل...

لقد كان نيكوس رجلاً صادقاً وكريماً بكل ما في الكلمة من معنى... وقد أحسست خلال رفقته بالأمان الحقيقي... لقد منحه الله قلباً كبيراً يتسع لكل الناس، وعقلاً راجحاً حمل فيه علماً غزيراً... وإيماناً راسخاً أخذه عن علم وإدراك... لقد كان نيكوس واحداً من فرقة المرتلين الدائمين في كاتدرائية خانيا... ولهذا فإن معظم سكان المنطقة كان يعرفه ويحترمه...

خرجنا من المطعم سوية، ولكن نيكوس أراد هذه المرة أن يتركني وحدي لأعود أدراجي إلى الفندق، وتواعدنا بعد

ساعتين على اللقاء في مقهى سي يو الواقع في منطقة كوم كابي. . . قلت: وكيف أصل إلى منطقة لا أعرفها ولم أذهب إليها في حياتي؟؟؟ تابع نيكوس سيره من دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات إليَّ وقال: ضع البحر على شمالك وتابع السير حتى تراني. . . لن تضيع في بلدك ووطنك أيها الشاب، أليس كذلك؟؟

وبالفعل، كان الذهاب منفرداً إلى كوم كابي ممتعاً للغاية. . . فقد مررت بشارع سورمالي ورأيت فيه بيوتاً قديمة تعود للعصر العثماني، كما رأيت هنغارات قديمة مغلقة، ورأيت سبيل مياه نضبت مياهه وهرم وشاخ من وطء السنين التي مرَّت عليه من دون أن ينصفه أحد. . . انعطفت يمنة لأرى واحداً من أجمل الشواطئ الرملية الوديعة، واستنشقت نسيم كريت كما لم أفعل من قبل. . . كان الطقس الربيعي رائعاً بكل ما في الكلمة من معنى، كما كانت الشمس قد لانت وهدأ حرُّها إلى حد بعيد. . . كنت أمشي الهوينا وأنا أرنم ألحاناً لا أعرف كيف خرجت من أعماق ذاكرتي. . . كان الطقس شاعريّاً لأقصى الحدود. . . ولحسن الحظ، فإن طريقي إلى نيكوس لم يكن قصيراً، حتى إني رغبت في أن يطول ويمتد لساعات قبل أن أجده. . . ولكن ما هي إلا نصف ساعة من الزمن حتى وجدت العجوز الكريتي ينتظرني ويرمقني بنظرات ملؤها السرور والفرح. . . قلت: لعلك اعتدت على رفقتي أيها العجوز الشاب؟؟ قال: بل سعيد لأني أراك سعيداً. . . كما

أنني أعرف تماماً ما الذي شاهدته وأنت في طريقك إلى هنا... حرَّكت رأسي موافقاً... قال: تعال فاجلس إلى جانبي ولنراقب الشمس كيف تغرب في كريت... قلت له: وهل تغرب في كريت بشكل مختلف عن بقية الكرة الأرضية؟؟ قال مستنكراً ومغضباً: طبعاً أيها الأخرق... إن شمسنا لا تغطس في البحر عند الغروب، ولكنها تختفي وراء الجبال... كما أنها تشرق من البحر!!! كم مرة عليَّ أن أخبرك أن كريت لا تشبه شيئاً على وجه الكرة الأرضية؟؟؟ غريب أمرك أيها المهاجر...

كان غروباً مميزاً كما وصفه نيكوس تماماً.... فتضاريس الجزيرة المحاطة بالبحر من كل جانب، وخلجانها المتعددة وجبالها المرتفعة تجعل للغروب أشكالاً مختلفة ممكنة بحسب المكان الذي تنتظره فيه... هذه هي كريت الحقيقية... أليس هذا ما كنت تودُّ رؤيته وسماعه أيها الكريتي الشاب؟؟ قالها نيكوس وهو يهمُّ بالنهوض... هيا بنا نتجول في شوارع المدينة يا صديقي... ثم فلنذهب لنخلد إلى النوم، لأننا سنذهب غداً إلى سفاكيا وسنتنزه في قراها ونأكل في الجبال البيضاء... ليفكا أوري.... وستكون طريقنا طويلة ولكنها حتماً ستكون جميلة... هيا بنا لا نستنزف وقتنا في أمور لا طائلة منها ولا نفع فيها... هيا بنا إذاً... نوماً هنيئاً وأحلاماً سعيدة يا صغيري!!!

١١ حزيران ٢٠١١

في صباح هذا اليوم انطلقنا نحو سفاكيا... كان العم نيكوس يستمع إلى موسيقى كريتية ولا يتكلم على الإطلاق... كان يريدني أن أنصت إلى ما يسمعه ليس إلا... كانت الموسيقى هذه مزيج ألحان العود والبزق والكمان والناي... وكان اللحن عذباً يلامس شغاف القلب برقَّة وحنان... لم يحتمل الوضع أكثر من ثوانٍ معدودة حتى عادت بي الذاكرة إلى يوم كنت أتمشى فيه مع أبي إبراهيم في شوارع اسطنبول عام ١٩٨٨م... يومها سمع أغنية للمطرب التركي الكبير (زكي موران)... كان لحن الأغنية رقيقاً وحزيناً... نظرت يومها إلى والدي فوجدت عينيه حزينتين مبتلتين... قلت: ما الذي دهاك؟؟ قال: إنها الذكريات يا بني... إن الإنسان هو كائن يعيش الحياة فتمرُّ به مرَّ السحاب، ثم تعترضه حادثة ما تذكِّره بأمر من الماضي وتعود به سنيناً عديدة إلى الوراء... قلت: وماذا تذكرت الآن؟؟ قال: تراءى لي طيف عمي خالد آغا رَحِمَهُ اللهُ وهو يغني بصوت مرتجف مثل هذا المطرب، كان يحب الناي يا بني، وكنا كلنا نحبه، فهو يذكِّرنا بأيام كريت... تذكرت أيضاً طفولتي والأيام التي كنا نقضيها مع المهاجرين الكريتيين

في الحميدية... كانوا يعزفون ويرقصون ويغنّون، وكانوا يتبارون في إظهار الخفَّة في الرقص والإبداع في العزف... كانت ليالينا تلك من أجمل الليالي، فهي بدورها كانت تعيدنا إلى الأيام الخوالي في كريت... أرجوك يا ولدي أن تحفظ اسم هذا المطرب وأن تأتيني بهذه الأغنية تحديداً... قلت له: غالٍ يا أبي وطلبك رخيص، ولكنني لم أعهدك تقتني تسجيلاً لأي مطرب في حياتك... قال: ما يهمني الآن هو أني وجدت شيئاً ينعش ذاكرتي ويعيد لي أبي وأعمامي فأستحضرهم جميعاً أمامي... لا تظنن أن في الأمر إحباطاً وبؤساً، بل على العكس من ذلك... إن فيه سعادة بأن تلقى من تحب، ولو كان ذلك بالروح وليس بالجسد... ربما لم تستطع أن تفهمني الآن، ولكنك ستفعل ذلك في يوم من الأيام...

لقد كان أبي محقّاً... فأنا أذكره الآن في كل شيء تقريباً، وها هو اللحن الكريتي يحضره حيّاً أمامي... شعرت بالدفء يجتاح قلبي... فقلت للعم نيكوس: أريد هذا التسجيل لأنسخه وأحتفظ به... ابتسم نيكوس وقال: هل أعجبك اللحن؟ قلت له: أيها الماكر، ألم تقل إنك تستطيع أن تنبأني بما أريد قبل أن أتفوه به؟؟؟؟ ضحك ملء فمه وقال: كان هذا من ضمن الاختبارات التي أجريها لك بين الفينة والأخرى لأتأكد من أنك كريتي حقيقي!!! نحن نولد مع هذه الألحان ونحبُّها أيها الطفل الكريتي الصغير... إني لأكاد أجزم أنك

تذكرت شيئاً ما من الماضي... أليس كذلك؟؟؟ قلت له: صحيح ما تقول، وهل قلت شيئاً لم يكن صحيحاً مذ التقيت بك من ثلاثة أيام؟؟؟

تابعنا صعودنا في جبال ليفكا أوري نجتاز قرية من بعدها قرية حتى وصلنا إلى القمة، ثم انحدرنا نزولاً وقد بدأ الشاطئ يتراءى إلينا من بعيد في منظر ساحر يأخذ بالألباب... لقد كنا على مشارف منطقة سفاكيا... كانت الطرقات معبَّدة بشكل جيد جدّاً، ولكنها كانت وعرة في الوقت نفسه... كان لا مفر من ذلك ولا مهرب، فالانحدار شديد، والمسافة التي تفصل قمة الجبل عن الشاطئ قصيرة جدّاً... كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها الطبيعة الكريتية معرَّاة بالكامل... كم هي شبيهة بلبنان!!! كل شيء فيها يشبه لبنان... الصخور والتربة وأشجار الزيتون والسهول الخضراء... شعرت للمرة الأولى أني مغرم بلبنان... أحب أرضه وترابه وهواءه... أحب ببساطة كل ما فيه... أوليس لبنان هو وطني ووطن أبي وجدي؟؟؟ هو كذلك حتماً على الرغم من كل تعقيدات قصتي وتفاصيلها... هو مكان يحتضن رفات كل من أحب بالتأكيد، وكان لا بد من أن أدرك يوماً عمق المحبة التي تربطني بمسقط رأسي...

ها هو نيكوس من جديد يقاطع خواطري بتعليقاته وشروحاته... قال: أتدرك الآن السبب الذي يجعل هذه الجزيرة عصيَّة على المحتل؟؟؟ لأن أحداً لا يستطيع حل لغز

هذه الجبال إلا نحن... فالعثماني لم يستطع الوصول إلى هنا!! هتلر وجيوشه التي هزم بها العالم لم يصل إلى هنا!! هذا الجبل ملك لنا وحدنا ولن يستطيع أحد غيرنا أن يدخله إلا بإذننا... انظر من حولك إلى الدروب الوعرة في الحقول والبساتين... انظر إلى رجال كريت... هؤلاء رجال لا يقدر على هزيمتهم أحد... فميزة رجالنا جنونهم وسرعة غليانهم... والرجل الهادئ ليس كريتياً بالتأكيد... نظرت في وجوه سكان منطقة سفاكيا... كانوا بمعظمهم رجالاً أشداء، عريضي الأكتاف وغليظي السواعد، بالرغم من أن قامتهم كانت أقرب إلى القصر منها إلى الطول... كانت وجوههم تشير إلى شراستهم وعصبية مزاجهم... ينتبهون إلى الغريب ويلحظونه، ذلك أن مدينة سفاكيا بحد ذاتها هي أقرب إلى القرية منها إلى أي شيء آخر، ولكنها كانت تبدو رائعة بكل المقاييس...

لم نتوقف في المدينة لعدم وجود شيء مميز فيها من الناحية التاريخية، فهي حالياً تجتذب هواة السباحة بدرجة أساسية، كما أنها مقصد هواة القفز من الأعالي كما سبق وأخبرني نيكوس... وبالفعل فقد كان يتوجه بسيارته إلى أنوبوليس، تلك القرية الشاهقة المتميزة بواد سحيق... وصلنا إليها لنجد أحد الهواة على وشك القفز من الجسر الحديدي الذي أقيم بين ضفتي الوادي... كانت كل الترتيبات حاضرة وجاهزة بما فيها آلات التصوير الفوتوغرافي والفيديو... نعم ها هو يهمُّ

بالقفز، وها هي جموع الناس تشجعه وتنشطه.... لقد كان الأمر بالنسبة لي أقرب ما يكون إلى الجنون منه إلى العقل السليم... هرعت بكاميرتي لألتقط هذا الحدث الجلل، وكنت موفقاً في متابعته من لحظة قفزه وحتى عودته بالسلامة إلى نقطة الانطلاق... سألني نيكوس إذا كنت أرغب في القفز، أجبته فوراً: لقد نجح جدي بالخروج من الجزيرة على قيد الحياة، ولا نيَّة لدي أن أموت طوعاً بملء إرادتي في كريت... هيا بنا نعود إلى خانيا، فقد اكتفيت من سفاكيا بجبالها ووديانها ورجالها... قال: لن تغادر سفاكيا حتى تأكل طعامها، وعندما تفعل، فستطلب مني أن نأتي إلى هنا يومياً... وافقته على الفور، وتوجهنا إلى مطعم، كان في الثلث الأول من طريق عودتنا إلى خانيا... دخلناه فلم يكن فيه أحد غيرنا... قلت لنيكوس: أمتأكد أنت من أننا سنأكل شيئاً اليوم؟؟ قال انتظر أيها الطفل، فلن يتركك عمك جائعاً... وبالفعل حضرت سيدة كريتية وسألتنا ما نريد... وخلال دقائق معدودة كان طبقا فروفيس وذاكوس قد حضرا أمامي على الطاولة، فبدأت ألتهمهما بلا هوادة... كان هناك طبق آخر هو عبارة عن نبات يشبه البصل البري الصغير، يحتفظ به الكريتيون في الخل، ويقدِّمونه من ضمن المقبلات... لقد كان غارقاً في زيت الزيتون... أما ذاكوس فكان كعكة مالحة تسبح هي أيضاً في زيت الزيتون، مزينة بقطع البندورة وجبنة الميذيثرا وأوراق الزعتر... استمهلني نيكوس وأخبرني بأن طبق اللحم

المطبوخ في طريقه إلي... كان الأمر لا يعنيني كثيراً، فهذه المقبلات وحدها كانت كافية لإرضاء ذوقي ومعدتي، ولكن الأمر كان قد صدر، وكنت على موعد مع لحم لذيذ مطبوخ بطريقة لا أعرفها ولكن أعرف نتيجتها وطعمها... من المؤكد أنني لم أكن قادراً على أن أُفرِّق بين حقيقة لذة هذه الأطباق وبين أثر الجوع الذي جعلني ربما أبالغ في الإحساس بلذتها... كان أصحاب المطعم هذا يحضرون كل شيء من أرضهم ومزرعتهم، وكانوا يأتوننا بكل ما صنعته أيديهم للتخزين والتموين الذاتي، فهم يكرمون ضيفاً كان جده كريتيّاً حقيقيّاً، وكانت توصيات العم نيكوس لهم بأن يجودوا عليَّ بكل طبق كريتي لا يمكن الحصول عليه في مكان آخر... ها قد جاء طبق سفاكيابيتا يصحبه إناء من العسل وكان لذيذاً أيضاً، ولكن الطعم الذي لا يمكن أن يغادر ذاكرتي كان طبق ستاكا المصنوع من زبدة الحليب الحقيقي، وكان طعمه يدل على مهارة وأصالة من قام بتحضيره... كان الطعام رائعاً، والجو رائعاً، والمكان رائعاً بكل ما في الكلمة من معنى... ما هذا يا سفاكيا، والله لقد دخلت إلى قلبي، وسأعود إليك مرة أخرى إذا عدت إلى كريت في يوم من الأيام... أما الآن فقد حان وقت العودة، خصوصاً وأن على نيكوس أن يكون حاضراً في قداس يوم الأحد، الذي سيبدأ عند الساعة السابعة صباحاً من يوم الغد، وكان عليه أن يستريح قليلاً ليقوم بواجباته في اليوم التالي من دون خلل أو تقصير...

وصلنا إلى خانيا في الساعة الثامنة مساء، وقد أخذ التعب مأخذه منا، فقررنا الانفصال حتى الغد، موعد اللقاء في الكاتدرائية لحضور القداس... كان نيكوس قد أعطاني الإرشادات والتعليمات الكافية لدخولي إلى الكنيسة من دون أي خطأ، وطمأنني إلى أنه بإمكاني الدخول والخروج ساعة أشاء شرط الحفاظ على أدب التعامل مع أي دار من دور العبادة... وبما أنني كنت منهك القوى من شدة التعب، فقد نمت نوماً عميقاً جدّاً، واستفقت عند الساعة التاسعة على أصوات الترانيم التي كان ينشدها صديقي هناك مع بقية رفاقه. سارعت بالتجهز وخرجت قاصداً الكاتدرائية...

وصلت إلى الباحة الأمامية للكنيسة، فوجدتها تزدان بكثير من الزهور والأقمشة والأعلام... كان الناس يتجولون بسعادة وحرية. يبدو أنه يوم كيوم عيد... وفيما كانت عظة الأحد تُتلى، كنت أدور حول الكاتدرائية لأشاهدها من كل الزوايا والنوافذ... دخلت من الباب الرئيس، فوجدت كثيراً من المصلين وقد جثوا على ركبهم وطأطؤوا رؤوسهم... كان واضحاً أن الناس كانوا خاشعين، فلم أشأ أن يصدر مني أي عمل يفسد عليهم ما هم فيه أو يشتت انتباههم بشيء قد أقوم به بلا وعي وإدراك... انسحبت من الكنيسة وجلست أستظل من حر الشمس تحت قبة الحمّام التركي المجاور، أنتظر صديقي لينتهي من صلاته فنجتمع سوية وننطلق إلى مكان آخر من خانيا...

كان الحمّام يبدو جميلاً... فهو كغيره من بقية الحمّامات في بلادنا الشرقية، يتميز بقباب كثيرة وصغيرة، فيها نوافذ من الزجاج السميك الناتئ... وهناك باحة أمامية مسقوفة هي الأخرى بقبة أكبر حجماً... كان المستحمون يستريحون في هذا المكان ويتناولون فنجاناً من الشاي الساخن أو الزهورات قبل خروجهم... لم يكن من الممكن أن نرى أي شيء من هذا القبيل، فقد تم تحويل هذا الحمّام التاريخي إلى متجر لبيع الثياب النسائية... دخلت المكان أدَّعي رغبة في شراء فستان أو حذاء، ولكنني كنت لا أنظر إلى البضاعة بقدر ما أنظر إلى القناطر الداخلية والقباب والشبابيك... لم أمكث طويلاً، فسرعان ما كان هاتفي يرن منبئاً أن القداس قد انتهى وأن نيكوس ينتظرني مع رفاقه المنشدين في أحد المقاهي الخلفية للكاتدرائية...

خرجت من الحمّام على عجل لأصل بعد أقل من خمس دقائق إلى مجموعة الأصدقاء الجدد... وها أنذا أحتسي فنجاناً من القهوة مع الرفاق... أصدقاء نيكوس من المتقاعدين الذين وجدوا سلوة لهم في الانضمام إلى جوقة الكنيسة... كان تقليدهم الأسبوعي يقضي بتناول القهوة بعد القداس، ثم الافتراق لساعة أو ساعتين، على أن يجتمعوا مجدداً في أحد المطاعم مع نسائهم لتناول وجبة الغداء... أنت ضيفنا اليوم أيها الكريتي المهاجر... أهلاً بك مجدداً في ربوع الوطن، وطن الآباء والأجداد... ومن منا كريتي أكثر

منك؟؟؟ هكذا قال ذيميتريس ونيكوس ويانيس... شكرتهم على دماثتهم وشديد لطفهم.... لقد أعطوني إحساساً كاملاً أنني في داري وبين جيراني، وأن ذلك القرن الذي أمضيناه بعيداً عن كريت قد تم طيُّه واختزاله إلى سويعات أو أيام قليلة ليس إلا...

وها نحن مجدداً بعضنا مع بعض، نجلس في مطعم تساليكي على تلة من تلال خانيا، تواجه البحر والخليج الكريتي الشمالي... كان الهواء عليلاً، وأصوات الأمواج الهادئة المختلطة بزقزقات العصافير تبعث في النفس بهجة وحبوراً... تركت الشبان العجائز يتسامرون، وبدأت أمشي ذهاباً وإياباً على الرمال، فاستوقفني مشهد صخرة كبيرة قابعة أمام الشاطئ... هرعت إلى صديقي أستوضحه وأسأله... التفت إليَّ مبتسماً، فقد اعتاد على كثرة أسئلتي، وقال: ماذا لديك الآن أيها الكريتي الشاب؟؟ قلت له: أخبرني قصة هذه الصخرة هناك؟؟؟ ضحك نيكوس واستدار نحو أصدقائه وحدَّثهم باليونانية فضحكوا جميعاً... قال: أتريد قصة لكل شيء أيها الفتى؟؟ إنها صخرة في عرض البحر والسلام... وستجد كثيراً من هذه الصخور في البحر اليوناني... ولكن دعني أقل لك شيئاً... إن هذه الصخرة الكبيرة تختلف عن باقي صخور العالم... فهي أمام شواطئ خانيا ولها قصة أيضاً سأخبرك بها حالاً... تقول الأسطورة: إن تنيناً ضخماً قرر في يوم من الأيام أن يلتهم كريت ويبتلعها... قالوا له:

إنها جزيرة الأحلام وسيدة عروسات البحر... لم يقبل الوحش أن تكون كريت لغيره أو أن يستأنس بحُسنها أحد سواه... فتوجه إليها يريد التهامها... ولما دنا من الشاطئ فاتحاً فمه، تصدَّت له الآلهة وزجرته، ولكنه كان مصمماً على إنجاز ما أراد... فغضبت عليه الآلهة وحولته إلى صخرة هامدة أمام الشاطئ ليكون عبرة لمن يعتبر... اذهب أيها الشاب إلى التلة هناك وانظر إلى فم الوحش... فستراه مفتوحاً كما كان قبل آلاف السنين... شكرت نيكوس على معلوماته وأساطيره، وقصدت التلة لأرى تجويفاً طبيعياً أشبه بمغارة في الجانب الضيق من الصخرة... جميلة قصصكم أيها الكريتيون.... سأروي حكاياتكم إلى أبنائي، لأنني متأكد من أنهم سيستمتعون بها ويحبونها... وقد تكون هذه الحكايات بداية مشوار حبهم لجزيرة أجدادهم... ضحكوا جميعاً وكذلك ضحكت أنا أيضاً لخفة دم هؤلاء الناس، وعدت إلى مقعدي أمام الطاولة بعد أن لاح لي من بعيد مشهد أطباق كثيرة كانت في طريقها إلينا... لم أشأ أن أُفوِّت الفرصة على نفسي، أو أن أترك كل هذه الأطباق للشبان العجائز المتجمهرين مع نسائهم يريدون ابتلاع كل شيء كما أراد التنين أن يبتلع كريت في يوم من الأيام...

كان الطعام مميزاً هذه المرة... فالأطباق كلها كانت من أسماك البحر وثماره المختلفة... وكان الطاهي بارعاً في جعل كل شيء يبدو لذيذاً... بدأ الأكل والسمر، وتبادل

الأخلّاء أحاديثهم التي كنت أشارك فيها باللغات كلها تقريباً... تارة باليونانية المتعثرة مع يانيس، وبالإنكليزية مع زوجته، وبالفرنسية مع زوجة ذيميتريس... ومضى الوقت سريعاً جدّاً، فحان موعد الفراق مرة أخرى... توجهت إلى الفندق لأستريح ولأكتب قصة زيارتي للجزيرة... نعم، لقد قررت اليوم أن أخطَّ هذه الذكريات الجميلة، وأن لا أدع الأمر برمَّته بعهدة ذاكرتي التي ستخونني في يوم من الأيام... وهكذا كانت البداية!!

فتحت باب الشرفة واستقبلت يالي تزاميسي ثم استنشقت نسيم بحر المرفأ... وبدأت أطلق العنان لقلمي ليخط كل ما دار في خلدي من خواطر وما عشت في كريت من أحداث... لم أكن متأكداً مما أفعل، ذلك لأن لكل إنسان جوانب يريد إخفاءها ومشاعر لا يريد إظهارها... ولكنني كنت قد قررت أن أكتب ببساطة كل شيء كما هو، كل لحظة عشتها بخوفها وقلقها وحزنها وسرورها وكل ما فيها... إن رحلتي هذه هي أشبه بحلم قديم تحقق... كنت أرى كريت بعين الحالم، ولم أكن في يوم من الأيام متأكداً من أنني سأزورها أو أعود إليها... أما وقد أصبح حلمي حقّاً، فواجبي يقتضي أن أروي كل شيء عنها وأن أُحدِّث عنها وأشهد عليها بما علمت... لا أكثر ولا أقل.

وغالبني نعاس شديد... واستدعاني النوم فاستسلمت إليه بيسر وسهولة... رأيت أني قد صغرت ثلاثين عاماً

وزيادة. . . . صبيّاً يجري مع أخته في أزقة الحميدية. . . ندق أبواب الجيران، ونركض بسرعة متخفين حتى لا يرانا أو يكتشف أمرنا أحد. . . كان الناس هناك لا يغتاظون منا أبداً، فقد عرفناهم عائلة كبيرة لنا، يجمع بيننا قدر الهجرة من جزيرة كريت. . . كنا كلما قدمنا من طرابلس، تقاطر الزوار إلى بيت جدتي للترحيب والتأهيل. . . جاء الأستاذ إبراهيم ومعه علي الصغير وأخته غنوة. . . كانت القرية هذه حلماً نريد أن نعيشه في كل عطلة، طويلة كانت أو قصيرة. . . فهي بالنسبة إلينا مكان اللعب والمرح والحرية. . . رأيت نفسي راكباً على عربة يجرُّها حصانان، تنتقل بي من حقل إلى حقل. . . هذه هي الحقول التي لطالما أحببتها. . . سهول تفيض خيراً بالذرة والفستق والقمح، وتجود بأنواع الخضار كلها، وتدر المواسم والمحاصيل ليقتات الناس وينتفع البشر. . . كانت هذه أرضنا وسهولنا في هذه القرية الصغيرة. . . فجأة، شعرت بخوف شديد ينتابني. . . لقد فعلها أبي مرة أخرى، فبعد أن نزلت من العربة، رفعني إلى حوض مياه فارغ فوق البئر الارتوازي فتركني فيه، ثم ذهب ليتفقد الزرع والعمال. . . أين أنت يا أبي؟؟ هكذا أنت دائماً. . . تتركني وتذهب. . . كم مرة قلت لك إنني أريد الذهاب معك حيثما تكون. . . لن أدعك تفعل هذا بي مرة أخرى. . . ثم رأيت أبي يضحك وهو ينزلني من الحوض ليضمني إلى صدره ويعدني أنه لن يفعل ذلك بعد الآن. . . ثم رأيت نفسي مسروراً ومبتهجاً، فقد قبل والدي أن

أنام معه في البيادر نرقبها في الليل الحالك لئلا يفتك بها لص أو يعيث بزرعها حيوان شارد. . . كنت سعيداً جدّاً بالنوم إلى جانبه في سرير واحد، ولكنني استيقظت في منتصف الليل وحيداً وسط السهول. . . لقد تركني أبي مجدداً. . . اليوم أيقنت أنه لن يفي بوعده أبداً. . . وسيتركني دائماً من دون سابق إنذار كما اعتاد أن يفعل باستمرار. . . انتظرت في مكاني جالساً أرقب نور الصباح. . . لعله يأتي بأبي معه، ولكن الفجر بزغ لينير الدنيا كلها ويجبرني على الاستيقاظ. . . مرة جديدة وحيداً في غرفتي في خانيا. . .

شواهد قبور المسلمين الكريتيين في أحد شوارع إيراكليو

١٢ حزيران ٢٠١١

صباح الخير يا خانيا... صباح الخير يا كريت... صباح الخير أيتها الأحلام التي أصبحت لا أميز بين ما هو حقيقي منها وما هو خيال... ترى، ماذا ينتظرني اليوم؟ وماذا عساني أرى وأشاهد؟؟ فاليوم هو آخر أيامي في خانيا... وغداً سيكون يوم جديد لي في مدينة جديدة... غداً تنتظرني إيراكليو، أكبر مدن الجزيرة وعاصمتها... ولكنني بدأت أشعر بشيء مزعج يقرص في جسدي... شعور بفقدان الأمان مجدداً.... غصة كتلك التي أحسست بها في حلم الأمس... يبدو أنها غصة الفراق... بيد أني لم أستطع أن أُحدِّد بعد، أهي بسبب أني سأترك خانيا بسحرها وجمالها؟ أم هو ألم فراق العجوز الكريتي؟؟

بدأت أتلمس قلبي وأتفحصه بحذر وتؤدة... فمعرفتي بالرجل لم تتجاوز أيامها الخمسة... ولكنه استطاع أن يوقظ في داخلي شعوراً كنت قد نسيته منذ زمن بعيد... ماذا فعلت أيها العم الكريتي؟؟؟ لقد كنت في غنى عن إيقاظ هذا المارد الذي غالبته سنين طويلة من دون أن أتمكن من صرعه، ولكني تمكنت من إخماد ناره التي ينفثها ويكوي بها قلبي ولبّي...

اعتدت أن أكون وحيداً... هكذا عودني قدري... اعتدت أن أتحمل مسؤولية نفسي وغيري وأنا لا أزال يافعاً طري العود، ليس لي حول ولا قوة... اعتدت أن أعامل مثل ما يعامل الرجال وأنا لا أزال في عمر البراءة والطفولة... كبرت قبل أن أكبر... مالك أيها الكريتي تعيدني إلى طفولتي؟!... تأخذ على عاتقك كل أموري... تجاوب على أسئلتي وترد على تساؤلاتي... لا تكل ولا تمل من مرافقتي؟!... تسألني عن احتياجاتي... عن نومي وأكلي وشربي... عن شعوري وإحساسي في وطن جدي... يبدو أني قد أحببتك أيها العجوز.... يبدو أني قد استسغت الاستسلام إليك... فأنت عرفت كيف تمارس معي دور الأبوة بشكل صادق... كنت أسرُّ عندما تقول لي: (أيها الطفل الكريتي)... وكنت أطرب لصوت ضحكتك تصدر من صميم قلبك عندما تشعر أنك أسعدتني بعمل أو قصة أو حكاية... ذكَّرتني ضحكتك بعمي عبد الحميد ﷺ... كان هو أيضاً يحب الصغار... يحب أن يضعنا في حضنه ويغنّي لنا باللغة الكريتية أناشيد الأطفال... كان يضحك هو أيضاً من صميم قلبه عندما يرانا نضحك... غريب أنت يا قدري... كيف سقتني إلى رجل كريتي مسن ليوقظ جميع الأموات من عائلتي ويضعهم أمامي دفعة واحدة... يبدو أن هذا الرجل قد استطاع أن يفعل ما لم يفعله غيره لعشرين سنة خلت من حياتي... أنا مدين لك بأشياء كثيرة أيها العم نيكوس... مدين إلى لطفك وجودك

وكرمك وعنايتك... إلى أبوَّتك وحنانك ورقَّتك... إني مدين لك بالشكر على كل شيء فعلته معي، إذ ليس لدي ما أكافئك به أو ما أردُّه إليك... ولكن لدي أن أشكرك وأشكرك وأشكرك.... لقد علَّمني أبي أن أشكر الناس، لأن الذي لا يعرف أن يشكر الناس لا يمكن أن يعرف كيف يشكر الله... والذي لا يرى جميل غيره عليه لا يمكن أن يرى جمال الله وكرمه ولطفه... هذه كلها أمور ليست محسوسة ولا ملموسة، ولكنها أمور قيِّمة لطالما تربيت أن أعيش معها وأن أوليها أهمية كبيرة...

جلست في غرفتي أنتظر العم نيكوس ليصطحبني إلى غرب الجزيرة... قال: سوف نذهب اليوم إلى كيسامو... وسترى طبيعة خلابة لم ترَ مثلها قبل اليوم... سندخل في وسط القرنين الكبيرين الناتئين من غرب الجزيرة، ثم سننعطف يساراً إلى الجنوب... إني أحاول أن أريك ما لا يستطيع سائح أن يراه... لأن هذه أرض جدك يا صغيري... ومن يدري متى تعود إلى هنا مرة أخرى... ومن يدري فقد تعود ولا تجدني... هكذا هي الحياة يا بني فلا تجزع... دعنا نعش الآن فرحة هذا اليوم وبهجته، ولننسَ ما ينتظرنا في الغد... فلا أنا أعرفه ولا أنت... إنما أعلم أنني مسرور برفقتك أيها الكريتي الشاب... أحببت فيك كثرة الأسئلة التي تطرحها... ورغبتك في أن لا يفوتك من حولك شيء... ودعني لا أبوح لك بسرٍّ عندما أخبرك أن صديقاً لي تنبَّه إلى غيابي هذه الفترة

فاتصل يعودني... قلت له: إنني بخير وإنني برفقة لبناني شاب من جذور كريتية... وشرحت له ما تيسر من حكايتك... وعندما طلب مني أن أحدثه عنك أكثر، بادرت فوراً إلى القول إنك كثير الأسئلة، وإنني لم أرَ في حياتي شخصاً يكثر من الأسئلة مثلك... ثم انتبهت إلى أنه يسأل عن شكلك وكسمك وجسمك... ضحكت قليلاً ثم تابعت وقلت له: إنك شاب كريتي مثل أي شاب يعيش هنا، ووعدته أن نلتقي إذا سمح وقتنا.... ولكنك ترى أننا في ضيق من الزمن، إذ لم يعد أمامنا إلا ساعات قليلة نمضيها معاً في خانيا.... ولكنك ستعود إلى هنا حتماً... قلت: وما الذي يدريك؟؟؟ قال: إنه السنُّ يا صغيري... ألا ترى أن لحيتي كلها بيضاء؟؟ أوَتظن أنها ابيضَّت عبثاً يا فتى؟؟ قلت: حاشى لله ...الله وحده يعلم متى أعود إلى هنا... ولكن سأدعو الله سبحانه أن يجمعني بك في خانيا مرة أخرى... تبسم نيكوس وقال: قد أجيبت دعوتك يا رجل... وسترى ذلك...

انطلقنا نسير ببطء نحو الغرب... حقّاً إنها جزيرة رائعة... كل ما فيها جميل... وكل منطقة فيها لها طعم جديد ونكهة خاصة... دخلنا وسط القرنين الشهيرين، فرأيت بحراً هادئاً محاطاً بالهضاب من كل ناحية، يكاد لونه يكون أصفر أو أخضر أو أحمر... بل هو الألوان كلها... فنحن في وقت المغيب، ولا بد لحمرة الشفق أن تمتزج بلون الأشجار الخضراء والسماء الزرقاء فتنعكس كلها ألواناً مختلطة

في هذا الجزء من بحر كريت... وقفت أتأمل المغيب مع نيكوس إلى أن غابت الشمس كليّاً، فكان إيذاناً لنا بأن ننسحب بهدوء من هذه المنطقة الخالية المهجورة...

إنه العشاء الأخير أيها الكريتي الشاب... قالها نيكوس وفي نفسه حسرة هو الآخر... قلت له ضاحكاً: ولكنك قلت إني سأعود... إذاً فهذا ليس العشاء الأخير... دعنا نتناول طعاماً كريتيّاً بحتاً كما درجت العادة منذ قدومي إلى هنا... قال: سنذهب إلى مطعم غرامبوسا في كيسامو، وسنأكل الفافا والستاكا المطبوخة، والدجاج بالفاسكوميليا، والسلطة الكريتية بجبنة الميذيثرا وغير ذلك... إني متأكد أنه سيكون عشاءً مميزاً... قلت له ضاحكاً: كل دقيقة نمضيها سوية هي مميزة... دعنا من كل هذا أيها العجوز... ولنستمتع بعشائنا هذا مع الأنغام الكريتية في جو يجمع الماضي بالحاضر... قال لي وعلامات التأثر واضحة على وجهه: أتعلم أنني احتفلت هنا منذ عدة سنوات مع زوجتي بعيد ميلادي؟... لقد أخذها الموت اللعين مني... وهو يعلم أني لا أستطيع أن أعيش من دونها... إن حياتي توقفت بعد رحيلها... هل تتخيل أنني لم أستطع أن أحرِّك في المنزل شيئاً من مكانه بعد وفاتها؟؟؟ كل شيء في بيتي لا يزال منسقاً ومرتباً بالطريقة التي وضعتها هي... إن المرأة تستطيع التأقلم مع الحياة بعد فقدان زوجها ولكن الرجل لا يستطيع... قلت له: إن معظم الرجال يتزوجون بعد وفاة زوجاتهم... قال: الرجال قليلو

الوفاء... وكيف تستطيع أن تنسى من قدَّمت حياتها كلها لك؟ أنا لا أقبل ذلك على نفسي... وليفعل بعدها كل شخص ما يحلو له ويطيب لنفسه... أما أنا فلا!!! أعجبت بوفاء صديقي لزوجته... وازداد احترامي له وتقديري لما يحاول أن يقوم به... وهممت أن أتابع التعليق على الموضوع، ولكن نيكوس كان يضع الدجاج في صحني مع أوراق الفاسكوميليا ويأمرني أن أتناول طعامي بهدوء.

تناولنا الطعام بهدوء وشاعرية... كان نيكوس هادئاً أكثر مما عرفته... كان يشرد كثيراً هذه المرة... يبدو أن المكان قد جيَّش خواطره كلها... نظرت في عينيه فوجدت فيهما سكينة رهيبة... قال: دعني أعطك بعض النصائح يا ولدي... الحياة قصيرة والعمر غفلة... فلا تكن في حياتك إلا قويّاً... لا تنتظر الأمور حتى تأتيك بل انتزعها أنت بنفسك انتزاعاً... لا تخف من أي شيء... فلن يصيبك إلا ما كتب الله لك... لا تدع أي أمر أو شخص يكبر في نظرك أكثر من اللازم... فكلنا في هذه الدنيا صغير... ولا تستصعب إنجاز أي أمر تريده وترغب فيه... لأن الجبال هانت أمام إرادة الإنسان... والحديد لان أمام حيلته وعقله... كن عقلاً وعلماً وإرادة ولا تنشغل بصغائر الأمور ولا بصغار البشر... لا تخاصم أحداً لفكرة أو دين أو اعتقاد... فكلنا يبحث في داخله عن شيء يريحه ويخفف قلقه ويهدئ روعته... لا تخف من الموت أبداً، وكن جاهزاً لأن

تموت في أي لحظة... ثم نظر في داخل عيني وتابع قوله بكل ثبات وإيمان... هل تدري أنني كنت أخاف الموت كثيراً؟؟؟ ولكني تعلمت أن لا أخافه، وأنا الآن جاهز للمثول أمامه بلا جزع ولا هلع!!! لقد رأيت الموت يصول ويجول أمامي يوم عرفت أن معظم شرايين قلبي قد تعطلت وظيفتها وأنني أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن أموت وإما أن أخضع للجراحة... وما من ضمان أنني لن أموت خلال الجراحة أو بعدها... كانوا يخيرونني بين طريقتين للموت ليس إلا... أو لعل هذا ما كنت أحس به وقتها... يومها قلت لنفسي إنني لن أخاف الموت وسأقاومه حتى الرمق الأخير... وها أنذا حي يرزق بعد كثير من المصائب والويلات... ابحث يا ولدي عن أي شيء يبعد عنك الخوف... فالخوف هو عدوّك وليس الموت... الموت حق على كل كائن حي، وهو حتماً سيأتيني ثم يأتيك... هكذا خلق الله الكون وهكذا وضع قوانينه... قلت له موافقاً: هذا كلام جميل أيها العجوز الشاب... شكراً لك على النصيحة... ولن أنسى هذه الأيام والليالي في خانيا.... فمرافقتك جددت إيماني وأيقظت وجداني من جديد، وكلماتك أعطتني دفعاً إلى مزيد من الجد والعمل... لن أنسى فضلك عليَّ أبداً ما حييت... ابتسم العم نيكوس ممتناً لشكري إياه واستحساني لكلماته... ثم هبَّ واقفاً وقفة الشباب... وكأنه يريد أن يثبت لي بالفعل لا بالقول أنه لا يخاف الموت ولا

يأبه به... نظر إليَّ بوجهه الكريتي الصلب وقال: إنه وقت العودة إلى البيت... هيا بنا... غداً سأوصلك بنفسي إلى إيراكليو، وسأطمئن بنفسي إلى مكان نومك وإقامتك، ثم سأتركك وأعود إلى خانيا وأنا مسرور بأني قد أديت الأمانة... قلت: قد أكرمت وأفضلت يا صديقي... وعسى أن أكون عند حسن ظنك بي... ردَّ عليَّ وهو يمشي نحو سيارته من دون أن ينظر في وجهي: غداً يوم جديد في مكان جديد... ولا مكان للخوف عند الكريتيين... فهم خلقوا ليكونوا أقوياء... أقوياء... هل تفهم ذلك؟؟؟

تذكرت والدي رحمة الله عليه وهو يودِّعني أول وداع... لقد كان ذلك اليوم أول فراق حقيقي بيننا... قال لي يومها كلمات مشابهة، وطلب مني أن أكون قوياً واثقاً من نفسي، أعتمد عليها بعد الاعتماد على الله في كل شيء، وأن لا أنزلق وراء أي أمر يُبعد بوصلتي عن الهدف الأساسي الذي تركت الأهل والوطن من أجله... قال لي: إن لكل شيء وقته وحينه، وإن عليَّ عدم استعجال أمر سيكون، وإن كل آتٍ قريب، وإن الزمن يعدو مسرعاً حتى لا نكاد ندري متى بدأنا جرينا ومتى وصلنا إلى خط النهاية... كان مضمون الكلام هو هو... لقد شعرت بيد أبي توضع على كتفي الأيمن من جديد، كتلك المرة يوم كان الوداع الأخير... يوم كنت أهمُّ بالرحيل لمتابعة الدراسة والتحصيل... قال لي أبي يومها: سنلتقي قريباً جدّاً يا ولدي... كن على ثقة بذلك...

فالأيام تمضي بسرعة هائلة، وليس للزمن أهمية طالما أنك موقن أن اللقاء سيحصل... لم يكن اللقاء الذي تحدَّث عنه أبي ممكناً أبداً بعد ذلك اليوم... لقد كان آخر عهد لي معه... ولعله تكلم عن لقاء ما في مكان ما بحيثية تختلف عن اللقاء الحسّي المعهود... وها أنذا أنتظره كما وعدته يومها، ولست مستعجلاً أمراً لا بد أنه آتٍ... لم يكن بوسعي أن أحبس دموعي أكثر... فلقد أحيا هذا الكريتي العجوز ما كان مقتولاً في داخلي... استحضر ذكريات طويت وأفكاراً قضيت ومشاعر سحقت منذ أمد بعيد... ويبدو أن هذه ميزة تجمع بين الكريتيين كلهم... يحبون الماضي ولا يملّون من العيش فيه... نظرت إلى عينَي صديقي فوجدتهما مغرورقتين بالدمع أيضاً... أنت أيضاً طفل أيها الكريتي العجوز... قلتها له فتبدد حزنه ضحكاً وتبسماً... قال: كل رجل وشيخ في داخله طفل يا عزيزي... والرجل الحقيقي هو من حمل في قلبه براءة الطفل وصدقه وصفاءه... وليس عيباً أن نعود إلى طفولتنا بين الفينة والفينة، لأن فيها كل شيء جميل... اذهب يا صغيري إلى النوم، فغداً سيرافقك والدك إلى المدرسة، وعليك أن لا تبكي عندما أتركك... عدني أن لا تفعل!!! قلت له: لن أعدك بشيء... غداً نلتقي لنكمل مشوارنا إلى حيث كُتب له أن يكون... فإلى اللقاء أيها الطفل العجوز... إلى اللقاء.

١٣ حزيران ٢٠١١

ها قد تلألأت أضواء صباح يوم الثلاثاء... إنه يوم الفراق يا خانيا...

لا أدري ما الذي جعلني أحبك كل هذا الحب... خرجت إلى الشرفة ألقي النظرة الأخيرة على كل التاريخ... مرفأ البنادقة... وجامع العثمانيين.... وفنار المصريين... والعلم اليوناني... قلت في صوت مرتفع: وداعاً يا خانيا... وداعاً أيها البحر... وداعاً يا أكروتيري وليفكا أوري... وداعاً أيتها الذكريات... لربما أعود إلى هنا يوماً ما، ولكن من يدري كيف ومتى، فهذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله...

رتبت أغراضي في الحقائب وتركت الفندق إلى باحة الكاتدرائية... هذا المكان الذي ينبض بالتاريخ بكل ما في الكلمة من معنى... شعرت أن الحجارة بدأت تتكلم اليوم... لقد أتت الأصوات تخترق أذني من كل مكان... أجراس الكنائس تدق، وترانيم المنشدين تنطلق أصواتاً جهورية عالية... في المقابل كان الأذان يلعلع من مسجد كوتسوك حسن باشا أو يالي تزاميسي، وخرير مياه الوضوء وهي تجري

منسكبة على سواعد المصلين يمتزج بصوت إقامة الصلاة... وفوق كل هذا وذاك، كانت أصوات نعال المهرولين إلى المسجد والكنيسة تأتي من كل جانب... تبّاً لك أيها التاريخ... تبّاً للشعوب عندما تقتل بعضها بعضاً وتذبح بعضها بعضاً وتستبيح لنفسها كل الحرمات... لماذا ظُلمنا في هذه البلاد؟! لماذا أُخرجنا من أرضنا وديارنا وأبنائنا؟! لماذا استبيح كل شيء لنا؟! ألم نكن كريتيين؟! ألم نتكلم اللغة نفسها؟! ألم نزرع الحقول نفسها؟! ألم نأكل من الأرض نفسها ونشرب من الينبوع نفسه؟! ألم نتفيأ ظلال الأشجار نفسها؟! لماذا هيجت غرائز الناس حتى هدرت كل الحقوق ورخصت كل الأرواح؟!

وبينا أنا في هذه المعمعة، إذا بنيكوس يطلُّ عليَّ بسيارته من بعيد... وبعد أن ركنها جانباً، وضعت حقائبي ثم جلست إلى جانبه، وانطلقت أعيد أسئلتي عليه كلها دفعة واحدة... قال: ماذا بك يا رجل؟ قلت له: قل لي بالله عليك... هل نحن كريتيون حقيقيون أم كنا جلباً استُقدم إلى الجزيرة فلفظتنا عندما سنحت لها الفرصة؟؟؟ قال: بل أنتم كريتيون مائة في المائة... قلت: فلماذا أُخرجنا من وطننا؟؟؟ لماذا صودرت أملاكنا؟؟؟ لماذا طُمست قبورنا؟؟؟ لماذا لماذا؟؟؟ قال: رويدك رويدك... أنت الآن تمرُّ في حالة رفض للواقع ونبذ للتاريخ... لا تصارع التاريخ يا بني... فلن تستطيع أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء مهما عملت وحاولت... تلك حقبة

مرَّت ولن تعود... لقد حكمنا العثمانيون سنين طوالاً، والحق أننا ما أحببناهم في يوم من الأيام... لقد نظرنا إليهم دائماً بعيون الكراهية... فهم قدموا إلينا واحتلوا أرضنا، وبدَّلوا كنائسنا إلى مساجد... ألم ترَ المئذنة على كنيسة سان نيكولا؟؟ لقد حولوها إلى مسجد تقام فيه صلوات المسلمين... وهذا ما حصل مع كثير من كنائسنا... فلما سنحت لنا الفرصة، قمنا بطردهم، فاستعدنا أرضنا وكنائسنا... هذا ما فعلنا... ما أظن أنا ظلمنا بذلك أحداً... قلت: أنت تبسِّط التاريخ يا صديقي... فالعثمانيون حكموا هذه الجزيرة ما يزيد على مئتي عام... وولدت أجيال وأجيال من بعد الأجيال... وصار من أبناء الجزيرة نفسها مسلمون... قال لي مقاطعاً: لقد اعتنق الإسلام كثير من السكان المحليين إما كرهاً وإما طمعاً.... فقد خاف من خاف على ماله وتجارته وأهله فاعتنق الإسلام ظاهراً ليبعد سيف العثمانيين عن رأسه، وطمع بعضهم الآخر في المنصب والجاه والامتيازات التي لم يكن العثمانيون ليعطوها لشخص لا يدين بدينهم... قلت: سأسلِّم معك جدلاً أن هذا الأمر قد حصل في بداية حكم العثمانيين... ولكن ما ذنب من أتى من أجيال بعد ذلك؟؟؟ كلنا يعتنق دين أبيه من دون تفكير... وقلَّة قليلة من تبدل دينها بعد أن تكبر... لماذا عاقبتم أبناء جلدتكم بهذه الطريقة؟؟؟ قال: نحن حاربنا العثمانيين ولم نحارب أبناء جلدتنا كما تظن... لقد قاتلنا العثمانيين ومن

كان معهم. . . وما ذنبي إذا كان جدك وقتها في صفوف أعدائنا؟؟؟

أطرقت أفكر في ما يقول. . . إنها في الواقع معضلة كبرى لا حل لها. . . كلنا يظن نفسه أنه على حق. . . هناك من أراد أن يحرر أرضه، وهناك من خاف على نفسه من التطهير الذي كان سارياً في كل بقعة حكمها العثمانيون من أرض أوروبا. . . ولكن ما ذنب الناس العُزَّل الذين كانوا في بيوتهم آمنين؟؟؟ لماذا دخلوا عليهم وأزهقوا أرواحهم؟؟؟ وكيف يمكن تبرير ذلك؟؟؟

تذكرت ما قاله جدي ليلة أن قررت السفر إلى كريت. . . وقررت أن أتوقف عن هذا النقاش العقيم الذي لن يصل بي إلى أي مكان. . . بل لعله يؤذي صديقي نيكوس، الذي بذل كل ما لديه ليُكرم ضيفه حفيد الكريتي المهاجر. . . وما ذنب نيكوس وأقران نيكوس في كل ما حصل وقتها. . . الحق يقال إنني ما وجدت من هؤلاء الناس إلا محبة وتكريماً. . . ما جفوني وما نبذوني، بل احترموا معتقداتي وديني ولم يُكرهوني على شيء لا أريده. . . هم أناس طيبون بكل ما في الكلمة من معنى. . . رددت لا شعوريّاً: تبّاً لك أيها التاريخ. . . تبّاً لك أيها التاريخ!!!

كان نيكوس يسير مسرعاً نحو إيراكليو. . . قلت له: على رسلك يا رجل. . . يبدو أنك قد مللت مني وانزعجت من أسئلتي. . . قال: لا. . . لا، ولكنني أريد الوصول إلى المدينة

في وضح النهار، حتى أرتِّب لك جميع أمورك ثم أعود إلى خانيا قبل ظلام الليل... فأنا كما تراني رجل عجوز... والأفضل أن أجتنب القيادة في الليل وحدي... شكرته مجدداً... قال: لا تشكرني على شيء... لقد كنت سعيداً جدّاً وأنا بصحبتك... أتفهَّم جميع مشاعرك وتساؤلاتك... أجيبك على أسئلة تدور في خلدك قبل أن تسألها.. ألم تلحظ ذلك؟؟؟ ضحكت موافقاً... تابع يقول: أنت الآن طبيب ولك عيال وعائلة... خذ من التاريخ ما يفيدك ودع منه ما لا يفيد... هذا وطن جدك بالتأكيد... تعال إلى هنا متى تريد... تمتع ببحر كريت وهوائها وشطآنها وطعامها وشرابها... لقد أضحت الدنيا قرية صغيرة يا عزيزي.... كل شيء في متناول اليد... وكريت أيضاً في متناول يدك كما ترى... تعال في المرة القادمة مع زوجتك وأبنائك، فسوف تتذوق طعم كريت بطريقة أخرى، وستجد لها نكهة مختلفة... ودعك من عقدة التاريخ وبشاعة الماضي... هذه نصيحتي إليك... خذ بها أو اتركها... إنه شأنك وليس شأني بعد الآن...

وصلنا إلى إيراكليو بعد ساعتين تقريباً، فالمسافة بين خانيا وإيراكليو هي بحدود مائة وخمسين كيلومتراً... كانت الطريق جميلة وممتعة... أشجار خضراء باسقة وارفة الظلال، وبحر هادئ شديد الزرقة يظهر ويختفي بحسب تضاريس وتعرجات الطريق... أضف إلى ذلك عدداً لا بأس به من القرى

الصغيرة على طول الجانب الأيمن للطريق... هذه هي كريت... مدن على السواحل وقرى كثيرة في الداخل والجبال... استقبلتنا إيراكليو بقلعتها الساحلية الكبيرة وبأرتال السوّاح الأوروبيين الذين يتنزهون على الشاطئ ويلتقطون الصور مع الحصون والقلاع القديمة... في الضفة المقابلة تظهر أعداد كبيرة من المقاهي والمطاعم والحانات... لم يكن نيكوس مهتمّاً كثيراً بأن أرى الشوارع وما فيها من آثار ومزايا... فمن المقرر أن أمكث في إيراكليو مدة طويلة تصل إلى أسبوعين... إن السواح عادة لا يمضون في المدن الكريتية أكثر من يوم أو يومين... فهي بالإجمال مدن صغيرة لا يحتاج المرء فيها إلى وقت طويل حتى يرى معظم آثارها ومعالمها... سيكون لديك الوقت الكافي لترى كل شيء وزيادة... قالها نيكوس وأردف بعدها: علينا أن نصل إلى مستشفى كريت الجامعي، فموعدنا عند تمام الساعة الثانية، وأنا لا أحب أن أتأخر عن مواعيدي...

وصلنا في الوقت المحدد... لقد كنت على موعد مع أحد الأطباء المشهورين في كريت... إنه رئيس قسم الجراحات السرطانية، وقائد فريق عمليات مكافحة السمنة... استقبلني بحفاوة فريدة، ورحَّب بي للانضمام إلى فريقه المعروف في اليونان بفريق الأمل... قال: لقد رتبنا كل شيء وحصلنا لك على إذن من إدارة الجامعة بالدخول إلى عملياتنا كلها في الوقت الذي تريده طيلة فترة إقامتك معنا... وسترى أنك

ستكون بيننا واحداً منا، وستشعر كأنك في بيتك ودارك... شكرته على لطفه وتعاونه... ثم أشار إلى أحد مساعديه ليرافقني إلى الغرفة التي أُعدَّت لي مسبقاً... كان نيكوس لا يفارقني بتاتاً... ذهب معي إلى الغرفة وتأكد من وجود كل المستلزمات فيها... ثم نزلنا سويّاً إلى محطة الباصات واستحصل لي على جداول عملها ومواقيتها... وأخيراً، قام باصطحابي إلى أحد الموتيلات القريبة من المستشفى وعرَّفني بصديقه مانولي... ثم نظر إلى ساعته وقال: بإمكاني أن أمضي بقية اليوم معك يا رجل... فموعد غروب الشمس لا يزال بعيداً... تعال أصطحبك إلى أحد أكبر حوض أسماك في أوروبا كلها... إنه هنا في إيراكليو... نظرت إليه مستغرباً... قال: هيا بنا، فليس أمامنا متسع من الوقت لنضيعه... ركبنا في السيارة وعاودنا الخروج من إيراكليو مسافة خمسة عشر كيلومتراً تقريباً... كان الأكواريوم في انتظارنا.... دخلنا إليه وتفرَّجنا على معروضاته... كان كل شيء منسَّقاً ومرتَّباً، فأمام كل حوض سجل كُتب عليه أسماء الأسماك بلغات عالمية مختلفة، إضافة إلى سماعات توضع في الأذن فتشرح بالصوت المسجل خصائص هذه الأسماك وأماكن تواجدها... في الحقيقة إن عالم البحار لا يعنيني كثيراً ولا يشد انتباهي بتاتاً... لذلك فقد أنهيت زيارتي إلى هذا المكان في فترة وجيزة نسبيّاً... نظر العم نيكوس إلى ساعته وقال: أنت محظوظ أيها الشاب... فلا يزال بإمكانك أن تستخدمني

لمدة ساعتين إضافيتين... قلت: صدّق أني لا أريد فراقك أبداً، ولكن أرجوك أن لا تدعني أقلق عليك، فأمامك طريق طويل، ومن المستحسن أن تذهب الآن... قال: أنا لم آخذ رأيك يا فتى، ولم أطلب منك إذناً... لا يزال أمامنا ساعتان نمضيهما سويّاً... وسنتناول غداءنا قبل أن أنطلق إلى خانيا... وهكذا كان...

جلسنا في مقهى أمام شاطئ رملي طويل، وتناولنا الطعام الكريتي كما هي العادة في كل مرة... إلا أن العم نيكوس كان يحرص على أن لا تتكرر الأصناف التي نتناولها... كانت الأطباق اليوم عبارة عن فطر وبطاطا وأسماك وغيرها... لم أسمح للعم نيكوس أن يحتسي التسيكوذيا كما جرت عادته... فوافقني بلا ممانعة ولا إصرار... كان هذا هو الطعام الأخير قبل الفراق...

كان كلانا واجماً في طريق العودة إلى المستشفى... هو يقود سيارته بكل هدوء وتؤدة... أما أنا فقد كنت أحبس دموعي بصعوبة بالغة... ولما لاح المستشفى في الأفق، بدأت كلامي بتكرار عبارات الشكر والامتنان، متمنّياً أن تسنح لي فرصة رد الجميل... قاطعني قائلاً: أنا لا أريد منك شيئاً ولا أنتظر أي شيء... لقد فعلت ما أحببت أن أفعله... ثم ركن سيارته أمام رصيف المستشفى من دون أن ينزل منها... وتابع النظر إلى الأمام مبقياً على نظارته السوداء أمام عينيه وقال: هيا اذهب الآن، أتمنى لك التوفيق... نزلت من

السيارة بسرعة، فقد كان كلانا يذرف دمعاً بشكل تلقائي وعفوي... الوداع أيها العم الصديق... وداعاً يا رفيق خانيا...

دخلت الباب الرئيس للمستشفى من دون أن ألتفت ورائي... كان ممرّاً طويلاً يؤدي إلى مبانٍ ثلاثةٍ... كل واحد منها مخصص لقسم طبي معيَّن... خارج هذه المباني كانت هناك أقسام أخرى تابعة للمستشفى الأساسي، تقدم خدمات متنوعة للأطباء والممرضين والعاملين، إضافة إلى الأهالي المرافقين للمرضى القادمين من بقاع بعيدة... وكان هناك مبنى خاص لمرضى العلاج الكيميائي والشعاعي... يتوسط كل هذا كنيسة صغيرة... بينما توزعت على أطراف المدينة الطبية هذه مقاهٍ صغيرة تقدِّم الوجبات السريعة والمشروبات المختلفة... هي إذاً مدينة صغيرة أُعدَّت بعناية لتقديم كل ما يلزم إلى زوار المكان الدائمين والمؤقتين... كان يلزمني بعض الوقت لأتعلم كيفية التنقل هنا... ولكن كان عليَّ أن أجد الغرفة التي سأقضي فيها ليلتي فوراً... دخلت وخرجت في طرقات كثيرة إلى أن اهتديت إلى السجن الانفرادي الذي كان عليَّ أن أُمضي فيه طوعاً حبساً اخترته لنفسي مدة أسبوعين كاملين... أوصدت باب الغرفة وخرجت إلى الشرفة فلم أجد يالي تزاميسي... وجدت البحر يتراءى إلى ناظري من بعيد، ووجدت جبلاً شامخاً أمامي وأشجاراً طويلة تتلاعب بأغصانها رياح قوية لا يقف بوجهها أحد... فالمكان بحد ذاته يقع

على تلة مرتفعة خارج مدينة إيراكليو... أحببت المكان بجمال طبيعته وهدوئه... تأملت طويلاً ذاك الجبل الأجرد الذي كان أمام شرفتي... كان صامتاً لا ينطق بشيء ولا يوحي بشيء... قلت له: تكلم يا هذا، فأنت حتى الآن صديقي الوحيد... تعال أخبرك أنني عندما ذهبت إلى اسطنبول عام ١٩٨٨ كنت وحيداً أيضاً في غرفة موحشة لا يكلّمني فيها أحد... ولكن فأرة صغيرة ظهرت عليَّ من بستان خلفي تطل عليه غرفتي... فحادثتها وحادثتني حتى صرنا أصدقاء لشهور كثيرة... لا تستغرب أيها الجبل الأشم، فالإنسان قادر على التأقلم مع أصعب الظروف طالما وُجدت قوة الإرادة والعزيمة... ولا تؤاخذني إذا قارنت صداقتك وأنت من أنت بعزتك وجبروتك بفأرة صغيرة من فئران اسطنبول.... لقد كان مثالاً لتوضيح الفكرة ليس إلا!!! بقي الجبل في مكانه صامتاً وكأن حديثي لم يعجبه... خاطبته مرة أخرى وقلت: انظر يا عزيزي، فليس أمامك خيار آخر إلا أن ترافقني وتصاحبني لأيام معدودات... هذا هو قدري وقدرك... لقد أتيت إلى هذه الديار لأسمع القصص والحكايات عن الأيام الخوالي... فأنا أبحث عن أي شيء مهما كان صغيراً أو تافهاً ليخبرني عن عائلتي وجدّي... أتفهم ما أقوله أيها الجبل الأخرس؟؟؟

دخلت الغرفة بعد أن يئست من أي حوار مجدٍ بيني وبين هذا الجبل العنيد... جلست أمام طاولتي مطرقاً رأسي

ومتفكراً في حالي... آه منك أيتها الدنيا... لقد عادت ذاكرتي إلى أول يوم قضيته خارج بيت أهلي في اسطنبول... فانطلقت المواجع القديمة كلها تتمثَّل أمامي... شعرت بتلك الحرقة يوم خرجت من منزلنا في طرابلس... تذكرت كيف كنت أبكي مثل الأطفال لأنني أريد أبي وأمي... تذكرت الدقائق التي كانت تأبى أن تمضي... فالوقت كان قد توقف آنذاك... كنت أسبُّ الغربة وأُدينها لأي سبب كان... كانت الوحدة تقتلني بعد أن كنت في منزل يعج بالحياة والنشاط... تذكرت كيف كنت أتوه في شوارع اسطنبول لساعات طويلة قبل أن أهتدي إلى منزلي في منتصف الليل مذعوراً ومنهكاً وجائعاً... تذكرت كيف كنت أجهش بالبكاء عند وقت كل طعام... لأنني لم أتعلم أن أتناول الطعام وحدي في منزلنا... كان على الطاولة دائماً أبي وأمي وإخواني... تذكرت حنيني إلى يد أمي التي كانت تلامس شعري ووجهي لتوقظني عند كل صباح... تذكرت الدفء الذي كنت أنعم به بين أهلي كيف تحوَّل إلى برد قارس ينخر العظام نخراً... تأملت مجريات الأمور في هذه الحياة... فما وجدت فيها إلا ما يؤلم ويُقلق... اللهم إلا ما عدا ذلك من محطات نادرة من الفرح والبهجة التي سرعان ما تتلاشى أمام واجبات الحياة ومتطلباتها... قلت للجبل: أعرفت الآن أمام أي نوع من الرجال أنت؟؟

لم يكن الجبل آبهاً بكل ما قلته وما شعرت به... استصغرت نفسي وأنا أُكلِّم عديم الإحساس هذا... هنا نطق

الجبل وقال: من أنت يا هذا حتى أعطيك اهتمامي؟ وماذا تظن نفسك قد رويت عليَّ؟؟ وما حجم معاناتك التي ذكرت أمام حجم البؤس والألم الذي شهدته وسمعت أنّاته آلاف السنين؟؟؟ أنت واهم يا من تظن نفسك أنك أدركت شيئاً من الحقيقة... الحياة أكبر من آلامك ومن آلام غيرك... قد وصلت إليك بعد أن مرَّت على ملايين آخرين... وستستمر من بعدك لتصل إلى ملايين غيرهم... كلٌّ لديه حكاية يحكيها وقصة يرويها... فلا تزعجني بترّهاتك وآهاتك، لأنني سمعت قبلك منها الكثير!!!

تبسَّمت في وجه الجبل... أنت محق يا صديقي... شكراً لك على النصيحة والموعظة... ولكن دعني أقل لك شيئاً... إن النار تحرق الموضع الذي تصيبه... لعلك وعيت قولي وفهمت قصدي... ردَّ عليَّ بامتعاض شديد قائلاً: النار في كل مكان يا أعمى البصيرة!!! وصمت الجبل صمتاً مطبقاً... وما كلّمني بعدها أبداً!!!

كان عليَّ أن أستسلم للفراش... فلقد أتعبتني كثرة الأفكار وتشعبها أكثر مما أرهقني السفر من خانيا إلى إيراكليو...

كانت ليلة هادئة جدّاً... ولكن هدوءها كان غير مريح على الإطلاق... شعرت بأنني في غرفة الخلوة التي ينزل إليها المتصوفون الزاهدون عبر سلَّم من أربعين درجةً تحت الأرض... مع قليل من الماء وبعض من كسرات الخبز الجاف... يتأملون ويتفكرون ويتعبدون... ويسبحون في

ملكوت الله ويتيهون في حبِّه... تذكرت كيف أن بعض المريدين كان لا يقوى على المكوث في هذه الحجرة لوقت طويل، وكيف أن بعضهم كان يصاب بالذعر والهلع... فكان يلجأ إلى حبل علقت عليه أصداف صغيرة ليهزه بعنف، فيُنبِّه بقية الدراويش إلى أنه ما عاد يطيق المكوث في غرفة الخلوة لفترة أطول... فيعمدون إلى إخراجه منها وقد رسب في الامتحان... امتحان الصبر والانتصار على النفس وترويضها... قلة قليلة من كان يستطيع اجتياز فترة الخلوة هذه بنجاح... فتحت عيني جيداً علَّني أجد الحبل، فقد شعرت بما شعر به آلاف المريدين من دراويش التكايا، ولكنني لم أجد شيئاً لأحرِّكه أو أهزّه... كانت خلوتي هذه مختلفة بعض الشيء... فهي فوق الأرض وليست تحتها، ولكن حبل النجاة غير موجود فيها، كما أن فترة الوحدة هي إلزامية على ما يبدو وغير قابلة للنقاش أو التعديل... أغمضت عينَي قسراً لعلِّي أجبر جسدي المتعب على النوم... ولكن عقلي كان يأبى إلا أن يعود إلى الماضي، فيزاحم الأفكار ويصارعها بعضها مع بعض في عراك ليس له نهاية أبداً... ولكن النوم غلبني في نهاية المطاف، فدخلت في عيّنة من عيّنات الموت المؤقت حتى الصباح... في أول ليلة من ليالي ميغالو كاسترو كما كانت تسمى عندما كان يسكنها جدي... نعم، فهي مدينة القلعة الكبيرة... هذه كانت سمتها وهذا كان اسمها... في يوم من الأيام قبل مائة سنة من الآن!!!

١٤ حزيران ٢٠١١

استيقظت في الصباح الباكر على أنغام الطيور، فسارعت بالخروج إلى شرفة غرفتي لأجد صديقي وهو لا يزال على شموخه وكبريائه... بادرته بإلقاء التحية وأنا على يقين أنه لن يجيب... فقد كان جدالنا بالأمس شديداً جدّاً... لعله قد وصل إلى درجة الخصام على الأرجح... تهيأت بسرعة وخرجت ألهث وراء حجارة إيراكليو علّها تخبرني بشيء عن جدي ورفاق جدي... كانت وجهتي حتماً نحو المدينة القديمة... كنت سعيداً جدّاً وأنا أشاهد جمال الطبيعة في إيراكليو، حتى وصلت إلى مشارف المدينة الجديدة فلاحت الأبنية والمقاهي والمحلات متزاحمة بشكل لم يعجبني بتاتاً... غريب أمر هذا الإنسان... ما دخل قرية إلا أفسدها... أين ذهب جمالك فجأة يا إيراكليو؟؟؟ ماذا فعلت بك السنوات؟؟؟ لقد كبرت حدودك واتسعت إلى حد كبير... لم يكن التعرُّف على المدينة القديمة أمراً يسيراً في إيراكليو... فهي تختلف تماماً عن خانيا التي لا تزال مدينتها القديمة واضحة للعيان... وبعد جهد وعناء، وصلت إلى ما أحسبه المدينة القديمة، وظهر المرفأ البندقي بقلعته الكبيرة على

الشاطئ... كانت المراكب السياحية والبواخر التجارية تملأ المكان... وكانت قوافل السواح تغزو القلعة من كل جانب... قلت سأنضم إلى هذه القوافل فتكون لي حصة أنا أيضاً من هذه القلعة... مشيت ومشيت... فما بدا لي صغيراً من بعيد كان حقيقة مترامي الأطراف كلما دنوت منه أكثر فأكثر... كان مبنى القلعة جزءاً من عدة مبانٍ أخرى بناها البنادقة على الشاطئ... خزانات وأرصفة وقناطر... وكان السور القديم لا يزال محافظاً على هيبته ووقفته رغم مرور مئات السنين على تشييده... وهذا أمر طبيعي... فلقد رمم العثمانيون هذه المباني إبّان عهد حكمهم للجزيرة، واستفادوا منها واستخدموها... ولكن الواضح أن ما من أحد فكَّر في ترميم أي شيء بناه العثمانيون... ولكن مهلاً... وماذا بنى العثمانيون في إيراكليو؟؟؟

مشيت يوماً كاملاً في شوارع المدينة لأكتشف أن ما من زاوية ولا حمَّام ولا مدرسة ولا جامع قد بقي في إيراكليو... كانت هناك بقايا مسجد في أحد الشوارع... وكانت هناك قناطر معدودة في بعض الأماكن تدل على أنها كانت سبيل ماء جارٍ في يوم من الأيام... إلا أن جميع الكتابات المنقوشة على هذه القناطر قد طُمست، كما أزيلت كل البلاطات الرخامية التي عادةً ما كان يكتب عليها العثمانيون آية أو جزءاً من آية من آيات القرآن، أو بعضاً من الأبيات التي تذكِّر الناس بالترحُّم على باني المكان أو قراءة الفاتحة على روحه... كان

هناك طمس للتاريخ بكل ما في الكلمة من معنى... وكان ذلك يبدو بارزاً بشكل واضح جدّاً في إيراكليو... آثار البنادقة ثم لا شيء!!! ولكن البنادقة كانوا قبل العثمانيين... والتاريخ يشهد أن إيراكليو كانت من المدن التي عرفت أكبر تجمُّع للسكان المسلمين في كريت... شعرت بخيبة أمل كبرى... يبدو أنني لن أجد شيئاً هنا... جلست على كرسي البلدية أتفيأ من حرِّ الشمس ووهجها وأندب حظي المتعثر... قلت: من غير الممكن أن لا أجد شيئاً هنا... وكيف يكون ذلك؟؟ هيا إلى السير مرة أخرى، فلا بد أن أصادف شيئاً في طريقي... انتصبت واقفاً وتابعت السير على غير هدى حتى أضناني المشي وأعياني بشكل كبير... وكان وقت المغيب قد اقترب... ففضَّلت أن أجد الطريق إلى البحر لأعرف كيف أعود أدراجي إلى غرفتي...

فجأة... ظهرت لي طرابيش وعمامات عثمانية من بعيد... أحسست بجميع قوتي قد عادت إلى بدني، فهرولت مسرعاً نحو هذا السراب... واقتربت أكثر وأكثر حتى بانت الحقيقة عارية بالكامل...

الله الله ...الله... ولكن لماذا؟؟؟ كانت العمامات والطرابيش هذه ما تبقى من شواهد قبور أجدادنا العثمانيين أو ما أرادوا له أن يبقى منها... فقد جرت العادة عند العثمانيين أن ينحتوا شكل العمامة التي كان يلبسها الشخص في حياته على الشاهد الذي يوضع على قبره... وكان ذلك إشارة إلى

مهنته أو وظيفته أو رتبته في حياته... لقد كان معمولاً بهذا التقليد في كل الولايات العثمانية... وكريت كانت إحدى هذه الولايات في يوم من الأيام...

لقد نزعت هذه الشواهد عن قبور أصحابها... فأُتلف منها ما أُتلف وسُحق منها ما سُحق... وترك بعض منها على زاوية من زوايا شوارع إيراكليو... ملقى بشكل مبعثر وغير لائق... من دون أدنى احترام لا للتاريخ ولا لأرواح الأموات... شعرت بقطرات من الماء تسيل على خدي... لقد كنت متأثراً ومحزوناً إلى درجة كبيرة... ولكن قطرات الماء كانت تزداد بشكل ملحوظ... وبدأت أشعر بها على رأسي... نظرت إلى السماء فوجدتها تبكي هي الأخرى!!! أحسست أن السماء قد شاطرتني حزني ونحيبي على ما تبقَّى من أطلال الماضي، لأن الأطلال نفسها قد أزيلت عن بكرة أبيها في إيراكليو... اقتربت من الشواهد أحاول أن أقرأ ما كتب عليها... ولكنها كانت مرمية فوق بعضها بشكل فوضوي بشع... هذا شاهد زوجة الميرالاي... فاطمة خاتون المتوفية عام ١٣٧١هـ وكان رأساً على عقب... وعلى الأرض شاهد صغير مُلقى كتب عليه: يا هو... دلال مفاروناكي، وهناك شاهد مميز كُتب عليه: هو الحي الباقي... محاسبة جي كريد يعني سليمان أفندي...

وقفت مطولاً أمام هذه المأساة ومطر السماء ينهمر على رأسي باستمرار... لم أجد شيئاً أفعله سوى أن رفعت يدي

إلى السماء، وقرأت الفاتحة على أموات كريت أمام ما تبقَّى من آثارهم... ثم تابعت سيري نزولاً وأنا أحدِّث نفسي بصوت مرتفع من دون أن أبالي... لقد كانت الشوارع قد خلت من المارة تماماً... وكانت السماء تمطر، وكان الجو كئيباً جدّاً...

وصلت إلى محطة الباصات فركبت أحدها، وعدت إلى صومعتي وحيداً... توجهت من فوري إلى الشرفة وخاطبت الجبل بينما كانت الشمس تختفي وراءه تدريجيّاً... قلت: أهكذا أنت دائماً أيها الجبل؟؟ تخفي الشمس وراءك وتحجب النور بصخورك وهامتك؟؟؟ هل تعلم ماذا رأيت اليوم؟؟؟ هل تعلم؟؟؟

لم أسمع لصراخي جواباً... ولكنه عاد إلى أسماعي صدى متلاشياً... لقد فهمت الآن ما قاله الجبل... أو لعلي ظننت ذلك... «النار في كل مكان... النار في كل مكان... النار في كل مكان يا أعمى البصيرة...».

وضعت خدي على الوسادة محبطاً... كانت كلمات كثيرة تدور في رأسي، وكان النوم لا يستطيع أن يقترب مني... قلت لنفسي: لماذا لم يحسب العثماني حساباً ليوم يصبح فيه ضعيفاً... لقد ظن بعد أن حكم الدنيا أن ملكه باقٍ ولن يزول... فتعامل مع كل الدول باستعلاء واستكبار... كان السلطان يحتقر السفراء... وكان يجعلهم ينتظرون ساعات وساعات، فينتقلون من غرفة إلى غرفة ومن صالة إلى صالة

قبل أن يدخلوا إلى حضرته جاثين على ركبهم ومطأطئي رؤوسهم... لم يدرك العثماني أن السلطان لا يبقى ولا يدوم، وأن القوة الأبدية لم تُمنح لبشري على الأرض منذ بدء التاريخ... والنتيجة أنه وبمجرد أن تبدَّل ميزان القوى، هبَّ الأوروبيون لنصرة إخوانهم... فهيؤوا الدعايات، ونشروا المقالات، وأججوا نار الاحتجاجات والثورات، وغذوا الغرائز والعصبيات، فبدأت المذابح بين أبناء الوطن الواحد، وكان الاختلاف الديني وقودها... مجزرة هنا تقابلها مجزرة هناك، والدم الكريتي يسيل بلا هوادة... ثم انقسم الناس دينياً ومناطقياً... فبدأت الهجرة الداخلية أولاً... كل يحتمي بعشيرته وملَّته ضد الطرف الآخر... قالوا: إن مجزرة كبيرة قام بها المسلمون في خانيا... ولم يتحدثوا عن مجزرة سبقتها في سيتيا قُتل فيها ألفا مسلم... قالوا: إن السلاح يجب أن يُجمع من الأهالي لتحقيق السلم واستتباب الأمن... ولكنهم جمعوه من طرف واحد وأبقوه في يد الآخر... قالوا: إن الدول الأربع ستحمي السلم في كريت... فأخرجوا العسكر العثماني بعد ألف حيلة وذريعة وعيَّنوا أميراً يونانياً والياً على الجزيرة... أمام كل هذه الأحداث المتسارعة، لم يكن أمام الكريتيين المسلمين خيار إلا الهجرة... فخرجوا مهاجرين بالآلاف... تحملهم القوارب إلى سفن، والسفن تقودهم إلى حيث شاء الله أن يكونوا...

لقد وزَّع العثماني رعاياه بين المدن والقرى المختلفة... إذ

لم يكن وضع الدولة المالي يسمح بتأمين المسكن والعمل لألوف الناس... وكانت الدولة ترزح تحت ديون تراكمت جرّاء بذخ سلطان تافه أو حكم وزير أخرق... فتشرذمت العائلات الكريتية، وأضاع الأخ أخاه وفقدت المرأة زوجها وأولادها... تذكرت قصة رواها لي عمي عبد اللطيف وقال إنه سمعها من أمه... عن امرأة كريتية سمحت لأطفالها بالنوم على سقيفة البيت في ليلة من ليالي الصيف الحارة... ثم استيقظت وسط الليل على صوت المطر... استغربت السيدة أن يهطل مطر في فصل الصيف، فأيقظت زوجها وخرجا ليطّلعا على ما يجري... لم يكن المطر سوى دم أطفالها الأربعة يقطر من السقيفة على أرض الدار بعد أن قضوا ذبحاً... اختلّت المرأة وفقدت نطقها وضمرت ضموراً شديداً لم تبرأ من بعده أبداً... قالت جدتي إنها كانت تعرف هذه المرأة جيداً... وإنها ماتت في الحميدية وحيدة بلا زوج ولا أولاد... قد تكون هذه قصة واحدة من بين آلاف القصص الأخرى... ولكن من يحكي ومن يدوّن حكايات المهاجرين الكريتيين؟؟؟ لم يكن هناك وقت كافٍ أمام العثماني ليدوّن قصص كريت، لأنه كان عليه أن يواجه قصصاً شبيهة في بلاد القرم والبلقان... وكانت الألوف المؤلفة من المهاجرين البلغار والصرب وغيرهم يتدفقون على ما تبقّى من أراضيه من دون ملجأ ولا طعام... قد يكون حظُّنا نحن المهاجرين الكريتيين أوفر من باقي المهاجرين... لأننا وفدنا في وقت

كان لا يزال عند العثمانيين شيء من قوة ومال... فأكرموا نساءنا وأعزّوا رجالنا... لقد روى لي عمي عبد اللطيف قصة قدوم المهاجرين إلى طرابلس كما أخبره بها أحد أعيان المدينة الذين عاصروا الحدث وشهدوه...

قال الشاهد: لقد وصل نبأ توجه المسلمين الكريتيين إلى ميناء طرابلس، وعلمت المدينة كلها بذلك... فقد صدر فرمان من السلطان عبد الحميد الثاني إلى والي المدينة يطلب منه أن يقيم حفلاً رسمياً لاستقبال إخواننا المهاجرين... كما طلب منه تأمين كل ما يلزمهم من طعام وشراب ومال وسكن ليقيموا بأفضل الشروط وأحسنها... وبالفعل، فقد كان الوالي بنفسه على رأس المستقبلين، يرافقه كاتب يسجِّل أسماء الوافدين المهاجرين، بالإضافة إلى الخزندار الذي كان يعطي كل رجل أو امرأة ما يلزم من المال... ثم حل المهاجرون ضيوفاً في الخانات التي استأجرتها الدولة العثمانية بشكل مؤقت ريثما يتم ترتيب السكن النهائي لجميع الناس....

وهنا يستطرد عمي فيقول: لقد أطلق السلطان علينا لقب المهاجرين وليس المهجَّرين، إكراماً لنا وتعزيزاً... كما أننا حللنا نزلاء في فنادق طرابلس، ولم يُلق بنا لا في العراء ولا في الخيام... لقد حفظ السلطان كرامتنا وأكرم وفادتنا... لقد كانت أوامره قد صدرت لإعطاء المهاجرين الحق في اختيار المكان الذي يريدونه من الأراضي الأميرية التابعة للدولة ليقيموا عليها منازلهم ودورهم... وقد خرج جدي

لأمي مصطفى آغا رالاكي على صهوة جواده يرافقه أحد الموظفين الرسميين من ميناء طرابلس باتجاه ساحل طرطوس... حتى إذا وصل إلى الحميدية، ورأى سهلها وبحرها، قرر أن يقيم فيها... فكانت قرية الحميدية التي خصصها السلطان عبد الحميد للمهاجرين وأُطلق اسمه عليها تخليداً للقصة والقضية...

لقد جافاني النوم في هذه الليلة بعد كل هذه المشاهدات والذكريات... فأمضيت ليلتي كلها بين قصص الماضي وواقع الحاضر... لقد رأيت كريت بأم العين، واطَّلعت على الحاضر بشكل صار يسمح لي بأن أتخيل ما حصل في الماضي... لقد بدأ المشهد يكتمل لدي... وازددت يقيناً أنني سأرى في الأيام المقبلة ما يُظهر الصورة أمامي بشكلها النهائي أو الأقرب إلى النهائي... أما وأن الخلوة توضح الصور دائماً وتجلِّيها، فقد بدأت أحب خلوتي في غرفتي، لأنها كانت تبعدني عن كل شيء إلا عن ذكريات الماضي وقصص العجائز الذين رحلوا عن هذه الدنيا... لم يكن في غرفتي مذياع ولا تلفاز، لم يكن فيها أي شيء يمنع درويشاً من الغوص إلى الوادي السحيق أو أن يحلِّق في أعالي السماء، لم يكن فيها من وسائل التسلية شيء يُذكر... كل ما كان فيها ضوء خافت وسرير... ولم يكن عليَّ إلا أن أطلق العنان لتلك الروح المكبوتة بين الأضلاع، وأن أحرِّرها من عقالها الذي وضعته فيها من دون أن أعلم أو أدرك أنني ما

أعطيتها الفرصة الكافية كي تكلّمني... هذه خطيئتنا نحن بني البشر... لم نتعلم كيف نصغي لأنفسنا، لأننا ـ مع الأسف ـ قد استسغنا رميها في صخب لا ينتهي، وضجيج ليس له معنى، وأهملنا ملامستها بكل ما من شأنه أن يريحها أو يخدم عجزها... هكذا نحن دائماً، لاهثون وراء متعة زائلة أو متاع لا يبقى... تذكرت قول أحد الصالحين: «كل ما شغلك عن الله هو شؤم عليك، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد فيها رأس كل خير وطاعة... فاعمل على أن يخلو قلبك مما خلت منه يداك...».

ليونداريا في إيراكليو

١٥ حزيران ٢٠١١

وبزغ فجر يوم جديد... لقد قررت اليوم أن أفتش بنفسي في بقايا الأرشيف العثماني لمدينة قانديا، وهو الاسم العثماني لمدينة إيراكليو، عن جذوري وجذور عائلتي... فقد أخبرني أصدقائي في كريت أن مكتبة البلدية تحوي أرشيف البنادقة والأرشيف العثماني على حد سواء، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الوثائق الدبلوماسية وغيرها من أوراق رسمية قد تفيدني في الوصول إلى ما أريد وأتمنى... وبعد إجراء الاتصالات اللازمة، توجهت إلى المكان المقصود... ولكن سوء الطالع جعل زيارتي إلى إيراكليو تكون في وقت ترميم المكتبة هذه وإعادة تأهيلها... لذلك فقد نُقلت الكتب والمخطوطات إلى مخازن مؤقتة، ولم يكن بإمكاني سوى مقابلة المسؤول الرئيسي عن الأرشيف العثماني مع مساعدته... تحادثنا مطولاً عن التاريخ... كان الرجل أكاديمياً جدّاً، بحيث إنه لم يحاول ولو مرة واحدة أن يحلل أو يتكهن... قال: إن لدينا أرشيفاً ضخماً بحاجة إلى الترجمة والتمحيص... ولقد قطعنا في ذلك شوطاً كبيراً... ومن المؤكد أن لدينا كل ما تريد أن تعرفه عن عائلتك وأقاربك...

ولكن العمل هذا يا صديقي يحتاج إلى شهور وشهور... ولا يمكن لقضية شائكة كهذه أن يحل لغزها ببضع سويعات....

ثم وقف واتَّجه إلى خزانة يبدو أن فيها فهارس ومعاجم عن الأرشيف... قال: لقد مرَّ معي اسم عائلتك منذ بضعة أيام فقط، وسأحاول أن أجد المخطوطة تلك... وبالفعل، فقد أحضر الرجل وثيقة تتحدث عن نزاع على حدود قطعة أرض يملكها رجل يدعي يانيس بصلاكي....في قرية تدعى فنيراتو تابعة لمدينة إيراكليو... مؤرخة عام ١٨٧٣م... في هذه الوثيقة، ورد اسم سيدة تدعى تشينار بكراكي وميخائيل بصلاكي وأنطونيو غيرونوماكي كأشخاص يملكون أراضي مجاورة للعقار المتنازع عليه في القرية نفسها... كان تشينار اسما تركياً معروفاً يعني: شجرة السرو، وهو لا يزال يستعمل بكثرة حتى الآن في تركيا... أما الأسماء الأخرى فكلها تدل على أن أصحابها كانوا مسيحيين... لقد شد انتباهي اسم عائلة بصلاكي، فهي من ضمن العائلات المهاجرة إلى طرابلس... سألته إذا كان من الممكن أن نجد مسلمين ومسيحيين من العائلة الواحدة نفسها في تلك الحقبة التاريخية؟؟ فأجاب بالإيجاب وقال: يبدو أن الأمور الدينية كانت معقدة قليلاً في الجزيرة آنذاك... فمن الممكن أن يكون إخوة أو أولاد عم يدينون بدين مختلف... وأردف يقول: كل من اعتنق الإسلام صار عثمانياً... وبالتالي، فمن الممكن أن تجد اسم العائلات المهاجرة نفسها موجوداً في كريت حتى

الآن... لقد هاجر المسلمون العثمانيون ولم تهاجر العائلات الكريتية... هل فهمت الفرق؟؟؟ قلت له: طبعاً طبعاً... أنا أعرف الفرق تماماً... وتابع المسؤول يقول: إن معظم المهاجرين المسلمين هم كريتيون حقيقيون، ولكنهم كانوا يلقبون بالكريتيين الأتراك نسبة إلى إسلامهم... بينما يختلف الأمر تماماً في جزيرة قبرص... نحن كنا أمة واحدة في كريت، أما في قبرص فيمكن التحدث عن عرقين مختلفين... اليونان والأتراك...!

شكرته جزيل الشكر على المعلومات التي أفادني بها بحسب معرفته وقراءاته، كما أبديت له امتناني على تعاونه ولطفه... فوعدني أن يتابع قضيتي حالما ترجع الأمور في المكتبة إلى سابق عهدها... وبعد أن تبادلنا معلومات التواصل، غادرت المكان لأتابع تجوالي في المدينة القديمة... خرجت من المكتبة العامة VIKELEA، وتوجهت إلى ساحة الأسود أو ليونداريا... وهي مكان أقامه البنادقة فوق نبع مياه عام ١٦٢٩م... الجميل أن المكان لا يزال يحتفظ بكامل رونقه وحسنه بعد مرور حوالي أربعمئة عام على بنائه... بركة كبيرة يتوسطها عمود ضخم يربض عليه أربعة أسود، تحمل على رؤوسها صحناً كبيراً تخرج المياه من وسطه... كانت المياه تخرج أيضاً من أفواه الأسود لتصب جميعها في سبع دوائر متلاصقة تتوسط البركة الكبيرة... بناء معماري رائع يجتذب أعداداً هائلة من السوّاح يوميّاً... كان السوّاح يلتقطون صوراً

تذكارية مع الأسود ثم ينطلقون إلى مبنى أثري مجاور... هي كنيسة كاثوليكية قديمة حولتها البلدية إلى معرض للرسوم واللوحات الزيتية... وليس بعيداً عن هذا المكان وذاك، كان هناك مبنى عثمانيٌ يتيمٌ يقولون له (والدة تزاميسي)... إلا أني لم أرَ سوى مبنى سداسيٍّ صغيرٍ تخرج منه أفواه مياه معطلة، وأرجِّح أنه كان خزاناً أقيم بجانب المسجد للوضوء... إنه اليوم يتوسط مقهى كريتيّاً تقليديّاً يرتاده السكان المحليون ولا يكترث له الأجانب بالإجمال... أحببت المكان لأنه كان مجموعة من آثار ذات انتماءات مختلفة، ولكنها كانت قريبة بعضها من بعض... لتروي للناس كيف أن الأيام هي مداولة بينهم... جلست في المقهى، وشربت فنجاناً من القهوة المثلَّجة، ثم قمت وتابعت المسير...

لقد بدأت أشعر نفسي كريتيّاً حقيقيّاً... فأنا أمشي في الشوارع من دون دليل، وأنتقل من مدينة إلى أخرى من دون أي صعوبة تُذكر... والحق أن الأمور كانت منظَّمة في الجزيرة بشكل ملفت... وعلى الرغم من ذلك، فإن شعوري وأنا أسير بمفردي في أزقة إيراكليو كان شعوراً جميلاً... لقد كنت أعيش الحاضر والماضي معاً... صحيح أن كثيراً من الأمور كانت تؤلمني وتوقظ ذكرياتي، ولكن الحق أنني لن أنسى هذه الزيارة في حياتي لكثرة ما كان فيها من أحداث وشجون، وفرح وحزن، وضحكات ودموع....فهذا هو الإنسان... هو مجموع كل تلك المشاعر... المفارقة

الوحيدة هنا أنني عشتها كلها بقوة بالغة ممزوجة بعضها مع بعض في فترة قصيرة نسبيّاً... المهم أنني الآن في وطن جدي... أستشعر وقع خطواته ودعسات أقدامه... وأتبعه خطوة خطوة في رحلة إلى الماضي، وفي مغامرة أردتها طوعاً عن سابق إصرار وترصُّد...

كم كنت أتمنى أن أجد منزل جدي، أو أن أرى المكان الذي وُلد فيه بحذافيره القديمة! كل ما توصلت إليه كان أن جدي وُلد في منطقة أسماها العثمانيون (عنادية)، وكان فيها قلعة كبرى قام ببنائها السردار حسين باشا على بعد أربعة كيلومترات جنوباً من القلعة القديمة في المرفأ البندقي. كان هدفه هو إحكام الحصار على المدينة والسيطرة على كل طرق إمداداتها... وعندما وافقت الدولة على بناء القلعة الجديدة، بدأ المهندسون ببنائها في ٢٥ ربيع الأول عام ١٠٦٠هـ على تلة مشرفة بحسب أوامر السردار، فتم تشييدها خلال ستة أشهر فقط، حيث عمل فيها ما يزيد عن عشرة آلاف عامل يوميّاً... وافتتحت القلعة الجديدة صباح عيد الفطر من السنة الهجرية نفسها، وأقيمت صلاة العيد في المسجد المجاور لها. وبعد أن أحكم العثمانيون السيطرة على كريت أهملوا قلعة عنادية، ويقال إنها ذهبت ضحية إحدى اتفاقيات السلام مع البنادقة لاحقاً فدمَّرها العثمانيون بأيديهم!!!

قيل لي: إن تكية بكطاشية كانت موجودة هناك، ولكن الحق أنني لم أصل إلى أي أثر أستطيع أن أقتفيه للوصول إلى

المكان المنشود... فمعظم الآثار العثمانية في إيراكليو لم تعد موجودة إلا على لوحات بعض الرسامين... كان عليَّ أن أقنع بالقليل في هذه الزيارة، وأن أمنّي نفسي بتحقيق المزيد في زيارة لاحقة...

كانت هذه أقصر مسافة استطعت أن أقترب من خلالها إلى بصمات جدي، وآثار أقدامه الصغيرة، يوم خرج من الجزيرة وعمره لم يتجاوز سبع سنوات...

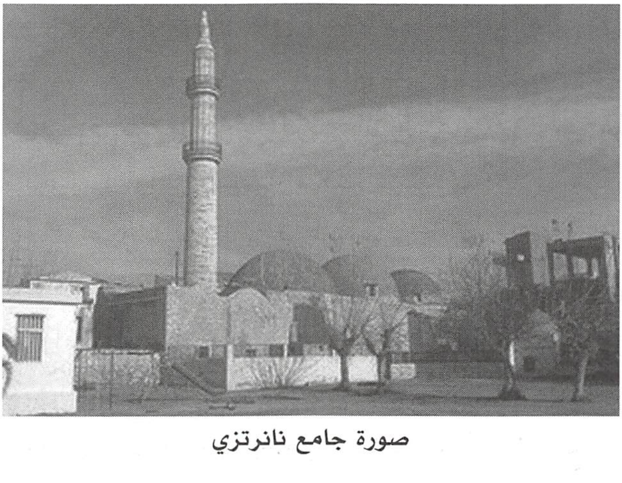

صورة جامع نانرتزي

العودة إلى خانيا...

لقد مرَّ الوقت سريعاً... وها أنذا على مشارف عطلة نهاية الأسبوع الأول في إيراكليو... لقد مضى على وجودي في كريت أسبوعان كاملان... ومع أنها فترة قصيرة نسبيّاً، إلا أنني أعتبر نفسي محظوظاً بشكل كافٍ لأنجز ما أنجزته في هذا الوقت القصير... أحسست بالحنين إلى يالي تزاميسي الذي أضحى بالنسبة لي رمزاً لوجود جدي في هذه الجزيرة في يوم من الأيام... اشتقت إليك يا كوتسوك حسن تزاميسي... اشتقت إلى أخبارك وقصصك وحكاياتك... اشتقت إلى عبق التاريخ الذي يفوح من أبوابك الموصدة ونوافذك المسدودة... وومض في ذهني تساؤل محقٌّ... قلت: وهل سيمدُّ الله في عمري حتى أعود في يوم من الأيام إلى كريت لأزور هذا المسجد؟؟... من يدري؟؟ ربما أعود وربما لا أعود... إذن فسأشد الرحال إلى زيارتك اليوم من دون أن أترك الأمر للمجهول... أمسكت بالهاتف واتصلت بالعم نيكوس... ردَّ عليَّ بفرح شديد سائلاً عن أحوالي في إيراكليو... قلت له: إني في طريقي إلى خانيا أيها الكريتي العجوز... فارتقب قدومي خلال فترة لا تزيد عن

ساعتين... ضحك العم نيكوس وكأنه كان يعرف مسبقاً أنني راجع إليه لا محالة... وقال: ستجدني أمامك عندما تنزل من عربتك أيها الكريتي المجنون...

كان الطريق بين إيراكليو وخانيا جميلاً جدّاً... ولكنني سلكت طريق الأسبوع الماضي نفسها... فلماذا أراها اليوم أجمل وأحلى؟؟؟ جاء الرد سريعاً هذه المرة ومن دون طول تفكير... ففي المرة السابقة كنت في طريقي إلى المجهول، وكانت تفصلني دقائق معدودة عن الافتراق عن نيكوس... أما اليوم فأنا راجع إلى الوصال... وصال الأحبة كلهم من بشر وحجر...

وفي منتصف الطريق، مرَّ الباص داخل مدينة جميلة سحرتني بكل ما فيها... فقد نادتني مئذنة قديمة مزروعة بين بيوت كثيرة... وتراءت لي من بعيد قلعة ضخمة... هذه هي رثيمنو... التي تبعد ثمانين كيلومتراً عن خانيا... كنت أريد أن أقفز من الباص لأستنطق الحجارة هناك، ولأُكلِّم المئذنة علَّها تعرف عن جدي شيئاً... كان قلبي يخفق بسرعة كبيرة... أقسمت بالله أني سأعود إلى رثيمنو في زيارة خاصة... ولن يكون الأمر بعيداً... بل سيكون في أقرب فرصة ممكنة... هذا وعد وعهد... وسأحققه بإذن الله!!!

وصلت إلى خانيا قبل أن يصل نيكوس إلى المحطة... كانت تلك فرصة جيدة لأتعرف على المكان بكل تفاصيله وزواياه... فانتظرته في مكان أستطيع أن أرى قدومه من دون أن يلحظني... وهكذا كان... فقد وصل نيكوس وبدأ يفتش

عني يمنة ويسرة... ولم أدع الوقت يضيع كثيراً... فخرجت من توي أمامه قائلاً: لم أكن أتوقع أن أراك بهذه السرعة أيها العجوز... نظر في وجهي وقال: أنت رجل غريب الأطوار... مثلك مثل أي كريتي آخر... أهلاً وسهلاً بك في خانيا مرة جديدة... ولكن دعني أخبرك أن غداً هو عيد جميع القديسين عندنا... وأنا أحتفل به مع أصدقائي بطريقة مختلفة... فقد درجت عادتنا منذ سنين بعيدة على أن نخرج ليلة العيد هذا إلى قرية تبعد حوالي عشرين كيلومتراً عن المدينة... هناك صديقة لنا قد توفيت منذ فترة ودُفنت بجوار كنيسة صغيرة بنتها قبل أن تموت في أرض تملكها بجوار منزلها الصيفي الذي كانت تسكنه... نحن نزورها مرة في السنة... نفتح أبواب كنيستها، ونقوم بقداس مسائي مع بقية فرقة منشدي الكاتدرائية التي تعرفها... وأنا اليوم ذاهب إلى هناك... قلت له فوراً: وأنا ذاهب معك إلى هناك أيضاً... أنتم تقومون بقداسكم وأنا أتجول في ريف خانيا... أليس هذا جميلاً... أخبرني... أليس هذا رائعاً؟... قال: لا مانع من قدومك أبداً... وبإمكانك دخول الكنيسة متى تشاء... فالمكان صغير وعددنا محدود جدّاً... لا عليك... ستكون رفيقي أيضاً في هذا التقليد السنوي... كم أنت محظوظ أيها الكريتي الصغير!!!

وضعنا الحقيبة في الفندق واتجهنا مباشرة إلى القرية... كان نيكوس على موعد مع ثلاثة رفاق آخرين... وخلال

الطريق تعارفنا بشكل جيد، وتبادلنا بعض الأحاديث عن الكريتيين المهاجرين في لبنان وسوريا... لاحظت أن هؤلاء الناس كانوا سعيدين جداً بلقاء حفيد أحد جيرانهم السابقين... ثم وصلنا إلى القرية... وأخذ كل واحد منهم يتهيأ للقداس... فوجدتها فرصة سانحة لي لأتسلل هارباً إلى الخارج، فأكتشف جمال الطبيعة، وأتجوَّل في ريف خانيا مشياً على الأقدام... فهذا كان من ضمن ما تمنيته وأملت نفسي فيه... كانت الطريق معزولة تماماً ومنقطعة... إلا أنني كنت أمشي مسروراً من دون أن أشعر بأي رهبة أو خوف... وفجأة رنَّ هاتفي... لقد كان نيكوس يصرخ مذعوراً... أين أنت أيها المجنون؟ وكيف خرجت من هنا؟؟؟ ارجع حالاً يا فتى... قلت له: رويدك رويدك... أنا أتنزه في الخارج ليس إلا، وليس هناك في الأمر ما يريب... ردَّ عليَّ حازماً كما لم أعهده من قبل: ارجع أيها الصغير... سوف تُظلم السماء بعد قليل، وستواجه متاعب أنت في الغنى عنها... عُدْ إلى الكنيسة فوراً... هذه كنيسة مسيحية ليس إلا... ونحن لا نقتل المسلمين في كنائسنا... ضحكت لهذه الفكاهة وقلت له إنني سأعود في الحال... كان العجوز ينتظرني خارج الكنيسة بعد أن ترك القداس وعاف كل شيء ليجدني ويطمئن عليَّ... أحسست أني قد أذنبت بحق الرجل وأفسدت عليه قداسه السنوي من دون أن أقصد... اعتذرت له مراراً... ولكنه لم يردَّ عليَّ واكتفى بالقول: اتبعني حيث أذهب، ولا تبتعد عني

أبداً... هل فهمت؟؟؟ كان نيكوس هذه المرة حازماً بشكل لم أستطع بعده مخالفة أوامره... وراح الرجل يقترب من الكاهن الكبير الذي يترأس القداس وأنا أتبعه كما يتبع الطفل أباه... سألت نفسي: ماذا ينوي هذا العجوز أن يفعل؟؟؟ كنت أخشى من أن أقوم بأي تصرف يفسد الأمر أكثر مما فعلت... ولكن نيكوس انعطف من طريق ضيق إلى ممر يؤدي إلى الباحة الخلفية للكنيسة... وتابع سيره إلى أن وصلنا إلى ردهة طويلة وُضعت فيها الطاولات ونسِّقت عليها الصحون والملاعق... التفت إليَّ وقال: قريباً ينتهي القداس... اذهب واجلس في تلك الزاوية... هناك ستأكل ما تريد وتشرب ما تريد من دون أن يزعجك أحد...

ثم انتهى القداس وتوجه جميع الحاضرين إلى المائدة... وبدأت أصناف مختلفة من الطعام توضع على الطاولات بوتيرة متسارعة... جلس الكاهن ومساعدوه في الوسط، وبدأ الطعام والشراب بشفاعة جميع القديسين وعلى روح من بنت الكنيسة ووهبتها... كان كلهم يأكل ويشرب ويتسامر ويضحك ويقهقه... وكنت مثل الأطرش ليلة زفاف العروس... ضحكت لمن ضحك في وجهي وبادلت الابتسامة لمن منحنيها... وبقيت على هذه الحالة حتى شبع الناس وقاموا... فقمت معهم... توجهنا إلى سيارتنا لنعود أدراجنا إلى خانيا...

شكرت الله أن الموضوع انتهى عند هذا الحدِّ... نظرت إلى نيكوس فوجدته مسروراً وفرحاً... ففضَّلت أن أتابع

الطريق بصمت ومن دون مداخلات وأسئلة... ولكن العجوز سرعان ما انتبه إلى صمتي الذي لم يتعوده قط... قال: هل أعجبك المكان؟ قلت له: هو مكان جميل وهادئ... وعلى كل حال، فلقد أعجبني لدرجة أني تركت بصمة لي على إحدى الصخور هناك... ولعل أحداً من أحفادي يزور المكان في المستقبل، فيجد ما فعله جده... ألم ترَ أني تركت كل شيء ورائي وجئت إلى هنا لأجد أثراً من آثار جدي؟؟؟ صحيح أن الأيام لا تترك مجالاً للآثار الصغيرة أن تعيش، ولكنها محاولة من المحاولات التي أقوم بها دائماً... وأنا أدعو الله أن يبقي من بعدي أثراً يدل على وجودي، كما أدعو الله أن يكون الأثر الذي أتركه نافعاً للناس كلهم... وهنا يجب أن أوضح أني لا أقصد بذلك تلك الكلمة التي قمت بنحتها على الصخرة في القرية تلك... فهي لن تدوم أكثر من عام... وأنا أعرف ذلك جيداً... هزَ نيكوس رأسه بطريقة لم أستطع أن أعرف بعدها إذا كان قد فهم من كلامي شيئاً أو تجاوز ما قلته ببساطة... ولم يكن أمامي متسع من الوقت لاستكمال الحديث، فقد وصلت إلى فندقي وكنت متعباً جدّاً وأرغب في النوم... قال: سأخابرك غداً بعد الانتهاء من قداس الأحد... وسنجد بالتأكيد ما نقوم به سوية... فانتظرني ولا تهرب كما فعلت اليوم... قلت: سمعاً وطاعة أيها العجوز... ستجدني إن شاء الله صابراً ولن أعصي لك أمراً...

استيقظت في اليوم التالي... وانتظرت المكالمة بحسب

التعليمات. . . ولم يطل انتظاري، إذ حادثني نيكوس وأخبرني أنه ذاهب إلى بيته لتبديل ملابسه، وأنه ينوي بعد ذلك أن يفتتح موسم السباحة معي هذا العام. . . وافقت على الفكرة فوراً. . . فالطقس كان شديد الحر، وليس مؤاتياً للقيام بأي نزهة أو استكشاف في أي مكان آخر. . . رجوته أن نذهب إلى مكان هادئ. . . فكريت هي جزيرة كبرى. . . وشواطئها لا تنتهي. . . ولا رغبة لديَّ في الذهاب إلى مكان يتزاحم فيه الناس وبخاصة الأجانب. . .

قال: وهل لديك من طلبات أخرى؟؟؟ قلت له: نعم. . . أتمنى أيضاً أن يكون الشاطئ الذي نقصده رملياً وأن تكون مياهه هادئة وغير عميقة. . . قال: مهلاً. . . فهذه شروط أطفال يريدون تبليل أرجلهم بالماء، وليست طلب من يريد السباحة. . . أما أنا، فأريد شاطئاً صخرياً مياهه عميقة حتى أستمتع بالبحر. . . قلت له: يا عزيزي وصديقي، لقد رأيت البارحة خوفك عليَّ واهتمامك لراحتي. . . فإذا كنت قد بدلت شعورك تجاهي فلا حول ولا قوة إلا بالله. . . وإن كنت لا تزال تريد سعادتي فنفِّذ رجائي ولا تجعلني أشعر بالخجل أكثر مما أنا عليه الآن. . . ضحك نيكوس مستمتعاً: آه يا صغيري. . . قد فهمت المشكلة كلها. . . فوالدك لم يعلمك السباحة. . . أليس كذلك؟؟؟ قلت له: ببساطة أنا لا أجيد السباحة أبداً، وسأغرق حتماً إذا ذهبت بي إلى شاطئك الصخري الممتع. . . جاوبني فقال: سوف يعلِّمك عمك السباحة، وستجد أنك ستسبح كالدلفين خلال عشر دقائق

فقط... ضحكت ساخراً وقلت: أنت كثير التفاؤل أيها العجوز... قاطعني وقال: أنت كريتي يا فتى... وعلم الوراثة يقول إن كل شيء ينتقل من الجد إلى الأبناء تلقائيّاً... ولا يوجد كريتي واحد لا يجيد السباحة... فنحن أصحاب البحار أيها الصغير... اصمت، اصمت... وهيا لترى بنفسك كم أنت كريتي حقيقي...

كان نيكوس قد حضَّر كل شيء... المناشف والأحذية والنظارات وغيرها وغيرها... قلت: ما كل هذا؟؟؟ قال: إنه لك يا طفلي... عليك الآن أن تفعل ما أقوله حرفيّاً... كما أتمنى أن لا أسمع صوتك مدة عشر دقائق فقط!!! تذكرت القول القديم الذي يقول إن الإنسان يمشي إلى قدره برجليه... وسيكون حتفي بالتأكيد وأنا أمشي اليوم مع هذا العجوز...

رمى نيكوس نفسه في الماء وناداني... تعال يا طفلي... انظر كيف أقف على رجليَّ... لا تخف.... فالبحر ليس عميقاً هنا... تعال... لحقته وأنا أحوقل وأتذمر... كان يضحك ويقول: سوف أثبت لك أنك لن تستطيع أن تغرق ولو حاولت ذلك... قلت له: قد صدقتك والله... فلا تحاول إثبات أي شيء اليوم... أرجوك... قال: اصمت ونفِّذ ما أقوله حرفيّاً...

كان نيكوس خبيراً في البحر والسباحة... كما أنه كان أستاذاً ماهراً... وبالفعل، فبعد مرور عشر دقائق، كنت قد بدأت أتحرك في المياه بسلاسة وحرّيَّة... ضحك من صميم

قلبه وقال: أنت تسبح كالسمكة أيها الصغير... انظر إلى نفسك... كم أنت تلميذ نجيب... أرأيت الوراثة كيف تعمل أيها الطبيب الحاذق... قلت له متذمراً: بالله عليك أن تكفّ عن سخريتك وتهكمك... أين هي تلك السمكة التي تتكلم عنها؟؟؟ قال: أنت السمكة... وأنت تسبح بشكل رائع... اسمع يا عزيزي... لقد خلق الله الأجنَّة وعلَّمها السباحة في رحم أمها... استعمل غريزتك وأنت في البحر...، لا تفكر بحركاتك ودع جسدك للماء... وستعود ذلك الجنين الذي يسبح في رحم أمه... قلت له: صحيح أنك فيلسوف أيها العجوز... تعجبني طريقة كلامك وثقتك بنفسك... قاطعني قبل أن يغطس في المياه وقال: أنا كريتي فقط وهذا يكفي... ثم تركني وذهب يستمتع بالبحر على طريقته... ثم عاد نحوي وقال: هيا بنا نستلقي قليلاً على الشاطئ لنستريح... رفضت الانصياع للأوامر هذه المرة وقلت: لا، فأنا لم أستوفِ حظّي من مياه البحر بعد... قال ضاحكاً: هكذا هم الأطفال دائماً... في البداية يخافون النزول إلى الماء... حتى إذا دخلوا البحر... لم يعد بالإمكان إخراجهم منه بسهولة... ولكن... لن أتركك وحدك هنا، وستطيع أوامري بحسب الاتفاق...

رضخت للأوامر مجدداً... وخرجنا سويّاً إلى الشاطئ... لقد كان نيكوس يريد أن يجعل كل شيء مشوّقاً ومميزاً... لقد أراد لزيارة البحر هذه أن تكون على دفعتين... وأراد أن

يعطيني درسين في وقتين مختلفين... وهكذا كان...

قضينا وقتاً ممتعاً جداً... ثم ذهبنا كلٌ إلى منزله ليستريح... وتواعدنا على اللقاء مجدداً عند المساء...

وفي المساء، قررنا أن نتمشى على طول الطريق الساحلي لخانيا... كان الليل قد أسدل ظلامه بشكل تام، ولكن القمر كان أقرب ما يكون إلى البدر في تلك الليلة... وكانت أضواؤه تنعكس على أمواج البحر اللطيفة فتصل إلى أعيننا كبريق اللؤلؤ... أما نسيم الليل فكان يصافح وجوهنا بكل رقة وحنان... كنت أشعر بالسعادة العارمة وأنا أسير على خطى نيكوس البطيئة، لأنها كانت تجعلني أستمتع بكل تفصيل جميل أراه... كم أنت رائعة الجمال يا خانيا... إن حبك سيكون في القلب باقياً حتى آخر يوم من حياتي... وسأعود إليك مرة أخرى بإذن الله...

تابعنا سيرنا حتى ظهر الفنار المصري من بعيد ولاح معه أفق طوب خانة وفرقة... فتسارعت خطاي من حيث لا أدري... استمهلني نيكوس قائلاً: لن يهرب يالي تزاميسي أيها الكريتي المهاجر... وستلقي عليه التحية بعد أقل من نصف ساعة من الآن... أنا أعلم كم تتحرق لرؤيته مجدداً... فأنت تشم فيه رائحة جدك... أليس كذلك؟؟؟ قلت له: والله إني لا أعلم يقيناً إذا كانت يدا جدي قد لامست حائط هذا الجامع أم لا، ولكني أشعر تجاهه بإحساس غريب... وأسمع منه أصواتاً مألوفة... رد علي متفهماً:

أعلم ذلك جيداً... تابع سيره واضعاً يديه خلف ظهره وقال: وأنا أيضاً أحب هذا المكان لأنه يذكِّرني بطفولتي... فهنا كنت ألعب مع أقراني، وهناك كنا نتسابق جرياً، ومن على هذه الصخرة كنت أقفز إلى البحر وأغوص في المياه... آه منك أيتها الدنيا كيف جعلت من نيكوس القوي الشاب شيخاً هرماً... أضحكني كلامه وقلت له: أنت لا تزال شابّاً أيها العجوز... ضحك هو الآخر وقال: أنت رجل ماكر... ما سأقوله لك اليوم إن هذه كأس يتجرعها كل الناس... وستذكرني يوماً ما عندما ينفث صدرك نفس الآه التي قلتها اليوم... يومها سأكون رفاتاً تحت التراب... وستكون أنت عجوزاً كهلاً يسخر منك أحد أحفادك بالطريقة نفسها... طبعاً إن هذا ما سيكون حتماً، وسترى ذلك...

كنا قد وصلنا إلى فرقة، وظهر يالي تزاميسي بحلَّته الفريدة وأضوائه المشعَّة... وكان أحد السوّاح يعزف على كمانه هنا، وآخر يداعب أوتار قيثارته هناك... فدنا منهما نيكوس... ووضع لكل واحد منهما بضع قطع معدنية من اليورو... فعزفوا لنا لحن وداع خانيا ونحن نرقب التاريخ من بعيد... كم تجيد استعمال الفرص واستغلال المناسبات أيها الكريتي... وقفنا ننظر إلى الجامع والمرفأ والفنار برهة من الزمن... ثم نظر إليَّ نيكوس وقال: عُدْ إلى هنا مرة أخرى وقِفْ في المكان نفسه وأضفني إلى لائحة ذكرياتك... تذكَّر عمك الكريتي العجوز الذي رافقك كما يرافق ولداً من

أولاده... نظرت إلى صديقي نيكوس ودعوت له بطول العمر... فردَّ عليَّ قائلاً: لا يهم أيها الفتى، فقد سبق وقلت لك إني لا أخاف الموت بتاتاً... فليأت متى شاء... أنا هنا في خانيا، ولن أهرب إلى أي مكان آخر...

كان هذا الكلام يثير شعور القهر عندي... ففي الحقيقة أني أكره الموت وأبغضه بغضاً شديداً... فهو الذي يفرّق الأحبة بعضهم عن بعض، وهو الذي ييتِّم الصغار ويرمِّل النساء، وهو الذي يفتح أبواب البؤس والشقاء، وهو الذي يغدر بالسعادة كلما سنحت له الفرصة... قال نيكوس وكأنه يقرأ أفكاري: الموت هو الحل في كثير من الأحيان، لأنه يضع نهاية للألم، ويفتح المجال أمام الفتيان بمتابعة المسير، وهو جزء لا يتجزأ من قاعدة التوازن في هذه الحياة، ومن دونه لكانت الأرض مليئة بالنساء العجائز، وما بقيت لنا فرصة النظر إلى الفتيات الجميلات... دعك من حديث الموت ولنفتش عن مكان نملأ به بطوننا.... فاليوم هو العشاء الأخير يا صديقي... صدقني هذه المرة... فلنستمتع بطعام مميز في أحد مطاعم الشاطئ تحت ضوء القمر... ولنتسامر إن شئت حتى الصباح... هيا يا صديقي هيا...

مشينا حتى وصلنا إلى المكان المنشود، وكانت الساعة تقارب منتصف الليل إلا قليلاً... كان معظم زبائن المكان يهمّون بالمغادرة بينما كنا نهمُّ بالجلوس... جاءتنا النادلة وسألتنا طلبنا... فأملى عليها نيكوس كل ما كان يشتهيه...

وبعد أقل من ربع ساعة كانت الأطباق تنهال على الطاولة... كان عشاؤنا مزيجاً بين الأطباق البحرية والأعشاب الكريتية المطهية بزيت الزيتون... وكان من بينها طبق فيه نبات أحمر يشبه الجذور... أشار إليَّ نيكوس بأن أتذوقه ففعلت... قال: ما هذا الذي أكلت؟؟؟ قلت: لا أدري ولكني أرى فيه طعم البحر... ضحك نيكوس وقال: أنت ذكي أيها الفتى... هذا نوع نادر من طحالب البحر... لا تجده في كثير من الأحيان... وقد سألت عنه بالمصادفة... وأنت محظوظ أنك لم تترك في زيارتك هذه نوعاً من الأطباق الكريتية إلا وتذوقته...

استمتعنا بالعشاء الأخير كما سمّاه صديقي، ثم تابعنا السير حتى وصلنا إلى الفندق الذي أبيت فيه... كان نيكوس قد ركن سيارته هناك... سألني عن برنامجي ليوم الغد.... قلت إني أريد الذهاب إلى رثيمنو... ففيها شيء جميل قد ناداني... هزَّ رأسه مثنياً على قراري وقال: وددت لو أني أستطيع مرافقتك إليها... فرثيمنو هي مدينة جميلة بكل ما في الكلمة من معنى... وأنا متأكد أنك ستجد فيها عبقاً يشبه الذي وجدته في خانيا... اذهب أيها الفتى إلى المدينة القديمة، فأنا واثق أن جدك قد ذهب أيضاً إلى هناك... توافقنا على خطة يوم الغد وتواعدنا في الصباح الباكر ليأتي ويقلني إلى محطة الباصات... تمنيت له نوماً هانئاً ثم افترقنا كلٌّ إلى غرفته وسريره.

رثيمنو

بزغ نور الصباح سريعاً هذه المرة... كنت قد جهزت نفسي وأعددتها ليوم طويل... انطلق بي نيكوس على عجل، فموعد انطلاق الباص إلى رثيمنو بات قريباً جدّاً... لم نودع بعضنا بأي كلمة أو حتى إشارة، فقد كان الباص على وشك الانطلاق، لذلك وثبت من السيارة إلى المحطة من دون الالتفات إلى صديقي... فقد فهمت أنه لا يحب الوداع بأي شكل من الأشكال...

انطلق الباص إلى رثيمنو... كان بصري شاخصاً إلى الخارج يحاول التقاط أي تفصيل جديد... فهذه هي المرة الثالثة التي أسلك فيها الدرب نفسه... قرى إلى اليمين وبحر إلى اليسار... هكذا هي كريت دائماً... ولم يمض وقت طويل حتى كنت في المدينة الجميلة... وضعت حقائبي في قسم الأمانات، وانطلقت خفيفاً لأمشي أطول فترة ممكنة في قلعة المدينة وأزقتها، إذ لن تكون أمامي فرصة ثانية للعودة إليها في هذه الرحلة... كانت هناك قلعة مهيبة تقف على ربوة بتلّة... قلت: هذا هو المعلم الأول الذي سأزوره في رثيمنو... إنها فورتيتزا... ثم سأطّلع من هناك على المدينة القديمة فأحدد وجهتي التالية...

لقد اعتاد القدماء على بناء قلاعهم وحصونهم في أماكن استراتيجية من الناحية العسكرية بالدرجة الأولى... فهم أرادوا القلعة حصناً، وأرادوها مكاناً عالياً كاشفاً لتحركات العدو الغازي، وموقعاً لانطلاق سهامهم ودفاعاتهم لإنهاك العدو ودحره... سلكت الطريق البحري المؤدي إلى القلعة، ثم صعدت باتجاه بوابتها الرئيسة... وبعد أن ابتعت بطاقة الدخول، بدأت السير من مبنى إلى مبنى، ومن زاوية إلى زاوية... كان منظر البحر من برج القلعة مشهداً فريداً... لم أمكث كثيراً هناك، فقد كنت أريد الوصول إلى مسجد السلطان إبراهيم خان بأسرع وقت ممكن... وكالعادة، فقد كان الجامع هذا أيضاً مجرداً من مئذنته... ولكنه كان لا يزال في حالة جيدة جدّاً... كانت كل نوافذه مسدودة بالقماش السميك، ولكن الباب الرئيس كان مفتوحاً أمام الزوار... قلت لنفسي: هذا هو أول مسجد سأدخله في كريت... فلننظر ما آلت إليه حاله... تقدمت نحو الباب بخطى قلقة... لقد كان الموقف بالنسبة لي دقيقاً... فمن هذا الباب دخل أرباب الدولة الكبار، وبهذه الجدران تمسكوا وهم يخلعون أحذيتهم قبل الدخول... انحنيت لا شعوريّاً أريد خلع حذائي، ولكني رأيت عموم الناس يدخلون المسجد بنعالهم وأحذيتهم كما هي... هذه هي المرة الأولى التي أدخل مسجداً بحذاء... ولكن هذا البناء ما عاد مسجداً، بل أصبح معرضاً للظلال والأضواء، إضافة إلى بعض المجسمات والمنحوتات التي

كانت بمعظمها لا تليق بحجم المكان التاريخي ولا تتوافق مع قصته وماضيه...

لقد كان مسجد السلطان إبراهيم معرّى تماماً من الداخل... حتى من منبره... كانت حجارته المرصوفة بعضها فوق بعض ظاهرة تماماً، ولم تكن مكسوة بأي طبقة أو طلاء أو كتابة... خلافاً لكل مساجد آل عثمان التي كانوا يزخرفون جدرانها وقبابها بآيات القرآن الكريم، وكانوا يعلّقون في كل زاوية من زواياها لوحة مستديرة كُتب عليها لفظ الجلالة واسم النبي محمد وخلفائه الراشدين... لم يكن قد بقي من المسجد إلا المحراب الرخامي المجرَّد، بعد أن نُزع عنه طلاؤه وزخرفه، حتى صار بالكاد ممكناً أن تقرأ الآية القرآنية التي اعتاد العثمانيون كتابتها فوق محاريب مساجدهم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾. جلت في المسجد أتلمس جدرانه وأستنطق حيطانه... أكان يتخيل أحد ما أن يصبح المسجد الذي يحمل اسم السلطان الذي فتح كريت معرضاً لصور ومنحوتات؟! ترى أيعلم السلطان إبراهيم خان ما الذي حلَّ بمسجده؟!

ضقت ذرعاً بما رأيت وشاهدت، وأُصبت بخيبة أمل من الإخراج السياحي لهذا المسجد، فخرجت مسرعاً أبحث عن شيء جديد... لقد كانت القلعة مليئة بالأبنية والكنائس والأديرة، وكان فيها مسرح ومخازن... تجولت في فورتيتزا بأقصى سرعة ممكنة... لأنه كان عليَّ استكشاف المدينة

القديمة، ولم يكن أمامي متسع من الوقت للتسكع هنا وهناك... وقفت على البرج المطل على المدينة القديمة، فوجدت فيها مئذنتين عاليتين تخترقان السماء بقامتيهما... قلت في نفسي: ربما من أجل هذا تُنزع المآذن من أماكنها... ولكن، ما السبب الذي جعل أصحاب القرار يُبقون على هاتين المئذنتين في هذه المدينة بالذات؟؟؟

خرجت من فورتيتزا، وهي من أكبر قلاع كريت على الإطلاق... واتجهت باتجاه المئذنة الأولى، مستخدماً بوصلة الحنين إلى جدي... كان هناك شعور قوي يقول لي: هذه هي المدينة التي ولد فيها الكثير من المهاجرين إلى لبنان وسوريا... دخلت في زقاق وخرجت من زقاق... فشوارع المدينة القديمة كلها أزقة ضيقة، بيوتها متلاصقة بعضها ببعض، ولا تكاد ترتفع أكثر من طابقين... كنت أقول في نفسي: ما أشبه رثيمنو بالحميدية... مشيت بشكل عفوي وكأنني أعرف الشوارع والأحياء منذ وقت بعيد، تلفتُّ عن يميني وشمالي... قرأت أسماء كل الشوارع والطرقات... لقد كنت أكيداً أنها كانت أسماء مستحدثة لا علاقة لها بالماضي... سألت أحد السكان عن الأمر فأكد لي أن ما أقوله صحيح... تابعت سيري فوصلت إلى باحة واسعة كان في وسطها مسجد رائع... صُنع سقفه من ثلاث قباب متساوية الحجم، وارتفعت من جانبه مئذنة باسقة محاطة بأدوات هندسية للترميم أو التدعيم، إلا أنها كانت من دون الرأس

المسنن المعتاد... كانت تلك باحة المسجد التي تُستعمل اليوم حديقة عامة تابعة للبلدية، فيها بعض المقاهي... أحدها قد اتخذ من جدار الجامع حائطاً رصف عليه طاولاته وزهوره بشكل نفيس... سمعت صوت ألحان كلاسيكية تنطلق من مكان قريب... ولكنني لم أكترث للموضوع بتاتاً... فأنا بصدد الدخول إلى مسجد ثانٍ في كريت... دنوت أكثر وأكثر أفتش عن الباب... فوجدت باباً مقفلاً قريباً من قاعدة المئذنة... ووجدت كتابة عثمانية تعلوه... كتبخانة... إذاً فهذا باب مكتبة المسجد... تابعت دورتي فوجدت الباب الرئيس مقفلاً أيضاً... قلت: ما هذا الحظُّ المتعثر؟؟؟ ولكني اهتديت إلى نافذة مفتوحة فدنوت منها... نظرت إلى داخل المسجد فوجدت حاله لا تختلف كثيراً عن جامع إبراهيم خان... الفرق الوحيد أن المحراب كان مكسوّاً بستارة بيضاء تحجبه عن الأنظار تماماً، بينما امتلأت أرجاء المسجد الفسيح بمقاعد زرقاء اللون، تتجه إلى منصة المسرح الموجود أمام القبلة تماماً... ووجدت أستاذاً يدرب تلامذته على عزف مقطوعة موسيقية من المفترض أنهم سيؤدونها في وقت قريب في مكان ما...

لقد كان هذا هو مسجد نارنزي الذي تحول إلى معهد تعليم الموسيقى في رثيمنو... مُنعت من الدخول أو الاقتراب أكثر... فللمكان حرمته وقوانينه... ولا يحق لغريب أن يفسد تركيز التلاميذ ومعلِّمهم لمجرد فضول لا معنى له ولا

قيمة... ابتعدت عن النافذة وجلست على مقعد قريب... تأملت الماضي والحاضر بوجهيهما... وتأملت الناس من حولي... رأيت الحياة تمضي من دون أن تكترث لشيء، ورأيت الأرض تستبدل بالقوم أقواماً آخرين ليسوا بالضرورة مثلهم... ورأيت المتناقضات ماثلة أمام عينَي بتجرُّد كامل... رأيت مشهدين مختلفين... أحدهما جميل وثانيهما بشع... ولكن من يعرف الجمال ومن يحدد معالمه؟... فلطالما كان الجمال نسبياً يختلف من شخص إلى شخص... ولذلك يمكن القول ببساطة: إن ما أراه بشعاً هو في نظر غيري جميل... وما أستنكره أنا يُثني عليه غيري... والعكس صحيح أيضاً... ولا مجال لحل هذه المعضلة أبداً لأنها مشكلة الإنسانية منذ أن بدأت مسيرتها على وجه الكرة الأرضية...

عاودت سيري مجدداً في المدينة القديمة... أسواق ومحلات ومقاهٍ في كل مكان... شأنها شأن المدينة القديمة في خانيا... ثم رأيت المئذنة الثانية... إلا أنها كانت تختفي كلما اقتربت منها، وكأن في الأمر سحراً أو شعوذة... كنت أبتعد عن المكان فأراها واضحة المعالم أمامي، ثم أقترب منها فلا أجدها... قاربتها مرة من هذا الشارع وتارة من ذاك حتى أعياني التعب... كنت أجد في كل مرة بقايا مسجد أو قطعاً منه... هناك رأيت حوض الوضوء وقد أصبح مقعداً مستديراً، وهناك رأيت مدخل الجامع الرئيس وقد صار باباً لأحد الأزقة... لقد بقيت مئذنة لجامع لم يعد موجوداً بذاته...

فالخيال الواسع وحده قادر على تجميع المشاهد واستحضار الصورة الحقيقية لمكان أضحى وهماً وسراباً... أدركت الآن سرَّ اختفاء المئذنة وظهورها... ولكن بعد أن خارت قواي من كثرة المشي والتفتيش...

جلست في مطعم مجاور للمئذنة الشبح... فأكلت وشربت وتأملت في نفسي وحالي... لاحظت أن مشاعري أصبحت بليدة، وأني لم أعد أجد في قلبي تلك الغصة السابقة... يظهر أني قد اعتدت على الواقع الجديد... أو أنني قد وصلت إلى قناعة تقضي بأن الوطن الذي كنت قد رسمته في مخيلتي ليس هو نفس المكان الذي أراه اليوم... إذاً، فالمهم ليس المكان ولا الحجارة المركونة فيه، بل المهم هو الإنسان الذي يعمر المكان ويعيش فيه... وهذا هو ما تغيَّر في كريت بالنسبة لي... القيمة هي في جوهر الأمور وليس في قشورها... إن جوهر الموضوع يقضي بأن يعيش المرء في وطنه مع أهله وجيرانه متمتعاً بكامل حريته وكرامته وعزته... ولا وجود لوطن لا توجد فيه هذه الأشياء...

التقطت أنفاسي ثم قررت أن أستأنف المسير في شوارع رثيمنو من جديد... كنت أشعر وأنا أسير بأن أطياف الأولين تلاحقني وتقول: ألم تكتفِ بعد؟؟؟ ماذا تريد أن ترى أيضاً؟؟؟ وهل بقي في مخيلتك مكان شاغر لتملأه بمشهد جديد أو قصة جديدة؟؟؟ تمثَّل لي جدي الذي لم أره في حياتي، وقال: كفاك يا بني... فكل المشاهد التي ستراها

بعد اليوم هي مشاهد مكررة... مكان مختلف بمضمون واحد... فهوّن عليك الأمر وارجع إلى أهلك ودارك... فهناك من ينتظرك ويشتاق إليك... قلت: صبراً عليَّ يا جدي... فوالله ما تقوله حق وزيادة... ولكن الأمر لم يعد بيدي، وأنا مضطر للعودة إلى إيراكليو... وستكون هذه آخر محطة لي في الجزيرة... إني أعدك بذلك... ووعد الحُرِّ دين عليه... لقد تعبت فعلاً وأُرهقت من الجري وراء السراب، ولن أجد أكثر مما وجدت ورأيت...

كانت كلمات جدي تلاحقني وأنا في طريق العودة إلى إيراكليو... وكان طيف أبي يلازمني كما لم أشعر به من قبل... شعرت أني أريد محادثتهما... قلت لأبي: كيف وجدت زيارتي إلى وطن أبيك؟؟ ردَّ علي قائلاً: يا بني، قد علمت شيئاً وغابت عنك أشياء وأشياء... الحقيقة ضالة المؤمن يا ولدي... هي ليست عندكم بقدر ما هي عندنا ها هنا... لقد اطّلعت في رحلتك هذه على مدن وقرى، وكنائس ومساجد، وأسوار وقلاع، ومحلات وأسواق... أكلت أكل كريت وشربت ماءها وتنشقت هواءها... تسامرت مع سكانها وقاطنيها... وكثير منهم جاؤوها بعد أن تركها جدك وأبوه يا ولدي... أتفهم ذلك؟؟؟

لقد كان قدري أن أتركك قبل أن أبوح لك بكل ما كنَّته نفسي تجاهك... ولكني أريدك أن تعلم أني ما تركتك يوماً وحيداً باختياري... كان هذا قدَرك دوماً يا ولدي... كم

وددت أن أكون معك بروحي وجسدي وأنت تطوف في أرجاء وطن أبي!! ولكن هي الدنيا هكذا دائماً أبداً... لا تكتمل فيها صورة ولا تتم فيها فرحة... لقد تابعتُ مسيرتك خطوة خطوة وفرسخاً فرسخاً... كنت أنظر إليك مغتبطاً بإقدامك وعزمك وإرادتك وصلابتك... رأيتك تتلمس البيوت والجدران وتبكي على الأطلال... سمعتك وأنت تقرأ الفاتحة على رفات أجدادك وتدعو لهم.... أحسست بمعاناتك التي علَّمتك الأيام كيف تخفيها... رأيت ابتسامتك وأنت تمشي في خانيا ورثيمنو وإيراكليو... أدركت سعادتك وأنت تجول في جبال سفاكيا... كنت أقول لجدِّك: هذا هو الشبل الذي ربيته يا أبي... هذا هو الطفل الذي تركته صغيراً وهو الآن رجل... كان جدك معي أيضاً يراقب كل أقوالك وأفعالك... لقد كان مسروراً بك بشكل لا يمكن أن تتصوره أو تتخيله... كان يربت على كتفي وينظر إليَّ بعينين محزونتين ويقول: قد ربيته على فرط العاطفة يا إبراهيم؟؟؟ قلت: بل هي فطرته كذلك يا أبي، عليها وُلد وعليها سيموت... هذا هو سميُّك وحفيدك كما رأيت... هو هكذا دوماً... لا يعترف بضعف ولا يقبل إلا بمواجهة الصعاب ومقارعتها... أما وقد فعلت ما فعلته يا ولدي، وقضيت من الوقت ما قضيت، فعُد إلى بلدك وأهلك وعائلتك... فقد وصلني نحيب بناتك وزوجتك وأمك وإخوانك... كلهم ينتظرك هناك يا ولدي.... فلا تفعل بهم ما اتهمتني أني قد فعلته بك...

نظرت إلى أبي وجدي، فرأيتهما يلوّحان بأيديهما وهما يغيبان في الأفق... وسمعت صوتهما يقول لي: إلى اللقاء... أدركت أن الأمر قد وصل إلى نهايته، وأني أعيش آخر ساعات رحلتي إلى كريت... بدأت أذرف الدمع من حيث لا أدري، فأنا كنت سعيداً مع طيفيهما... مستمتعاً بالحديث إليهما... ولكنها الحقيقة التي قالها لي أبي قبل أن يغادرني: هي الدنيا هكذا دائماً أبداً... لا تكتمل فيها صورة ولا تتم فيها فرحة...

فجأة... ومض في الأفق ضوء بعيد... ولاح لي طيفان يقتربان مني أو ربما ثلاثة أو أربعة.... قلت ما هذا؟؟؟ قيل: هذا أملك الذي سيبقى من بعدك... هؤلاء أبناؤك وعائلتك... انظر إليهم لتعرف أن الحياة جميلة بكل ما فيها... شرط أن تعرف الوجهة الصحيحة التي تنظر إليها... لقد مضى الموتى إلى حيث ما هم فيه الآن، وبقي الأحياء ينتظرون منك أن تعتني بهم وتفرحهم وتكون إلى جانبهم... قلت: دعني أيها الهاتف أعطك قراري النهائي في هذا الموضوع... أنا رجل لا يستطيع أن يعيش بعيداً عن الماضي... ولكنني أعدك أن أعمل جاهداً لأقيم التوازن بين الأموات والأحياء، وبين الماضي والحاضر، وبين التاريخ المنصرم والمستقبل القادم... سأروي للأجيال حكايتي هذه، وسأطلب منهم أن يأخذوا منها ما يشاؤون ويدعوا منها ما يشاؤون أيضاً... فلن أغصب أحداً على حب ما أحبه أو بغض ما أبغضه... سأقول لهم إن أجدادكم جاؤوا من جزيرة

جميلة تدعى كريت... هي على بعد سويعات قليلة من وطنكم الذي تعيشون فيه... اذهبوا إليها إذا سنحت لكم الفرصة... فلربما وجدتم طيفي يسير وراءكم، أو عثرتم على نقشي صامداً على إحدى الصخور هناك...

استفقت من غيبوبتي الجميلة هذه لأجد أني وصلت إلى إيراكليو... المحطة الأخيرة في هذه الرحلة...

عدت أدراجي إلى غرفتي لأتهيأ للرحيل... كان عليَّ أن أجمع حاجياتي وأغراضي وأن أنتظر موعد الطائرة التي ستعود بي إلى وطني وأهلي وعائلتي وإلى كل من ينتظرني... كان الوقت يمضي ببطء شديد... فخرجت إلى الشرفة كي أستنشق هواء كريت وأودِّع سماءها وبحرها... رأيت الجبل أمامي واقفاً بعنفوانه المعهود... قلت: وداعاً أيها الجبل الصديق... ردَّ عليَّ بسرعة وقال: إلى اللقاء يا صديقي إلى اللقاء... فأنا على موعد مع أولادك وأحفادك وأحفاد أحفادك... قل لهم إني أنتظرهم ههنا، ولا تخبرهم عن صلفي ورعونتي... فما أنا إلا كريتي يخفي رقة قلبه وفيض أحاسيسه وراء كبرياء طبيعي وخشونة مصطنعة... ضحكت من كل قلبي... هكذا هم الكريتيون... هكذا هي كريت!!!

انتهى

رقم: 606 - 14